فجر الحضارة في الشرق الأدنى

هنري فرانكفورت

ترجمة ميخائيل خوري



هذا الكتاب ...

... . ان وصف مولد الحضارة في الشرق الأدنى وصفاً شاملاً لابدّ له من سفر يبلغ بضعة أضعاف هذا الكتاب . غير اننا ركزنا البحث حول التجديدات والتغيرات الاجتماعيّة والسياسيّة التي يتّضح فيها التطوّر العظيم الذي حصل . وهذه بدورها تؤثر بصورة مباشرة على القضايا التي تنشأ عن ظهور المجتمعات المتحضرة الأولى . ومع ذلك فانها قد نالت اهتماماً دون ما نالت التغيّرات الملازمة لها في ميادين التقنية والفنون ومظاهر الدّين أو اختراع الكتابة .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فجر الحضارة في الشرق الادنى

الطبعة الثانية



نشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر

بيروت – نيويورك

فجر الحضارة في الشرق الأدنى

هنري فرانكفورت

ترجمة ميخائيل خوري

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت

This is an authorized translation of THE BIRTH OF CIVILIZATION IN THE NEAR EAST by Henri Frankfort. Published by Indiana University Press, U. S. A. Also published in Great Britain by Williams and Norgate Limited.

المسهمون في هذا الكتاب

هنري فرانكفورت

ولد في امستردام ، هولندة سنة ١٨٩٧ . درس التاريخ في جامعة امستردام والتحق بجامعة لندن حيث حصل على درجة ماجستير سنة ١٩٢٤ . ومن ثم عاد الى هولندة حيث حصل على الدكتوراه من جامعة ليدن . سافر الى بلدان الشرق الاوسط وعمل ما بين ١٩٢٥ – ١٩٣٧ مديراً لأعمال الحفريات والتنقيب عن الآثار في مصر والعراق حيث ساعد على اكتشاف مدينة اخناتون في تل العمارنة ومدينة سرجون الآشوري .

واكتشافاته في العراق قدمت كثيراً من المعلومات الجديدة عن تاريخ بابل القديم بين ٤٠٠٠ – ٢٠٠٠ ق. م.

عين عام ١٩٤٩ استاذاً لتاريخ آثار ما قبل التاريخ في جامعة لندن ومديراً لمؤسسة واربرغ .

ميخائيل خوري

ولد سنة ١٩٢٠ في تابيه ، المتن . تلقى دراسته الثانوية في مدرسة برمانا العالية ، والجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت حيث تخرج عام ١٩٥٦ بشهادة بكلوريوس في الآداب .

مقـــدمة

لو أردنا وصف مولد الحضارة في الشرق الادنى وصفاً تاماً شامـلاً لما كفانا سفر يبلغ بضعة اضعاف هذا الكتاب ؛ غير أننا ركزنا البحث حول التجديدات والتغيرات الاجتماعية والسياسية التي يتضح فيها التطور العظيم الذي حصـل . ومع أن هذه التغيرات تؤثر تأثيراً مباشراً فعالاً في القضايا التي تنشأ عن ظهور المجتمعات المتحضرة الاولى ، الا أنها قـــد نالت اهتماماً دون ما نالته التغيرات الملازمة لها في ميادين التقنية والفنون ومظاهر الدين او اختراع الكتابة .

ولأن التطورات التقنية والفنية تلقي كثيراً من الضوء على الاحوال الاجتماعية والسياسية فاننا قد اخذناها بعين الاعتبار ، لكننا لم نحاول وصفها بالتفصيل ، وانما ابقينا موضوعنا ضمن اطار محدود لأننا عُنينا في الدرجـة الاولى بتفسير كلمة الحضارة تفسيراً دقيقاً ؛ ذلك أنـــه اذا صح اعتبار كلمتي « الحضارة » و « الثقافة » مترادفتين في الاستعمال العام ، وعليه يصبح كل تفريق بينهما تفريقاً كيفياً ، فان هنالك اسباباً لغوية للتفريق في استعمالها . ان كلمة « ثقافة » ، بما فيها من تأكيدات على شيء لا يمكن تبريره ، شيء نما من نفسه ولم يصنع ، هي الـكلمـــة المفضلة الاثيرة عند الذين يدرسون الشعوب البدائيـة . اما كلمة « حضارة » فتروق لاولئك الذين يعتبرون الانسان مخلوقاً سياسياً بالدرجـــة الاولى . وبهذا المعنى نود نحن ان يُفهم موضوعنا .

هنالك سؤال يتعلق بالمنشأ ، باصل الحضارة . وهـــذا سؤال تركناه بغير اجابة وسيرى القارىء اننا لم نعن كثيراً بقضية المنشأ والاصل بل حاولنا أن نكشف عن جذوع حضارتي مصر وما بـين النهرين لا عن جذورهما . الى أي حد يمكننا أن نتعرف الى جذورهما ، وما هي القوى التي اوجدتها ؟ اعتقد ان على المؤرخ ان يعتبر هذا السؤال سؤالاً تستحيل الاجابـــة عنه . فان محاولة الاجابة عنه لا بد من ان تؤدي بـه نحو تأملات شبيهة بالتأملات والتخمينات الفلسفية ، او أن تغرر به ليعطي اجوبة غير علمية . ومثـــل هذه الاجوبة الخاطئـــة هي التي سببت الأذى الاكبر . ففي كل مرة كانت تحدث تغيرات وتطرأ تجديدات كالزيادة في انتاج الطعام او التحسينات التقنية ، (وكلاهما في الواقع حدثا في الزمن الذي اخذت تظهر فيه الحضارة) كنا نفترض أن هـــذه التغيرات تفسر لنا كيف اصبحت الحضارة ممكنة . ومثل هذا الرأي الخاطىء يقطع الطريق على فهم اكثر عمقاً وشمولاً . وهذه كلمات هوايتهيـد تنطبق على الماضي والحاضر معاً . يقول هـذا الفيلسوف : « في كل عصر من العصور التي تتميز بنشاط كبير نجد أن من بين العوامل التي دفعت بالانسان الى بلوغ الذروة ، نظرة كونية عميقة يؤمن بها الناس ايماناً عميقاً . وهذه النظرة الكونيـة تترك اثرها في الدوافع والحوافز التي تسير الناس . ان هذه النظرة الكونيـة الشاملة يُعبّر عنها تعبيراً جزئياً ، اما تفاصيـــل هذا التعبير فتظهر في شكل اسئلة معينة .... تخفي وراءها اتفاقاً عاماً على مبادىء اولية تكاد تكون من الوضوح بحيث لا يُحتاج للتعبير عنها ، ومن الشمول والاحاطـــة بحيث لا يمكن التعبير عنها . وفي كل فترة نجـد شكلاً عاماً لنظم التفكير ، وهذا الشكل شفاف وعام وضروري جداً كالهواء الذي نستنشقه ، حتى اننا لا نستطيع التنبه له الا بعد جهد متناه »[١] .

---

(١) A. N. Whitehead , Adventures of Ideas, (Pelikan Book's , London , 1948) , pp . 20 - 21 .

هذا هو الجهد الذي لا يستطيع المؤرخ ان يتنصل منه ، كما انـــه لا وسيلة مختصرة لفهم الماضي الغريب بدونه ؛ لكنني اعتقد أن الدراسة المقارنة للمظاهر المتوازية تؤدي ، بكل تأكيد ، الى توضيح الشكل الظاهر والضمني .

وقد قصرت بحثي على مصر وبلاد ما بين النهرين ، مركزي الثقافة في الشرق الادنى القديم ؛ اذ أن الحضارة في المناطق المجاورة لهما نشأت متأخرة ، وكانت دائماً ، الى حد ما ، مشتقة منهما . وقد تأثرت مصر ايضاً ، في فترة نشوئهـا ، بحضارة ما بين النهرين ، ولكن بدون ان تفقـــد طابعهـا الاصيل الفريد . ومسألة الاتصال الثقافي هذه بين البلدين هي من الاهمية لقضية بحثنا لدرجة انني تناولت الاثباتات المتعلقة بها في ملحق .

ان الفصول التالية نصوص موسعة لمحاضرات القيت في جامعـــة انديانا ، بلومنغتون ، في شتاء سنة ١٩٤٨ – ١٩٤٩ لمؤسسة باتن . وانني ممتن للدكتورة هلين ج . كانتور ، من المؤسسة الشرقية في جامعـة شيكاغو ، لمساعدتي بسخاء بالمصورات للرسمين الاول والرابـع .

مؤسسة واربرغ
جامعة لندن – ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠

هنري فرانكفورت

١ دراسة الحضارات القديمة

يتناول موضوع دراستنا مولد الحضارة في الشرق الادنى ، ولذلك لن نتطرق إلى بحث كيف أصبحت الحضارة في المطلق ممكنة ، ولا اعتقد ان هنالك جواباً أكيداً عن هذا السؤال . وهو على كل حال سؤال فلسفي اكثر مما هو سؤال تاريخي . غير انه قد يقال إن المادة التي سنبحثها وثيقة الصلة بهذا السؤال الفلسفي ، لأن ظهور الحضارة في مصر وفي ما بين النهرين يمكن اعتباره ، وبحق ، مولداً للحضارة بوجه عام . نعم ان الانتقال من الأحوال البدائية الى الأحوال المتحضرة ، قد حصل اكثر من مرة في التاريخ ، ولكن هذا الانتقال ، هذا الدافع أو الحافز اليه ، كان نتيجة الاحتكاك والاتصال بشعوب غريبة اكثر تمدّناً . ونحن نعرف أمثلة ثلاثة فقط كان فيها ظهور الحضارة تلقائياً ، أي انه لم يكن نتيجة احتكاك واتصال بامم غريبة : في الشرق الأدنى القديم ، وفي الصين ، وفي امريكا الوسطى والجنوبية . اما نشوء وتكوين حضارتي المايا والإنكا فغامض . واما فيما يتعلق بالصين ، فانه ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار امكانية – والبعض يقولون احتمال – وجود دافع من الغرب . لكننا لا نستطيع ان نعلل انبثاق المجتمعات المتحضرة في مصر وما بين النهرين على أساس الاحتكاك والاتصال بالخارج ، إذ ان هذين البلدين كانا الأولين اللذين ارتفعا فوق المستوى العام من الوجود البدائي .

وفي سياق بحثنا سنترك هذه الناحية من موضوعنا جانباً ، أو بكلام آخر ، نحن معنيون بصورة خاصة بالحوادث نفسها لا بحقيقة ظهور الحضارة التلقائي في الشرق الأدنى . وهي المرة الاولى التي يبدو فيها للاحداث التاريخية رونق ووزن . وهنا ، ومنذ اللحظة الاولى ، تعترضنا صعوبة يجب ان نواجهها .

قد يبدو سهلاً ان نتناول ، بطريقة عامة ، الحضارات كوحدات . وهذا ما يجري عليه المؤرخون عادة ، فان ارنولد توينبي ، في دراسته التاريخ ، يميز بدون تردد احدى وعشرين حضارة – « أمثلة على فصائل تنتمي الى النوع العام : المجتمع » – اعتقاداً منه انها الطريقة التحقيقية . لكن لننظر الى المشكلة التي تنشأ عندما نريد ان ندرس نشوء حضارة ما بالذات . فاننا سنجد انه لا يسعنا مجرد الافتراض بان لها وحدة خاصة وطابعاً مميزاً تعرف به ، بل لا بد من ان نوضح هذا الطابع لكي نقرر متى ظهرت وأين ظهرت .

ان هذه المشكلة قلّ ان تجبه اولئك الذين هم اكثر اطلاعاً على الآثار الحسية للعصور القديمة . فإما ان ينهمك عالم الآثار بتبيان المراحل المتتابعة في مادته المتراكمة ، وإما ان يبني مما عثر عليه في تنقيباته قصة متسلسلة الى درجة معقولة لمهارة الانسان ونشاطه المتزايدين . وفي هذه الحال يكون تساؤلنا عن الكيفية والزمن اللذين ظهرت فيهما حضارة مصرية أو سومرية (ما بين النهرين قديماً) تساؤلاً ثانوي الأهمية . ومن ناحية أخرى فان اللغوي لا يواجه المشكلة أبداً ، لأنه يعتبر ان الحضارة السومرية او المصرية وجدت منذ اللحظة التي كتبت فيها كتابات بهاتين اللغتين .

ان مشكلتنا مشكلة تاريخية بالدرجة الأولى، ولها ، تبعاً لذلك ، ناحيتان – ناحية الماهية وناحية التطور .

ما هو ذلك الشيء الذي يكوّن ذاتية الحضارة وطابعها المميز وماهيتها التي تستمر خلال مراحل وجودها المتتالية ؟ وما هي ، من ناحية ثانية ،

التطورات التي تميز مرحلة من الأخرى ؟ اننا ، بالطبع لا نبحث عن معادلة او عن قاعدة عامة اذ ان طابع الحضارة أبعد من أن يلين لمعادلة أو ان يخضع لقاعدة . فنحن نتعرف إليها في وجود تماسك أو ترابط معين بين مظاهرها المختلفة ، وفي انسجام اكيد في اتجاهها ، وفي « اسلوب » ثقافي معين يعطي مؤسساتها السياسية والقضائية شكلاً خاصاً ، وفي فنها وأدبها أيضاً ، وفي دينها وقوانينها الخلقية . وانا اقترح ان ندعو هذه الماهية المبهمة في الحضارة « شكلها » . ان هذا « الشكل » هو الذي لا يمحي ابداً مع انه يتغير بمرور الزمن . واذا تغير فان ذلك نتيجة عوامل داخلية — كالتطور — من ناحية ، وأنا اقترح تسمية مجموعة هذه التطورات بديناميكية الحضارة .

ان تفاعل الشكل والديناميكية يكوّن تاريخ الحضارة ويثير سؤالاً — وهو سؤال يقع خارج بحثنا الحالي — عن مدى أثر « شكل » الحضارة في تحديد مصيرها .

والتفريق بين الشكل والديناميكية في هذا المقام يمكننا من توضيح المسائل المتعلقة بموضوعنا الراهن وهو مولد حضارة الشرق الادنى . فأما من ناحية « الشكل» فيمكننا ان نسأل: ماذا يظهر في الواقع عندما توجد هذه الحضارة؟ وهل يتحقق شكلها تدريجياً ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فمن أين يأتي ذلك التماسك الذي يميزها خلال وجودها التاريخي ؟ واما من ناحية الديناميكية فنستطيع ان نسأل : هل نشوء هذه الحضارة عملية تدريجية ؟ وهل العناصر السابقة تتحول أم انها تتحد على درجات ، أم ان التماسك الخاص للحضارة الناضجة هو نتيجة تطور فجائي عنيف ، هو أزمة يتبلور فيها شكلها — الذي لم يتم تطوره بعد لكنه وحدة كامنة — ، أم هل يولد هذا الشكل ؟ ان عنوان هذا الكتاب يشير الى الجواب الذي تفرض علينا الأدلة والاثباتات ، كما اعتقد ، ان نقبله على انه صواب . ولكن من الاجدر بنا بحث الأدلة والاثباتات ، ان نناقش بعض الافكار السائدة ؛ لأنه اذا صح — كما قلنا سابقاً — ان اولئك الذين

هم افضل اطلاعاً على تاريخ الشرق الادنى القديم ، ندر ان وجدوا فرصة لدرس قضيتنا ، فانه صحيح ايضاً بنفس الدرجـة اننا لسنا ، بالطبع أول من يطرق هذا الموضوع .

انه لغريب حقاً ان يكون الرجلان اللذان خصصا نشاطهما مدى الحيـاة لقضية مولد الحضارة قد فعـلا ذلك وهما يدركان ادراكاً قسرياً انها حضارة تسير نحو الانحطاط . فقد كتب اوسوالد شبنغلر وارنولد توينبي كلاهما في شبح حرب عالمية اكيدة الوقوع . وعملهما متأثر الى حد بعيـد ، باهتمامهما بقضية انحطاط الحضارة . وقد نشر كتاب اوسوالد شبنغلر ، « انحطاط الغرب » لاول مرة عام ١٩١٧ وهو يحمل عنواناً ثانوياً هو « موجز تكوين التاريخ العالمي »[١]. وهذا يدل على أن ناحيـة الشكل – كما اسميناها – مدروسة في مؤلفه درساً تاماً . وفي هذا يكمن في الواقع ، عنصر القيمة الدائمة لمؤلفاته المثـيرة والعنيفة والمتعالية . فقد وضعت كرد فعل ضد نظرة التاريخ السائدة التي كانت مغرضة من وجهتين : فقد كانت تلك النظرة تحاكم تاريخ العالم من وجهة النظر الغربيـة وحسب ، كما كانت تفـترض ، وبتفاؤل تطوري ، ان التاريخ يمثـل تقدم الانسانية . أما شبنغلر فقد رأى أن كلمـة « الانسانية » مجرد كلمة فارغة بلا مدلول . فالحضارات العظيمة غير متصل بعضها ببعض ، بل هي نظم منكمشة على نفسها ذات طبيعة فردية حتى ان الناس الذين ينتمون لاحداها ليعجزون عن ادراك مآتي الاخرى وطرائق تفكيرها . ثم يرى انه حتى في العلم نفسه لا تدل المعرفة على ان ما يتكدس منه يتجاوز حدود الحضارة الواحدة .

ويبدو ، في مثل هذه الظروف ، ان تاريخ العالم ليس ممكناً ابداً . ومثـل

---

(١) O . Spengler Der Untergang des Abendlandes (Munchen 1920)

هذا الرأي يتمسك به احد كبار المؤرخين وهو ارنست ترولتش[1] بالذات . الا ان شبنغلر يعتقد غير ذلك لانه يطبق الوسائل البيولوجية على دراسة الحضارات . وكلمة « التكوين » نفسها التي تظهر في عنوانه الثانوي ، تدل عادة على دراسة الشكل والتركيب في النباتات والحيوانات . وهي كلمة تنبهنا الى توقع اصناف بيولوجية يكثر وجودها بالفعل . وعلى سبيل المثال يرى شبنغلر اننا نستطيع ان نجد في الحضارات المختلفة مشابهات من حيث الشكل لا من حيث الوظيفة . ثم يرى ايضاً ان دورة حياة كل حضارة تمر في نفس المراحل : شباب ونضج ثم هرم . وهذا يدل على ان مقابلة المراحل المماثلة في الحضارات المختلفة قد تكون ذات فائدة ، لكنه مجرد تضليل ان نقابل المراحل التي لا تتماثل ، لان المرء عند ذاك يتوقع ، مثلا ، ان يجد حضارة شائخة (كالحضارة الغربية) قد تستطيع بالرغم من كل ذلك انتاج شعر عظيم ، او دين حي ، وهي مميزات خاصة بالحضارات في مرحلة شبابها .

ويصف شبنغلر مولد الحضارة باختصار في المقطع التالي :

« انها (الحضارة) تزهر في تربة فيمنطقة محددة تحديداً تاماً ، وتبقى متعلقة بها تعلق النبتة بالارض . ثم تموت الحضارة حين تحقق مجموع امكاناتها في صور شعوب ولغات ولاهوت وفنون ودول وعلوم »[2] .

وقد حذفت ما يتعذر ترجمته من اشارات الى Urseelenhafter Zustand وهيالتي يفترض ان الحضارات تنبثق عنها ثم تعود اليها « ارواحها» . وهذا المقطع يبين بوضوح ان شبنغلر ، بالرغم من هذه الاضافات اللامنطقية ،

---

(١) « Der Aufbau der europaischen Kulturgeschichte » in Schmollers Jahrbuch iir Gesetzgebung , Verwaltung und Volkswirtschaft im Deutschen Reiche, XLIV (1920) 633 ff .

(٢) شبنغلر ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

يكتب مثل توينبي تحت تأثير القرن التاسع عشر ، ويحاول ان يفسر التاريخ على ضوء العلم . ولو نحن سلمنا بان البلاد التي تنشأ فيها الحضارة تؤثر في شكلها، فيجب ان نعارض قاعدة شبنغلر التي تقرب من الحتمية المادية . (وتتكرر الاشارة اليها في مكان آخر من مؤلفه ، مثلاً : الجزء الأول ، صفحة ٢٩ .) ذلك لانه بتفسيره الانسجام بين كل حضارة وبيئتها الطبيعية على هذا النمط ينكر حرية الروح الانسانية التي تثبتها على خير وجه – ولنذكر مثلاً واحداً فقط – مآتي اليونان في صقلية وجنوب ايطاليا .

ان شبنغلر عند وصفه زوال الحضارة يقع تحت تأثير الآراء العلمية أيضاً . ولكن هذا الأمر ليس واضحاً وضوحاً تاماً . والحقيقة هي ان نجاح شبنغلر يرجع بصورة كبيرة الى ما في بعض تصريحاته الخيالية من مظاهر صواب . فنحن نشعر ان الحديث عن حضارة فتية أو نامية او منقرضة ليس هراء ، بل اننا نرى هذا الحديث باعثاً على الوضوح . ولكن هذه العبارات ليست صوراً مجازية عند شبنغلر ، وعندما يتكلم (كما في المقطع السابق) عن انقراض حضارة ما « حين تحقق مجموع امكاناتها » فهو يعتقد انه يشير الى حالة محتومة يمكن التنبؤ بها بدقة تماما كما يمكن التنبؤ بذبول نبتة عندما ينقطع عنها الماء . والواقع انه يسمي الحضارات « كائنات حية من أعلى مرتبة » [1] ثم يسترسل في تحديد المظاهر التي تميز كل مرحلة من مراحل دورة حياة الحضارة تحديداً دقيقاً . وعنده ان النظام الاستعماري والنظام الاشتراكي يعقبان المجتمع التقليدي والديني ، وان التقنية والتجارة المتسعتين تعقبان العظمة في الفن والموسيقى والادب بكل تأكيد كما يعقب بذر البذار نضج النبتة التي لن تزهر ثانية . لكن أخذ المجاز البيولوجي حرفياً ، أي ان اسباغ الحقيقة على التصور بهذا الشكل ، ليس تكويننا بل هو اسطورة . فالايمان لا المعرفة ، هو الذي يحمل

---

(١) شبنغلر ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩

شبنغلر على انكار حرية الروح واستحالة التكهن بالتصرف الانساني .

ويحل شبنغلر لغز الحياة الطبيعية محل ديناميكية التاريخ التي يعجز كلياً ، نتيجة لذلك ، عن تعليلها [١] . لكنه عالج ناحية « الشكل » معالجة وافية كما لم يفعل احد قبله. ومع ذلك فانه يسرف كثيراً في هذا المجال ايضاً . فان هنالك فرقاً بين تأكيد فردية كل عصر عظيم في الماضي كشرط ضروري لفهم أفضل وأعمق ، وبين التصريح بان القطيعة بين المآتي الثقافية أمر مطلق. ولو ان الغرض الاول كان ما يقصده شبنغلر لما خالفه احد ممن استوعب فردية حالة تاريخية ما ، او عمل فني ، أو مؤسسة ما ، قوله هذا : « ان لكل حضارة امكاناتهـــا التعبيرية الخاصة التي تظهر وتنضج ثم تذوي ولا تعود البتــة » [٢] . وأما قوله : « انني ارى في تاريخ العالم صورة للتكون وللتغير الابديين ، للبناء والانحلال المدهشين للاشكال العضوية . في حـــين يرى المؤرخ المتخصص في ذلك صورة للدودة الوحيدة التي تنتج ، دون ملل حقبة اثر حقبة » ، هذا القول الجارح ينطوي على حق كبير. ورغم ان هذه الحقيقة حقيقة سلبية ، فهي وليدة شعور صحيح بفقر نظرتنا العادية للتاريـخ واعتباره عملية تطورية . وهــذه النظرة تشجعنا على ان نقيس الماضي بمقاييس القواعد والعادات الفكرية والتقاليــد السائدة في الوقت الحاضر ، فيبدو الماضي ، نتيجة لذلك ، مشتملاً على القليل مما هو غير مألوف لدينا . ومن الملاحظ ان مؤرخي المدنيات القديمة او الاجنبية قل ان احتاطوا ضد هذا الخطر في القياس . وقد كان هيرودوتوس اكثر تبصراً في هذه الناحية ، فقد أدرك ان قيم الثقافات المختلفة قد لا تخضع لقياس ، عندما أجمل بصراحة ووضوح وصفه لمصر القديمة بالقول ان قوانينها وعاداتها كانت ، بوجه

---

(١) ثبت خطأ موقف شبنغلر من نقد برغسون Bergson للنظرة الحتمية للحياة في الطبيعة.

(٢) شبنغلر ، المرجع نفسه . وقد عبر ليوبولد فون رانكه (Ranke) عن فكرة مماثلة في عبارته الرائعة البسيطة : « Alle Epochen sind unmittelbar zu Gott »

الاجمال ، على نقيض تلك التي كان يتبناها سائر الناس [١] . ان هذا الدمج الخاص للحقائق يرضي يونانياً في نظرته للبرابرة . اما نحن فاننا نسعى الى الفهم . اننا لا نكتفي بتسجيل الدهشة ولا بقبول الحل الذي تقدمه ، بعض الاحيان ، نظرة خاطئة للموضوعية : اي مجرد سرد للوقائع . فنحن لا نكتفي ولا نقنع عندما نقرأ ان المصريين كانوا يعتبرون ملكهم الهاً ويدفنونه في هرم ، ويدفنون القطط والكلاب ، ويحنطون موتاهم . نحن نريد ان نستعيد « الشكل » الثقافي الذي وجدت فيه هذه الظواهر الغريبة مكانها ومعناهـا الصحيحين . لكن محاولة إعادة الكشف عن التماسك الاصلي لنمط قديم من انماط الحياة من النظر فيما وصلنا من آثاره ومخلفاته ، هذه المحاولة محاولة شاقة لا يمكن ان تتم كاملة ابداً . ان شبنغلر يحاول الوصول الى الحل من اقرب طريق ؛ وهو يبالغ بمدى مقدرته العلمية الملحوظة حقاً ، ويثق بحدسه ، بدون حذر ، فيحاول ان يرغم الاثباتات والأدلة لتـلائم الخطة او الفكرة التي يتصور . فهو ، مثلاً ، يصف الحضـارة المصرية كما يلي :

« ان الروح المصرية — وهي روح موهوبة تميل كثيراً نحو التـاريـخ وتجهد بحماس فطري نحو اللانهاية— ادركت ان الماضي والمستقبل عالمها الكلي وادركت ان الحاضر ... انما هو حد ضيق بين بعدين لا قياس لهما . ان الحضـارة المصرية تجسد للقلق — صلة الروح بالبعد — قلق على المستقبل ، ظـاهر في اختيـار الغرانيت والبسلت كمادة للنحت ، وفي الوثائق الكتابية المنقوشة ، وفي اتقان جهاز متفوق للادارة ولشبكة الري . وبحكم الضرورة ان القلق بشأن المـاضي مرتبط بهذا القلق على المستقبل » [٢] .

---

(١) History, II , 35,

(٢) شبنغلر ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٥ . وبهذه المناسبة نقول ان هـذا المقطع هو افضل مثال على القضية التي نحن بصددها اي الصعوبة التي تكاد تكون مستعصية عندما نحاول ان نعبر عن نمط اجنبي من التفكير . فانني عندما احاول نقل كلمات كاتب الماني معاصر ، اضطر الى =

انني اعتبر هذه الصورة التي يرسمها شبنغلر عن مصر القديمة مخالفة كلياً للحقائق والاثباتات . وقد شرحت هذه الاثباتات مؤخراً وبينت كيف ان المصريين (متناولاً النقاط التي أثارها شبنغلر) كانت لهم فكرة ضئيلة عن التاريخ والماضي والمستقبل ، اذ انهم كانوا يتصورون عالمهم عالماً ثابتاً وغير متطور . لقد خرج تاماً من بين يدي الخالق . والأحداث التاريخية ليست ، بالتالي ، اكثر من اضطرابات سطحية للنظام المقرر ، او احداث متكررة لمغزى لا يتغير . والماضي والمستقبل – وهما ابعد ما يكونان موضوع قلق او اهتمام – كانا موجودين ضمناً ، بصورة تامة ، في الحاضر . والوقائع المتفرقة المذكورة آنفاً – كألوهية الحيوانات والملوك والاهرام والتحنيط – والملامح الكثيرة الاخرى التي تبدو غير مترابطة في الحضارة المصرية – الأقوال والأمثال الحكمية والاشكال الأدبية الخاصة التي تبدو في الشعر والنثر – يمكن فهمها جميعاً على انها نتيجة اقتناع اساسي بأن الذي لا يتغير هو وحده ذو قيمة[١] . وانا لا أقدم هذا الموجز كقانون يمكن بواسطته ان تصبح الحضارة المصرية مفهومة ، لأنه بحد ذاته لا يوضح شيئاً ، ولا يزعم انه يقوم مقام الوصف المفصل المركز لما يوجزه من حياة مصر وفكرها . وحتى مثل هذا الوصف المفصل نفسه لا يمكن ان يكون نهائياً أو تاماً بصورة كلية أبداً . ولكنني اعتقد ان النظرة التي من خلالها تكتسب حقائق كثيرة غير مترابطة في الظاهر ، معنى وتماسكاً ، هي الاقرب

= طمس افكاره وتضييع ظلال المعنى عند كل خطوة. مثال على ذلك الفاظ المانية مثل :
Seele, eminent historisch veranlagt, urweltliche Leidenschaft, Sorge .
فان الفاظاً كهذه تأخذ مفاهيمها القوية ومعانيها العميقة من عالم من الفكر يتضمن ، على الأقل ، أدباً المانياً من الفترة الرومانتيكية . لذلك فان هذه الألفاظ تكاد تستعصي على الترجمة . وواضح ان اختلاف العبارات وتباين المفاهيم اوسع الى حد لا يقاس عندما يتناول الأمر حضارة قديمة .

(١) انظر كتابي : Ancient Egyptian Religion, New York 1948
وايضاً كتابي : Kingship and the Gods, Chicago, 1948

لتمثيل حقيقة تاريخية . أو على الأقل ، لست أعلم تعريفاً أفضل للحقيقة التاريخية . وكل ادراك جديد يكشف عن تعقيدات جديدة تتطلب ايضاحاً ، بينما يحتمل ، في كل وقت ، ان يبقى عدد من الحقائق خارج أي نظام يقرر . وفي أية حال ، اذا كانت وجهة نظرنا صحيحة الى الحد الذي نذهب اليه ، فان وجهة نظر شبنغلر تصبح غير ذات أساس .

ان لازدراء شبنغلر أهمية المظاهر سبباً مزدوجاً . فهو يعود ، من ناحية ، الى غروره الكبير ، ومن ناحية أخرى ، الى قلة خبرته . وهو ، مثل توينبي ، ملم بالعهد القديم الكلاسيكي وبوريثه الغربي فقط . وانسانه القديم هو اليوناني أو الهندي الآري [1] . انه يتجاهل كلياً نشاط اولئك الذين غامروا خارج حدود المألوف ليلتقوا بروح أجنبية على أسسها الخاصة – أي علماء الانثروبولوجيا ، أو بدقة اكثر ، علماء الاثنولوجيا او علماء الانثروبولوجيا الثقافية . وقد اكتشف هؤلاء الباحثون سلوكا يتحدى كل مقياس حديث ، اثناء اتصالهم الشخصي بالشعوب البدائية ، واكتشفوا باتصالاتهم هذه وسيلة لدرس الثقافات الأجنبية يحسن بمؤرخ العصور القديمة ان يتبناها . ان عالم الأثنولوجيا لا يقبل العادات والتقاليد الوحشية على علاتها حتى ولو بدت له مفهومة ، ان لم نقل مألوفة . وذلك لأنه لاحظ ان الصفات الثقافية لا يمكن ان تدرس منفصلة ، لأنها أقسام اساسية من وحدة تامة – من الحضارة المدروسة – تأخذ معناها من الكل الذي تجري فيه . وها هي روث بندكت تشرح هذه النقطة في كتابها عن « نماذج الثقافة » كما يلي :

« ان الانتقاء او الاختيار ، في الحياة الثقافية كما في اللغة ، هو الحاجة القصوى والأولى ... ينبغي ان نتخيل قوساً عظيما تمتد عليه المصالح الممكنة التي

---

(١) شبنغلر المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

تخلقها دورة نمو البشرية أو البيئة أو نشاطات الانسان المتعددة . والثقافة التي تستغل نسبة كبيرة من هـذه الامور تكون غـير مفهومة كاللغة التي تستعمل جميع الأصوات اللغوية وجميع الحروف الحنجرية ، وجميع الحركات الشفوية ، وجميع الحركات المختصة بالاسنان ، والحروف الشمسية ، والحلقيات اللاصوتية والصوتية ، والشفهية والانفية . ان ماهيتها كثقافة تعتمد على انتقاء بعض مقاطع من هذا القوس . وكل مجتمع بشري في كل مكان قد قام بمثل هذا الاختيار في مؤسساته الثقافية . وكل واحد ، من وجهة نظر الآخر ، يتجاهل الأساسيات ويستغل ما ليس اساسياً . فقد لا تعترف احدى الثقافات بأية قيم للعملة بينما تجعلها الأخرى اساسية في كل ميدان من ميادين نشاطها . وفي احد المجتمعات تكون التقنيـة محتقرة الى درجة لا تصدق حتى في تلك النواحي الحياتية التي تبدو ضرورية لتأمين البقاء، بينما تكون التقنية في مجتمع آخر بسيط مثله معقدة وملائمة للوضع بصورة مدهشة . وقد يقيم احدها بناء ثقافياً ضخما على قضية المراهقة ، وآخر يبنيه على الموت ، وثالث على ما بعد الحياة »[١] .

وهكذا نجد — وهذا تحذير للذين يميلون الى التعليلات النفعية — « ان أهمية مؤسسة ما في الثقافة لا تعطي دليلاً مباشراً على فائدتها او حتميتها »[٢] ، لان النشاط الثقافي موحد ولأن الكل يحدد قيمة الاجزاء :

« ففي كل ثقافة تولد أهداف مميزة ليس ضرورياً ان تشترك بها أنواع المجتمع الأخرى . وتبعاً لهذه الاهداف فان كل شعب يواصل تعزيز خبرتـه ... حتى يصبح أشد الاعمال تنافراً ، ميزة لاهدافـه الخاصة « بواسطة أغرب انواع التقمص في أغلب الاحيان . ولا نستطيع فهم الشكل الذي تتخذه هذه الاعمال الا اذا فهمنا اولا المصادر العاطفية والعقلية لذلك المجتمع »[٣] .

---

(١) Ruth Benedict, Patterns of Culture, (New York, 1934),23-4.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤٦ .

« لقد رأينا ان كل مجتمع يختار جزءاً من القوس الذي يمثل التصرف البشري الممكن ، وبمقدار ما يحقق وحدته فان مؤسساته تميل الى تقوية التعبير عن جزئه المختار و كبت التعبيرات المناقضة »[1] .

وفي هذا المقطع الاخير تلميح الى ديناميكية تكوين الحضارة ، لكن العناية الكبرى في كتابات بندكت ومالينوفسكي موجهـــة إلى « الشكل » لا الى الديناميكية ؛ لان المتوحشين في الزمن الحاضر جامدون نسبياً اذا اسقطنا امر الاضطرابات التي يثيرها الرجل الابيض ؛ ومن هنا كان عنوان « نماذج الثقافة ».

ولكن قضية ديناميكية تطور الثقـــافة – تلك القضية التي اساء شبنغلر تفسيرها وتجاهلتها روث بندكت بحق – هي التي تشكل محور مؤلفات توينبي . ظهرت المجلدات الثلاثة الاولى من دراسة التاريخ عام ١٩٣٤ ، وظهرت الثـلاثة التالية عام ١٩٣٩ ، ولا تزال المجموعة النهائية بانتظـار النشر . ولكن الفكرة التي انبثق منها هذا الجهد تعود الى عام ١٩١١ عندمـــا تجول توينبي في كريت وشاهد الآثار المكتشفة حديثاً لامبراطورية مينوس البحرية . ثم انـــه شاهد آثار فيلاً باقية في البندقية من العهد الذي كانت فيه البندقية تسيطر على البحر المتوسط بسفنها . فأصيب توينبي بنوع من القلق إذ راودته الفكرة بان امبراطورية اخرى « تسيطر على الامواج » حتى في وقتنا الحاضر قد تسير على خطى سابقاتها نحو الانحطاط [2] . والاهتمام الشديد بقضية الانحطاط كما يبدو جلياً في مؤلف توينبي ينبغي الا يفسد، بالضرورة، دراسة مولد الحضارة ، وعلى كل حال فان « تطور وماهية » الاشكال الثقافية لا ينبغي تناولها بصورة آلية بل بكل تقدير للفردية التي تتطلبها المواد التاريخية . وهنا ، لا في الاخطـــاء الوقائعية (التي لا بد منها في عمل تاريخي من هـذا النوع) نجد العيب في عمـل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٥٤ .

(٢) Horizon, Vol. XV, No.85 (London, January, 1947) 25-6.

توينبي . ثم يجب فوق ذلك ، ان ننتبه لانعدام دقته في النقد ولنقص في الفكر والصور التي اعتمدها . فتوينبي ، كشبنغلر ، يدعم حججه بتشابيه بليغة مؤثرة بطريقة تجعل هذه التشابيه والمجازات تبدو وكأنها حقائق تاريخية . وحين يشبه الحضارات بالسيارات في شارع ذي اتجاه واحد [1] ، أو برجال واقفين يستريحون او يتسلقون جبلاً ، فانه يعطينا صورة (صورة يظنها هو نفسه صحيحة) بأن اتجاهاً معيناً ، أي حركة امامية او علوية ، تسيّر التاريخ وتتحكم فيه . ومثل هذه الديناميكية تعزى الى الحضارة غير انه لا يمكن ملاحظتها . يقول توينبي :

« ان المجتمعات البدائية ، كما نتعرف اليها بالملاحظة المباشرة ، يمكن تشبيهها بنيام خاملين على حافة احد الجبال ، يرتفع فوقهم منحدر سامق خطر ، وتحتهم هوّة سحيقة ؛ واما الحضارات فيمكن تشبيهها برفاق أهل الكهف هؤلاء — « النائمين في افسوس» الذين وقفوا على اقدامهم لِتَوِّهم وأخذوا يتسلقون المنحدر صعداً »[2] .

وهذه الصورة (الموضحة توضيحاً ضافياً في الكتاب والتي أحسن رسمها في مجلة التايم « Time ») أثرها أبعد بكثير من مجرد اخبارنا بأن المجتمعات البدائية جامدة وان الحضارات ديناميكية متطورة . والميزة البارزة في الصورة هي التلة الصخرية ذات الحافات المتتالية والشواهق العالية . أين هي تلك الحقيقة التاريخية التي يمثلها هذا المشهد والتي تقوم مستقلة عن اهل الكهف النائمين والمتسلقين ، وتعيّن اتجاههم ؟ وكذلك الحال بالنسبة إلى « الشارع ذي الاتجاه الواحد » ؛ فهو يشير الى توجيه معين سلفاً والى تحديد للجهد الثقافي . يعتقد توينبي ان هناك قمة ينبغي تسلقها وشارعاً ينبغي ان يُسار فيه . ومع ذلك فان

---

(١) A Study of History, I,176 .

(٢) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

الحقيقة هي — وهنا نلجأ الى نفس الصورة التي اعتمدها توينبي — اننا نرى رسوماً ثابتة او متحركة في فضاء غائم لكننا لا نعرف شيئاً عن مكانها النسبي . اننا نجهل اية حافة هي فوق الحافة الاخرى او تحتها . ونرى ايضاً سيارات متحركة ، أو واقفة ، او معطلة ، لكننا لا نعرف اذا كانت تسير في زقاق او في طريق عريض ذي أربعة مفارق ، في سهل منبسط او في دائرة ، ونحن نجهل أيضاً ما اذا كان هناك مدخل او مخرج على الاطلاق .

ان صور توينبي تنم عن تحيز لنظرية التطور وعن تحيّز أخلاقي مما يتضارب مع واجب المؤرخ الاول بأن ينصف كل حضارة بناء على ما يلحظه فيها من سمات خاصة . لماذا يجب ان نصف الحضارات التي حققت انسجاماً عميقاً دائماً (كحضارة الزوني او بعض البولينيزيين) بأنها « حضارات جامدة » حيث يقول : « لم يتبق لديهم قوة لاستكشاف الطريق في سيرهم الامامي ، او لاستكشاف القمة المرتفعة فوقهم بقصد المزيد من السير قدماً »[1] . اين هي هذه الطريق او هذه القمة ؟ ولماذا ينبغي لهذه الاوهام وهذه الرغبة المحمومة « للتقدم » ان تقلق قناعة شعب حقق تماسك الفرد بالمجتمع ، والمجتمع بالطبيعة معاً ؟ ان توينبي لا يفعل اكثر من أن يطبق افتراضات تستجيب لحاجة عاطفية في الغرب على مجموعات بشرية تنظر الى القيم من زاوية مختلفة . وفي نظرنا ان توينبي يعلن ان « ديناميكية » الحضارة الغربية تنطبق على جميع الحضارات الاخرى . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك الا بتجاهل « شكل » الحضارات غير الغربية . لكن الفهم في هذه الحال يصبح مستحيلاً .

وليس توينبي اول مؤرخ يدخل فكرة « التقدّم والسير إلى الامام » في مؤلفه ؛ وقد دلل كولينغوود[2] على خطأ هذه الفكرة تدليلاً جيداً . ولا

---

(١) المرجع نفسه ، ج ٤ ، ص ١٣٠ .

(٢) R. G. Collingwood, The Idea of History, (Oxford, 1946),
صفحة ٣٢٨ – ٣٣٠ ولا سيما ٣٢٨ – ٣٢٩ . وينبغي قراءة الفصل كله لان استشهاداتنا منه تعطي فكرة غير تامة عن قوته .

نستطيع ان نذكر من حججه الا هـــذين المقطعين . فهو يرى ان المؤرخ الذي يقابل بين فترتين تاريخيتين او بين طريقتين من الحيـــاة ينبغي له ان « يدركهما ادراكاً تاريخياً ، اي بما يكفي من العطف ودقة النظر ليعيد بناء خبراتهما لنفسه » . وهذا يعني انه قد تقبلهما كشيئين يجب ان يحكم عليهما بمستوياتهما الخاصة . وكل واحدة منهما هي عند المؤرخ « شكل من الحياة له مشاكله الخاصة وينبغي ان يحكم عليه بحسب نجاحه في حل تلك المشاكل لا غيرها . وهو كذلك لا يفترض ان طريقتي الحياة المختلفتين هما محاولتان لتحقيق الشيء الواحد نفسه ، ولا يتساءل مـا اذا كانت الثانية قد نجحت في تحقيقه اكثر من لاولى . فبـاخ Bach لم يحـاول ان يحاكي موسيقى بيتهوفن فيفشل ، ولا كانت اثينا محاولة فاشـــلة نسبيـاً لانشاء روما » .

ثم يشير كولينغوود بعد ذلك الى الحالة الخاصة (من وجهة اكاديمية صرفة) التي يحق للمرء فيها ان يتكلم عن التقدم ،[1] وهو بعمله هذا يتطرق الى قضية تشغل الانسان المعاصر خاصة :

« هل نستطيع الكلام عن التقدم في السعادة أو الراحة أو الرضى ؟ واضح ان ذلك محال ... ان قضية الراحة في كوخ في القرون الوسطى تختلـف جداً عن قضية الراحة في كوخ في حي قذر في الوقت الحاضر بحيث لا مجال للمقارنة بينهما ، ان سعادة الفلاح سعادة لا تتضمنها سعادة المليونير » .

ومع ان توينبي ، أقل دقة من كولينغوود ، فانه يفسر لنا ما يعنيه بالتقدم. انه يقرن فكرة التقـــدم بالنمو « والنمو هو التقدم نحو تحقيق الذات »[2] .

---

(١) كولينغوود ، المرجع نفسه ، صفحة ٣٢٨ - ٣٣٠ وخاصة ٣٢٨ - ٣٢٩ .

يقول : « هناك معنى أصيل واحد لهذا السؤال . ان الفكر في مرحلته الاولى ، بعد ان يكون قد حل المشاكل الاولية لتلك المرحلة ، اذا واجه بعد حله هذه المشاكل ، مشاكل اخرى اعجزته ، ثم اذا حلت المرحلة الثانية هذه المشاكل الاضافية من دون ان يفقد سيطرته على حل المرحلة الاولى بحيث يتحقق كسب من غير خسارة موازية، كان هنالك تقدم.ولا يمكن ان يكون ثمة تقدم في اي وضع آخر . واذا وقعت اية خسارة فان قضيـة مقارنـــة الخسارة بالكسب لا حل لها » .

(٢) A Study of History, III, 216

لكن توينبي ، وهو المسيحي المؤمن ، يعرف بصورة أكيدة ان تحقيق الذات قد لا يكون مسألة تقدم تدريجي اطلاقاً، بل ربما كان تفتحا يشبه الوميض تنكشف فيه طبيعة المرء على حقيقتها . والنتيجة لهذه الخبرة هي ، على وجـه العموم ، نضال مدى الحياة لتحقيق الرؤيا . ولماذا لا يكون لهذا النوع من تحقيق الذات، كما للنمو التدريجي البطيء ، شبهٌ في حيـــاة الحضارات ؟ ان فليندرز بتري Flinders Petrie وغيره يزعمون ان كل صفة قيمة تتصف بها الثقافة المصرية كانت قد نشأت قبل نهاية الأسرة الثالثة . وهكذا نجد ، مرة اخرى ، ان توينبي اعلن بتسرع الحقيقة الشاملة بناء على واحدة فقط من النتائـج الكثيرة الممكنة . واذا كان يصف « بلوغ التاريخ البشري غايته » بانه « تحقيق لتطور الانسان الادنى بواسطة الانسان الى الانسان الأعلى »[1] ويرى في هذا « الهدف الذي اليه : كل الخليقة تئن وتتمخض حتى الآن » (من رسالة بولس الى أهـــل رومية ٨ : ٢٢)[2] فاننا قد نحترم ايمانه لكننا لا يمكن ان نقبله على انه حجة « مؤرخ علمي »[3] .

وانه لعجيب حقاً ان يكون توينبي الذي يستهل مؤلفه بقول ممتاز عن نسبية التفكير التاريخي ، والذي يشكو من « وجهة نظر محليـــة ومعاصرة اعطت مؤرخينا فكرة خاطئة » ، لا يزال هو نفسه خاضعاً بصورة كلية لتأثير وجهـة نظر غربية سادت القرن التاسع عشر . ان تحيزه للتطورية ، وعلميته ، وتناوله للمدنيات ، « كأمثلة على النوع » كلها واحدة . وهو في بعض الاحيان يقوم ، كما فعل ، شبنغلر ، في تأليف الخرافات ، وفي نظرته إلى الموازنة التي اقامها بـين الحضارات والكائنات الحية على انها حقيقة واقعة ، وفي لجوئه للتفكير البيولوجي لاثبات نتيجة تاريخية.[4] واستعماله لكلمتي « الأنواع » و « الأصل» يخفي الحقيقة

---

(١) المرجع نفسه ، ج١ ، ص ١٥٩ .
(٢) المرجع نفسه ج ٣ ، ص ٣٨١ .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ . ان ادغار وند (Edgar Wind) =

الاساسية بان العلم لا يستطيع ان يدرس الافراد كأعضاء من نوع إلا بتجاهله مميزاتهم الفردية . ان المؤرخ الذي يتبع هذا السبيل يقضي هو ذاته على هدفه .

والواقع هو ان العلمية التي يتبجح بها توينبي محاولة في تطبيق طريقة العلوم الطبيعية وأساليبها العلمية ، حيث التجربة امر اساسي وحيث الخبرة تتحول الى ارقام ، على ميدان التاريخ حيث التجربة مستحيلة والخبرة ذاتية . و « الخبرة » عند توينبي (وهي الكلمة التي يجوز ان تمثل عند المؤرخ اطلاعاً دقيقاً على المعلومات التاريخية) تنحصر بالعصور الكلاسيكية وبالحضارة الغربية المنحدرة منها . وعجيب انه يفترض ان هذا الميدان الضيق يستطيع ان يمده بالقياس الفكري الذي يمكن بواسطته ان نتفهم كل ظاهرة تاريخية ؛ وأغرب من هذا انه قد افترض ذلك ، بوعي ومعرفة ، غير مدرك جسامة هذا الافتراض . إذ ان كل من يخرج عن التقليد الغربي ، لا بد له من ان يكتشف بسرعة ، حقيقة ان القيم الموجودة في الحضارات المختلفة لا تقاس بغيرها . وهكذا نجد توينبي ، كشبنغلر ، يسيء الى الاثباتات ويخضع كل حضارة الى نظام للفئات سبق أن اعده وتبناه . ونظامه ليس بناء وهمياً ، كنظام شبنغلر ، بل هو نظام مستمد من الفترة الحرجة في التاريخ الغربي حين انحلت الامبراطورية الرومانية . ان تعميمه للظروف الخاصة لا يؤدي الى اخطاء تاريخية بل الى نتائج لا صلة لها بالموضوع . إن محاولة دحض هذه الآراء من كافة

= في كلامه عن « بعض نقاط مشتركة متماسة بين التاريخ والعلم الطبيعي » في كتابه :
Philosophy and History , Essays Presented to Ernst Cassirer ,
(Oxford , 1936) pp . 255 - 64 . يبين ان التطورات العلمية الاخيرة التي تجعله اقل « دقة » بكثير ، تؤدي بالعلماء لاثارة اسئلة « يجب المؤرخون ان ينظروا اليها كأنها تخصهم » . لكن اذا كانت هذه التطورات الاخيرة قد جعلت العلم اكثر «انسانية » فان وند مفرط في تفاؤله عندما يقول ان « فكرة وصف الطبيعة بانها تخضع الناس ومصائرهم بدون تمييز ، كالصخور والحجارة ، ، الى قانونها الذي لا يتبدل ، تستمر ككابوس عند بعض المؤرخين فقط » . اذ انها لا تزال عند الكثيرين منهم (مغفلين ذكر علماء الاجتماع) الفكرة المحببة .

الوجوه تقتضينا الكثير من الجهد والارهاق ، لذلك نكتفي بهـــذين المقطعين اللذين يتناولان مصر ، كمثالين ، للتدليل على ما نذهب إليه .

يتوقع توينبي ان يجد في كل حضارة شبهاً بالكنيسة المسيحية الاولى في الامبراطورية الرومانية ولذلك يفترض انه كان لمصر « كنيسة اوزيرية » تمثل « كنيسة عالمية خلقتها طبقة من البروليتاريا داخلية » [1] . ان الكنيسة ، كهيئة منظمة من جماعة من المؤمنين ، لم تعرف في مصر في أي زمن (ولا في بلاد ما بين النهرين ايضاً) . وعبادة اوزيرس ، التي كانت دائماً شغل الملك الشاغل ، انتشرت بين صفوف الشعب جميعاً . لكنها كانت واحدة من العبادات المختلفة التي ملأت حياة كل مصري . ولم يكن الاله محترماً عند إحدى الجماعات أكثر مما كان محترماً عند جماعة أخرى . والواقع أيضاً انه لم يكن في مصر طبقة يمكن تسميتها بالبروليتاريا ، اذا كنا سنطلق هذه التسمية على إحدى طبقات روما في عهد الامبراطورية او على طبقة العمال في عهدنا الحاضر . واذا كان توينبي ، في مكان آخر [2] ، يعزو طرد الغزاة الهكسوس من مصر الى « اتحاد مقدس بين الاقلية الحاكمة في المجتمع المصري والبروليتاريا الداخلية ضد البروليتاريا الخارجيـــة كما يمثلها الهكسوس » ، فانـــه لا يسع المرء إلا ان يقول ان هذه الكلمات ، منفردة ومجتمعة ، لا تنطبق على الواقع . لكنه يستمر قائلاً :

« ان هذا التفاهم الذي حصل في اللحظة الاخيرة هو الذي أطال عمر المجتمع المصري – في حالة متحجرة من الحياة في الموت – الفي سنـــة بعد أن كان سير التفكك المحتوم ، لولا هذا التفاهم ، في طريقه الى نهايته الطبيعية من الانحلال . وهذه « الحياة في الموت » لم تكن مجرد عبء غير مُجدٍ على المجتمع المصري المريض ، بل كانت ايضاً سماً قاتلا لنمو الكنيسة الاوزيرية الحية ... إذ ان هـــذا الاتحاد

---

(١) A Study of History, I, 143.

(٢) المرجع نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨ .

المقدس ... اتخذ شكل اندماج بين العبادة الحية لاوزيرس والعبـــادة الميتة لمجموعة الالهة المصرية الرسمية » .

عند قراءة هذا المقطع لا يتصور المرء ان القرون الخمسة التي اعقبت طرد الهكسوس كانت اروع فترة في تاريخ مصر . ولا يفترض المرء ايضاً انـه بعد نحو الف سنة من هذه « الحياة في الموت » كتبت النصوص الدينيـــة التي تمجد امون – رع والتي تعد ، من حيث عمق التفكير والروعة الادبية ، من أرقى الآداب المصرية واقربها الى الوحدانية الجليلة في العهد القديم [1] . ومن المؤكد ان البحث العلمي كان لا بد له من ان يبدأ من حقيقة ان الحضـــارة المصرية احتفظت بحيويتها لمدة طويلة على غـــير ما هو مألوف . الا ان توينبي يعلن ان المآتي المصرية في الالفين الثاني والاول ق.م. ان هي الا أوهام ، لان البرنامج الذي تقيد به (مع انه غريب وبالتالي لا علاقة له بالتاريخ المصري) ، يتطلب « فترة اضطراب » قبل المملكة الوسطى [2] التي لا بـــد ان تعقبها « كنيسة عالمية » بنوعيها من البروليتاريا . وهكذا يتمسك « العـــالم » الشديد التمسك بالعلم ، بنظام موضوع سلفاً ويتصرف بالحقائق على هواه فيعتبر فترة الهكسوس « حداً لوصول عملية التفكك (لولا اجتياح الهكسوس) الى نتيجتها الطبيعية من الانحلال » .

ان هذا الاسلوب الذي انتقدناه في تطبيقه على مصر مقصود به ان يشرح

---

(١) وقد درس هذه النصوص كورت ست (Kurt Sethe) في **Amun und die acht Urgötter von Hermopolis Abhandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften, Phil. - Hist. Klasse, No. 4 Berlin, 1929 .**

(٢) **A Study of History, I, 137,** ولعله ضروري ان نضيف ان صلاحية خطة توينبي للتاريخ المصري لن تزداد حتى ولو نقلنا التاريخ الذي حدده « لفـــترة الاضطراب » الى الالف الثاني ق.م. او الى الالف الاول ق.م. فالخطأ هو خطأ في الطريقة لا في تحديد الزمن .

ديناميكية الحضارات في مراحلها الاخيرة . لان العالم الكلاسيكي لا يستطيع ان يمدنا بافكار جاهزة تلقي ضوءاً على المراحل الاولى . وهنا يدخل توينبي بعض القواعد التي يمكن اجمالها بكلماته كما يلي :

« ان النمو يتحقق عندما يستجيب فرد او اقلية أو مجتمع كامل للتحدي استجابة لا تجيب فقط على التحدي الخاص الذي اثارها بل تعرض المستجيب الى تحدٍ جديد يتطلب منه استجابة جديدة . وتستمر عملية النمو هذه في أية حالة ، طالما ان هذه الحركة المتكررة من فوضى فنظام ، ومن استقرار فخلل متجدد للتوازن ، تظل في استمرار »[1] .

لكن المجتمعات تستجيب بصور مختلفة لتحدٍ مشترك . فان بعضها يميل « الى الخضوع بينما يقوم البعض الآخر باستجابة ناجحة من خلال حركة ابداعية من الفر والكر ، في حين نجد ان فئة ثالثة لا تنجح في الاستجابة على خطوط جديدة ولا تفشل بالاستجابة ابداً ، بل تعمل على تجاوز الازمة بانتظار فرد خلاق أو اقلية مبدعة تشق الطريق ، ثم تواصل السير بهدوء في اعقاب الطليعة » .

ان هذه الكلمات الرائعة « حين ندرسها عن كثب ، لا تفسر المسألة التي تهمنا . ان هذه « الحركة الابداعية من الفر والكر » ممثلة بامثلة لا تفقدها معناها الواضح وحسب بل تجردها من كل معنى دقيق على الاطلاق[2] .

---

(١) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

(٢) نفس المصدر جزء ٣ صفحة ٢٤٨ - ٣٧٧ . وفي تاريخ الأفراد لا يطبقها توينبي فقط على بوذا أو على القديسين الذين انسحبوا من المجتمع بمحض ارادتهم بغية توضيح رسالتهم التي عليهم ان يبشروا بها ، بل ايضاً على رجال امثال ثوسيديدس ودانتي وماكيافللي الذين نفوا وحزنوا بمرارة على نفيهم مع ان ذلك لم يحطم قواهم عن ان تبدع . لقد عملوا في عزلة ليست من اختيارهم ، ولم يرجعوا ابدا ، مهما كان لعملهم من اثر متزايد على مر الزمن . ثم يطبق =

أما القاعدة الاخرى – قاعدة « التحدي والاستجابـــة » [1] فليست هي الاخرى ناشئة عن صلب التاريخ ولكنها نظرية تطبق على التاريخ من الخارج. اما انطباقها – ولنترك جانباً امر قدرتها على تعليل الحقائق ـ فهـو في الغالب اكثر من مشكوك فيه . ان قاعدة « التحدي والاستجابة » تستعمل أحيانـــاً لوصف نزاع حقيقي ، وهي تشير في أحيـــان اخرى الى تقلب الحـــظ في التاريخ فقط . ثم ان هذه القاعدة موضوعة بشكل أو في اطار خادع ، ذلك لأن الحقائق الملحوظة هي استجابة الى تحد نظري موضوع لتعليل تلك الحقائق. وفي المجلد الثاني في « مدى التحدي والاستجابة » نجد عناوين مثل « الحوافز التي تثيرها البلدان القاسية » و « الحوافز التي تثيرها الأراضي الجديدة » و « الحوافز التي تثيرهـــا المصائب » ، و « الحوافز التي يثيرهـــا الضغط » و « الحوافز التي يثيرها العقاب » الخ ... ان المعلومات الاولية في التاريخ تثبت ان شعوباً معينة حققت العظمة . لكن توينبي يعتقد ان الاحوال السيئة التي عدّدها كانت بمثابة دوافع أو حوافز . قد يكون الامر كذلك . لكنه لا يعلل ، في أي حـــال ،

= توينبي قاعدة « الفر والكر » على فئات اجتماعية بطريقة تعجز عن تعليل اي شيء ، ويمثل على ذلك بما يذكره من ان المنشقين ردوا ، بعد اعادة الملكية (في انجلترة) ، على الاضطهاد « بالانسحاب الى مجال التجارة الخاصة ليرجعوا بعد قرن ونصف قرن اقوياء يقومون بالثورة الصناعيـــة » . (المرجع نفسه ، ص ٣٣٤) وهكذا فان تفاعل الضرورة والظروف المختلفة مهما كانت يخضع الى قاعدة تشوش القضية بتضمين سببي هدفي (الانسحاب لكي) يجعل تعليل توينبي للحقائق في اكثر من موضع « كما في صورة المتسلقين والجبل » اقرب الى الميثولوجيا . انني اتجنب عن قصد مناقشة امثلة توينبي من الشرق الادنى او كريت لانه ينبغي علي عندئذ ان اصحح حقائقـــه بحيث اصبح « ناقداً أصوب الادوات نحو النتف والقطع » (Horizon ، عدد ١٥ ص ٥٠ لندن يناير - كانون الثاني - ١٩٤٧) والقراء الذين يهتمون بنقد مسهب مفصل يقوم به ثقة في التاريخ الاوروبي ، ثقة يعنى بالمبادىء اكثر من عنايته بالأخطاء ، على هؤلاء القراء ان يرجعوا الى مقال للاستاذ ب . جايـل (P. Geyl) في مجلة تاريـخ الافكار جزء ٩ نيويورك ١٩٤٨ صفحة ٩٣ – ١٢٤ .

(١) قسم من المجلد الأول والمجلد الثاني بأكمله مخصصان لمناقشتها .

الحقيقة التي تحتاج قبل غيرها الى تعليل ، وهي ان هذه الأحوال كانت دوافع في بعض الحالات لكنها لم تكن كذلك في أحوال أخرى . لذلك لا أرى ان القاعدة تؤدي الى الفهم ، اذ ينبغي لها في كل حالة ان تبتدع تحدياً يناسب الحقيقة التاريخية التي تسميها استجابة .

ان نقدنا لا ينبثق من اعتقاد ايجابي بما يدعى بالتاريخ « العلمي » ويُفترَضُ فيه بالدرجة الأولى ان يجمع حقائق موضوعية ثم يفسرها فيما بعد . وليس اعتراضنا هنا ضد طريقة توينبي ، لكنه ضد صيغ تخفي نقطة البداية والنتيجة لطريقته . ثم اننا ننتقده أيضاً لأنه لا يستخرج من كل حالة تاريخية معينة فكرة التحدي الخاص الذي يمكن اعتباره استجابة لها . انه يطبق القاعدة ، كما قلت ، من الخارج ، وهي لذلك محكوم عليها بأن لا تكون ذات صلة بالموضوع . ان توينبي ، مثلاً ، يرى ان مجيء المصريين السابقين للتاريخ الى وادي النيل المستنقعية استجابة لتحدي جفاف شمال افريقيا . وفي مقرهم الجديد واجهوا مع الزمن تحدياً جديداً هو « التعبير الداخلي للمجتمع المصري الحديث النشأة » ثم انهم فشلوا . والواقع ان المصريين ازدهروا ازدهاراً كبيراً الفي سنة بعد عصر الاهرام . لكن توينبي يظنهم فشلوا لأنه يعجز عن أن يتصور «استجابة» بصيغ مصرية ، بل بصيغ مألوفة لديه كالحكومة العلمانية ، والديمقراطية ، وقانون الفقراء[1] . لكن بما انه لا الاغنياء ولا الفقراء المصريون نظروا الى دولتهم هذه النظرة ، فان استنتاج توينبي لا صلة له بالموضوع . صحيح انه يستشهد بقصص رواها التراجمة الى سواح يونانيين في العصور المتأخرة عن الحكم الظالم لبناة الاهرام ، لكن الاخبار الحقيقية لمصر الفرعونية تبين لنا ان الناس كانوا يبتهجون بقصص الملوك بمقدار ما كان اهل « الف ليلة وليلة » يبتهجون باعمال الخليفة هارون الرشيد . وسنيفرو الذي يذكره توينبي معروف في الاساطير كحاكم من

---

(١) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٤ .

احب الحكام عندهم . والحقيقة هي انه كان على توينبي ان يبدأ بتحليل « الاستجابة » ، وهذا لا يثبت ، كما يقول توينبي ، ان « الموت وضع يده المثلجة على حياة الحضارة النامية عندما نقل التحدي الذي كان الدافع لنموها من الميدان الخارجي الى الميدان الداخلي (من اخضاع الطبيعة الى تنظيم المجتمع) لأن رعاة الشعب ، في هذا الوضع الجديد خانوا الأمانة »[1] . وعند الدراسة الخالية من الافكار المقررة سلفاً تنكشف « استجابة » المصريين كعمل مختلف عن ذلك اختلافاً بيناً . ان فكرة المجتمع المتماسك تماسكاً عجيباً كانت قد تكونت قبل بناء الاهرام بزمن بعيد ، وكان المجتمع حينما بنيت الاهرام قد كاد يتحقق كما يمكن لأي نظام اجتماعي مثالي ان يترجم للواقع ، وبقي هكذا باستمرار امام عيون الحكام والشعب على السواء خلال القرون التالية . لقد كان مثالاً يجب ان يهز مشاعر المؤرخ الغربي بجدته لانه يقع كلياً خارج خبرة الانسان اليوناني أو الروماني أو الانسان الحديث ؛ وهو مثال يستمر بشكل مخفف في افريقيا . انه يمثل انسجاماً بين الانسان والمقدس يفوق كل تصوراتنا وأحلامنا ، وقد استمر بواسطة القدرة المقدسة التي تسلمت شؤون الانسان ممثلة بشخص الفرعون . كان المجتمع يتحرك باتحاد مع الطبيعة ؛ وكانت العدالة ، وهي الميزة الاجتماعية لهذا النظام الشامل ، تتخلل الدولة . « والثقة » التي وضعها الناس في « رعاتهم » لم تكن ابداً تلك الثقة التي يتصورها توينبي ؛ كانت ثقتهم ان يستعمل الفرعون ، الى الحد الأقصى ، السلطة المطلقة التي تخوله اياها ألوهيته والتي تمكنه ، كما لا يمكنه اي شيء آخر ، من ان يؤمن مصلحة المجتمع كله .

يبدو لي ان هذه المناقشات قد اوضحت السبيل لفهمنا التاريخ. ان التعميمات المبنية على خبرة تاريخية محدودة ووضع النظريات ، مهما وضعت بحذق ، لا بد

---

(١) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

من ان يفشلا عن كشف الطابع الفردي لأية حضارة او لأية سلسلة من الاحداث. يجب علينا ان نركز اهتمامنا على ما اسمته روث بندكت « بالقطاع المختار من قوس النشاط البشري الممكن » و « الاهداف الخاصة التي لا تشترك فيها بالضرورة مع نماذج أخرى من المجتمع » . او بعبارتنا نحن : اننا بدراسة مولد حضارة ما نهتم بظهور « شكلها » .

٢ عصور ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى القديم

قلنا في نهاية فصلنا الماضي ان دراسة مولد حضارة ما تعني مراقبة ظهور « شكلها » . ورأينا ايضاً ان هذا الشكل خداع مراوغ ، وانه ليس قالباً ثابتاً ، او مقياساً يمكن تطبيقه على ملاحظاتنا لنرى ما اذا كانت تتلاءم واياه . وقد وصفناه بانه « نوع من الاستمرار في الاتجاه ، او نموذج ثقافي » والتعرف اليه يعني اكتشاف وجهة نظر او نقطة انطلاق بحيث تكتسب الحقائق التي تبدو غير مترابطة معنى وانسجاماً . ولكن بالرغم من ذلك يبقى « شكل » الحضارة امراً غير ملموس ، لانه شيء ضمني قائم في تفكير الناس وقيمهم : وهو يسبغ على مآتيهم – فنونهم ومؤسساتهم وأدبهم ولاهوتهم – صفة او طابعاً مميزاً نهائياً يتضمن كمالاً خاصاً به . لذلك يستدعي بحث نشوء الشكل معرفة بالحضارة في طور نضجها ومعرفة بتعبيرها الكلاسيكي في كل ميدان . عند ذلك يكون ممكناً ان نعود الى الوراء بدءاً من الزمن المعروف نسبياً الى الزمن القديم حتى نصل نقطة تبدو فيها الظواهر المألوفة خفية مبهمة ، وعندها يحق لنا التخمين والحدس عن نشوئها[1] .

---

(١) وقد تبنينا هذه الطريقة بالفعل في « الاركيولوجيا والقضية السومرية » SAOC 4 « Archeology and the Sumerian Problem» شيكاغو ١٩٣٢- وهو مثال اتبعه انطون مورتغات في Frühe Bildkunst in Sumer ليبزغ ١٩٣٥ ، ولكن نقص الكتاب الاخير يكمن في اضطرابه الناشيء عن تحديد غير ملائم للفترات المتعاقبة .

غير ان لهذا الأسلوب في البحث سيئتين : فهو يخفي التطور لانه يسير سيراً يعاكس تيار الزمن ، ويعجز عن ان يصف ، قبل كل شيء ، الاحوال التي في ظلها اتخذت الحضارة شكلها ، وبكلام آخر انه يهمل ما سبقها من احداث قبل التاريخ . ولست الآن مستعداً ان احاول تحديد الفرق بين ما هو قبل التاريخ وما هو التاريخ بصفة عامة ، لأن هذا التحديد ، حتى في الشرق الادنى القديم ، مشكلة عسيرة[1] . وسأستعمل عبارة ما قبل التاريخ لأشير الى فترة سبقت ظهور الحضارة في مصر وفي بلاد ما بين النهرين ، وسأبحث اولاً الظروف المناخية في الشرق الادنى في ذلك الوقت ، ثم شكل المجتمع الذي كان سائداً قبل وقوع الحوادث التي تهمنا بالدرجة الاولى .

تبدو الاراضي الصالحة للزراعة في مصر وفي ما بين النهرين في الوقت الحاضر كأنها واقعة في بقاع كبيرة من الصحراء ، لكنه يبدو ان ضغط الهواء البارد فوق اوروبا في العصر الجليدي ارغم عواصف الاطلسي الماطرة ان تتجه شرقاً وجهة اكثر ميلاً نحو الجنوب حتى ان المساحة الممتدة من شاطىء افريقيا الغربي الى جبال فارس كانت كلها منطقة متصلة من الحدائق والاراضي المعشبة . وفي الجزائر وجنوب طرابلس كان صيادو العصر الحجري القديم يحفرون رسوم الفيلة والجواميس والزرافات على صخور محاطة الآن بمئات من الاميال من قفر تستحيل فيه الحياة . وقد وجدت ادوات ترجع الى العصور الحجرية القديمة في

---

(١) انه لأمر بسيط جداً ان نقول ان التاريخ يبدأ ببدء الكتابة كما يفعل اكثر المؤرخين . ان قولاً كهذا يصلح بالنسبة لمصر حيث ان اقدم النقوش تشير الى اولى الحوادث والشخصيات المعروفة . وهكذا فانها كسجلات للمعارك والاسماء الملكية تكون اقدم مادة التاريخ المصري . لكن الأمر ليس كذلك في بلاد ما بين النهرين حيث اتخذت المدنية شكلها وحيث ظهرت الكتابة قبل ان وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمن طويل . وسنرى ان هذا الفرق بين مصر وما بين النهرين يعود الى تباين الغايات التي كان على الكتابة والفن ان يخدماها . ولكن هذا في نظرنا مثل على مخاطر التعليمات في التاريخ وفي ما قبل التاريخ حتى وان قصرت على ميدن ضيق .

الصحراء المرتفعة التي تحيط بوادي النيل ، وفي سوريا ، وفلسطين ، وكردستان .
والادوات المنقوشة التي وجـــدت في فلسطين (رسم ا ، أ ، ب) والنقوش المكتشفة في شمال افريقيا تحمل شبهاً شديداً بالنقوش والرسوم المدهشة التي عثر عليها في كهوف فرنسا وشمال اسبانيا .

اننا نريد ان نقف قليلاً عند الآثار الحجرية القديمة لنؤكد انــه حتى هؤلاء الصيادين من العصور السحيقة في القدم لا يمكن فهمهم « كجزء من الطبيعة »[1] .
فمنذ العصور الحجرية القديمة ادرك الانسان انه لا يعيش وحيـــداً منفرداً بل عضواً في مجموعة من بني جنسه كما ادرك انــه يجابه ايضاً قوى خارجية خارقة .
وهذا الموقف المزدوج الذي وجد الانسان نفسه فيه يتضح لنا اكثر فاكثر عندما نتناول آثاراً أخرى غير الهياكل العظميــــة والأدوات الحجرية . ففي فرنسا واسبانيا ترك لنـــا صيادو العصر الحجري القديم رسوماً ونقوشاً مدهشة تصور لنا الفرائس التي كانوا يعتمدون عليها . وهذه الاعمال الفنية موجودة في أعماق المغاور البعيدة التي لا يمكن الوصول اليها الا بعد مخاطرة حياتية . واوجه الشبه القائمة بين الناس الذين لا يزالون يعيشون في العصر الحجري تتيح لنا ان نرى في صور الوحوش العجيبة ، وفي آثار الاقدام الراقصة على أراضي الكهوف ، وفي الحجارة ذات الاشارات المستقيمة الخطوط ، وفي رسوم الرجال المقنعـين او الراقصين ، نقول اننا نرى في هذه كلها تعبيرات عن فكرة دينية متماسكة تبين لنا علاقة الانسان الوثيقة المتبادلة بالحيوان ، ومن ثم علاقته بالآلهة . وطبيعي

---

(١) ج . س . سلوتكين (Slotkin) «Reflections on Collingwood's Idea of History » في مجلة « Antiquity » عدد ٨٦ ، حزيران ١٩٤٨ صفحة ٩٩ .
انظر هيلموث بليزنر (Helmuth Plessner) : Die Stufen des Organischen und der Mensch برلين ١٩٢٨ لتفنيد هذه الفكرة الخاطئة .

ألا تكون هذه الصورة الموجزة صورة تامة[1] .وأحد عيوبها انها تستبدل الخبرة او التجربة غير التامة (التي لا يمكن نقلها) بأفكار أو مفاهيم منطوقة، ورغم ذلك نلجأ الى تكوينها لنؤكد ان الانسان كان يملك ، منـذ البداية ، خيالاً خلاقاً ، وانه يجب علينا ان نأخذ ذلك بعين الاعتبار عنـد دراسة التماسك الاجتماعي . واذا كان الناس الاقدمون الذين نعرف عنهم شيئاً قد تعاونوا لاقتناص حيوانات اقوى منهم بكثير فان هـذا الصيد يختلف كلياً عن صيد تقوم بـه مجموعة من الذئاب . ان فنهم يثبت ان علاقتهم بما يصيدون لم تكن مجرد قتل وافتراس وان جماعاتهم كانت تبقى معاً لا لمجرد الحاجة المشتركة فحسب بـل ايضاً بسبب المفاهيم الدينية الخلاقة التي تظهر في الافعال لا في العقائد .

ان كيفية الانتقال من ثقافة العصر الحجري القديم الى ثقافة العصر الحجري الحديث لا تزال امراً مجهولاً حتى الآن . لكننا نعلم ان تغير المناخ الذي بدأ في العصر الحجري القديم استمر في العصر الحجري الحديث ، وقد غيّر تدريجياً الاحوال المعاشية في الشرق الادنى بكامله . وظلت ليبيا غنية بحدائق الكروم وباشجار الزيتون وبالماشية حتى نهاية الالف الثاني ق . م . وهذه حقيقة يمكن استنتاجها من الغنائم التي جلبها احد فراعنـة السلالة الاولى[2] ، والغنائم التي جلبها ساهور من السلالة الخامسة (حوالي ٢٤٧٥ ق . م .) . فقد ذكر الاخير انه جلب معه مئة الف رأس من الماشيـة واكثر من مئتي الف من كل من الحمير والماعز والغنم[3] ، واخيراً غنائم رمسيس الثالث (حوالي ١١٧٥ ق . م .) فقد كان بوسعه ان يأخذ ٣٦٠٠ رأس من الماشية بالاضافـة الى الجياد والحمير

---

(١) انظر بصدد هـذه القضية الدراسة القيمـة التي قامت بها جرترود ليفي Levy – « The Gate of Horn , A Study of the Religious Conceptions of the Stone Age & Their Influence upon European Thought » , Faber & Faber , London , 1948 .

(٢) Capart , Primitive Art in Egypt 236 - 7 , Figs . 175 , 176

(٣) ل . بوركاردت (Borchardt) Das Grabdenkmal des Konigs : Sahure, II ليبزغ ١٩١٣ صفحة ١٠ ولوحة ١ .

والغنم والماعز[١] . وفي الطرف الآخر من الشرق الادنى ، في جنـــوب شرقي ايران ، كان السير اوريل شتين (Aurel Stein) عاجزاً عن ايجاد حد ادنى من « العمال المحليين » للتحقيق في آثار المستعمرات القديمة المنتشرة بكثرة في تلك البقعة[٢] . ومع ذلك فان الجفاف المستمر كان طابع الفترة منذ حوالي ٧٠٠٠ ق. م . فانقلب ذلك النجد من أراض خضراء الى أراض قليلة العشب ثم الى صحراء قاحلة ، واصبحت اودية الانهر العظيمة غير صالحة للسكن . وحين اخذت المروج والاراضي المعشبة تتكون من المستنقعات والاراضي الموحلة على جوانب الانهر هبط الانسان من المرتفعات ليتخذ منها مسكناً له .

وقد امتلك سكان الوديان الاقدمون معلومات كثيرة كان صيــادو العصر الجليدي يجهلونها . ونحن لا نعلم كيف تم التحول من القديم الى الجديــد ، من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث ، إذ لم نهتد بعد الى ايــة سلسلة من الآثار المتواصلة المفصلة التي تشمل فترة الانتقال لنتعرف الى كيفية حدوثه . وقد استعملت هذه الكلمة ، « التعرف » ، عن قصد لاننا سنتبيّن ان التغيّر كان من نوع خاص بحيث ان نتائجه الاولى تتحدى « التعرف ».ولكننا نعلم على كل حال ان هذا الانقلاب ، كالانقلاب التـــالي الذي يعنينا بصورة اخص ، وقع في الشرق الادنى[٣] .

ان الميزة البارزة للعصر الحجري الحديث هي الزراعة – زراعة الحنطـــة

---

(١) و . ف . ادغرتون (Edgerton) و ج.أ. ولسون (Wilson) Historical Records of Ramses III شيكاغو ١٩٣٦ صفحـة ٦٧ وما بعدهـــا ثم رسزنسكي (Wreszinski) Atlas zur Altaegyptischen Kulturgeschichte III فـي لوحـــة ٦٦ .

(٢) السير اوريل شتين (Stein) An Archaeological Tour in Gedrosia (Memoirs of the Archaeological Survey of India , No. 43) , 34 cf . 6 - 7 .

(٣) و . ج . ول . برايدوود (Braidwood) في Antiquity XXV عدد ٩٦ كانون الأول – ديسمبر ١٩٥٠ ص ١٨٩ – ١٩٥ .

واسمه العلمي (Triticum dicoccum) والشعير ذي السنبلـــة التي لها ست حبات واسمه العلمي (Hordeum hexastichum) كموسمين رئيسين . ولا تزال الاصول البرية لهذه الحبوب موجودة الى الآن في سوريا وفلسطين . وفي المنطقة ذاتها ، في كهوف جبل الكرمل ، اكتشفت بقايا اقدم النـــاس الذين استعملوا المناجل[1]. وهذا لا يثبت بالطبع انهم زرعوا الحبوب ، بل من المحتمل جداً انهم حصدوا أعشابا نابتة برية . وهذه النقطة هامة لأن هؤلاء النـــاس – المعروفين في الادب الاركيولوجي بالنطوفيين أي نسبة الى وادي النطوف – ينتمون الى الفترة الاخيرة من العصر الحجري القديم . ومع ذلك فان النطوفيين كانوا المبتدعين ، او على الأقل أوائل الممارسين ، لفن الحصـاد الذي استمر في اقدم المستعمرات الزراعية للعصور الحجرية الجديدة . وكانت مناجلهم الغريبة مكونة من مقبض عظمي مشقق فيه قطع قصيرة من الصوان « كالاسنان » (رسم ١ – أ ، ب)[2] . وقد وجدت مثل هذه المناجـــل ايضاً في اقدم المستعمرات في الفيوم في مصر (رسم ١ – د)[3] ، وفي حسونة في شمال العراق[4] وفي سيالك قرب كاشان في فارس (رسم ١ . ج)[5]. ولعلها تعود الى ٥٠٠٠ق.م.

---

(١) د . ا . غارود (Garrod) و د . م . ا . بايتس (Bates) The Stone Age of Mount Carmel, Oxford, 1937 .

(٢) تحمل هذه الاسنان لمعاناً خاصاً تحدثه الفلز الصوانيـة في قصلات الاعشاب حتى اننـا متأكدون انها كانت تستخدم لقطع الحبوب (سيسيل ا . كورون في Antiquity IV (١٩٣٠ صفحة ١٨٤ - ١٨٦ و IX ١٩٣٥ صفحة ٦٢ – ٦٦)

(٣) ج . كاتون تومبسون (Caton - Thompson) و ا.و. كاردنر (Gardner) The Desert Fayum لندن ١٩٣٤ صفحة ٤٥ واللوحات ٢٦ و ٢٨ و ٣٠ .

(٤) Journal of Near Eastern Studies عدد رابـع ١٩٤٥ صفحة ٢٦٩ و ٢٧٤ و رسم ٣٧ .

(٥) ر . جيرشمان (Girshman) Fouilles de Sialk, I باريس ١٩٣٨ صفحـة ١٧ وما بعدها واللوحتان ٧ و ٥٤ .

او حوالي الالف سنة او اكثر بعد ظهور النطوفيين . وفي مصر في عهد السلالة الاولى (حوالي ٣١٠٠ ق . م .) ادخل تحسين على مقبض المنجل بطيه او ليه . واصبحت المناجل تصنع من الخشب ، لكنها احتفظت بحرفها القاطع المصنوع من الصوان الصغير (رسم ا . هـ)[١] وبقيت المناجل من هذا النوع تستعمل حتى عهد السلالة الثانية عشرة (حوالي ٢٠٠٠ ق . م .)[٢] . وفي العراق ايضاً ظلت المناجل ذات المقابض الخشبية الملوية وذات الاسنان الصوانية حتى الاسرة الثانية القديمة اي حوالي ٢٧٠٠ ق.م. [٣] اما في آسية الصغرى واوروبة فلم تبق آثار للمقابض ، لكن الاسنان الصوانية المميزة وجدت في الاناضول ، وجنوب روسيا ، وفي حوض الدانوب ، وفي الطرف الغربي من البحر الابيض المتوسط عند ألميريا . وهي موجودة ايضاً في جميع انحاء شمالي افريقيا . وهكذا يتضح ان نشر الزراعة لم يكن مجرد نشر المعرفة بالحنطة والشعير وحسب بل كان الى جانب ذلك تعميم اداة الحصاد الغريبة المعقدة التي كان النطوفيون أول من استعملها على ما نعلم . انبعثت هذه المعرفة الجديدة من الشرق الادنى على شكل دوائر كانت تتسع شيئاً فشيئاً الى ان وصلت شواطىء البلطيك والبحر الشمالي حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . [٤] ومع ذلك فان هنالك اسئلة كثيرة لا تزال بدون جواب . متى بدأ الناس بتحسين الاعشاب البرية

---

(١) ولتر ب . اميري The Tomb of Hemaka (Emery) – القاهرة ١٩٣٨ صفحة ٣٣ لوحة ١٥ .

(٢) و . م . فليندرز بتري Tools and Weapons (Petrie) لندن ١٩١٧ صفحة ٤٦ ولوحة ٥٥ رسم ٧ .

(٣) ب . ديلوغاز The Temple Oval of Khafajah (P. Delougaz) شيكاغو ١٩٤٠ صفحة ٣٠ – ٣١ والرسمان ٢٦ و ٢٧ .

(٤) س . ف . س . هوكس The Prehistoric Foundations (Hawkes) of Europe لندن ١٩٤٠ صفحة ٨٢ ٨٤ .

بالتلقيح والاختبار لانتاج حبوب اكثر تغذية من تلك التي كانت معروفة عند أقدم فلاحي العصر الحجري الحديث ؟ ومتى اتخذت ، في الواقع ، الخطوة الأولى الرائعة لتحديد الحاجات المباشرة بقصد توفير البذور وخزنها وحمايتها من الحشرات والقواطع وبذرها في الوقت الملائم ؟ لعل النطوفيين هم الذين قاموا بهذا الامر ، لكننا لا نعلم شيئاً عنه . ثم اننا نجهل الى اي حد كانت الوسائل الزراعية قد تقدمت عندما اخذت تنتشر في العالم القديم. وعلى وجه التخصيص اننا لا نعلم شيئاً عن نشأة الري الذي لعب دوراً هاماً في مصر وفي بلاد ما بين النهرين والذي كثيراً ما اعتبر عاملاً يعزز الى حد كبير التماسك الاجتماعي والسياسي لانه يجعل كل مستعمرة تعتمد على جاراتها . اذن يجب علينا ان نولي هذا الاختراع اهتمامنا .

يجدر بنا ان نلاحظ احتمال ان يكون الري وسيلة يلجأ اليها الناس الذين لا يحرثون بل الذين يجمعون النباتات البرية . فقد كان هذا ، مثلاً ، شأن بعض الهنود في الحوض الكبير في شمال اميركا الغربي[1] . وليس ببعيد ان يكون النطوفيون قد اتبعوا هذه الوسيلة لاستغلال اراضي وادي النطوف الممتدة على سفح التلال . وعليه فمن الممكن ان يكون الري عنصراً من عناصر نظام

---

(١) يقول س . داريل فورد (Daryll Forde) - Habitat, Economy and Society (لندن ١٩٣٤ صفحة ٣٥) : « في وادي اوين استفادت جماعات كثيرة من الظروف الملائمة لري مساحات من الارض . وتنمو النباتات والاعشاب البصلية وتزدهر حيث يصلها الماء الوافر ، وقد تم انماؤها اصطناعياً بتحويل سواقي الثلوج المنحدرة من سيارا نيفادا عن مجاريها الضيقة . ففي الربيع قبل ان تفيض السواقي بمياه الثلوج الذائبة كان يبنى سد من الصخور العائمة والاخشاب والوحول عبر الساقية ... وفوق السد تحفر قناة او قناتان ، قد يتجاوز طول الواحدة منها الميل ، لتسيير الماء في الارض المنحدرة قليلاً لتوزيعها بأقنية صغيرة ... وبعد الحصاد يهدم السد الاساسي ... لكن لم تجر اية محاولة لزرع الارض او لنكشها ، ثم ان جميع النباتات التي تزرع جنوب الكولورادو لم تكن معروفة البتة » .

الزراعة المعقدة الذي انتشر من الشرق الادنى . لكن هنالك حججاً خطيرة ضد هذا الرأي .

يبدو أولاً ان انتشار الزراعة قد تم ، عن طريق نزوح المزارعين البطيء . ان الحراثة البدائية او حراثة الحدائق (التي لا تزال تمارس) تستنفد خصب التربة فهي تتجاهل الدورة الموسمية أو مبدأ ترك الأرض بوراً لاراحتها . وبعد بضع سنوات لا بد من نكش قطعة ارض جديدة وزرعها . وعندما تحرث جميع قطع الأرض المجاورة للقرية تتوغل القرية في الغابة اكثر فأكثر . ان صغر مستعمرات العصر الحجري الحديث وصغر مدافنهم[١] والوسيلة التي بها انتشروا في القارة الاوروبية لما يشير الى هذا النمط من النزوح المستمر البطيء من المركز حيث بوشرت ممارسة الزراعة لاول مرة . ولا يلاحظ هنا ان الانسان القديم كان يعتمد على الري .

وهنالك ثانياً ، امثلة مشابهة في افريقية تشير الى أن الزراعة الاولية في وادي النيل وفي بلاد ما بين النهرين كان يمكن لها ايضاً ان تجري بدون ري . والاحوال في هذه الوديان النهرية في الزمن القديم تشبه الى حد كبير الاحوال السائدة الآن في منطقة النيل الازرق حيث اشباه البدو الحاميين ، بدو الهدندوة ، يزرعون ويحصدون بالطريقة الساذجة التي سنصفها الآن . ولذلك يمكن ان نفترض وسائل بسيطة مشابهة عند المصريين في الأعصر السابقة

---

(١) يذكر ف . غوردن تشايلد (V. Gordon Childe) في مؤلفه : « Man Makes Himself » صفحة ١٠٩ ان بعض هذه القرى عندما كانت تكتشف في عمليات الحفر لم تكن تغطي اكثر من فدان ونصف الفدان الى ستة افدنة ونصف الفدان . وكانت تتسع لما يقرب من ثمانية مساكن او عشرة . وهو يقول في « The Town Planning Review » عدد ٢١ (١٩٥٠) صفحة ٦ ان ما يتراوح بين ١٦ منزلاً وثلاثين منزلاً هو العدد العادي لجماعة محلية يقدرها بما يتراوح بين ٢٠٠ نفس الى اربعماية نفس .

للتاريخ . وها هو بوركهارت يبدي ملاحظاته عن بـلاد التاكة (كَسَلاَ) في النوبة كما يلي :

« حوالي اواخر شهر حزيران (يونيو) ... تتدفق في البلاد سيول كبيرة من الجنوب والجنوب الشرقي، وتغطي هذه السيول ، خلال بضعة اسابيع، سطح الأرض بالماء الى عمق يتراوح بين قدمين وثلاثة اقدام ... وعندما يجف الماء يترك طمياً كثيفاً على الارض يشبه التربة التي تتركها مياه النيل ... وبعد ان تمتص الارض الفيضان مباشرة يبذر البدو البذور في الطمي النهري بدون اي اعداد سابق على الاطلاق . ويرافق الفيضان عادة امطار غزيرة . وتستمر الامطار بضعة اسابيع بعد الفيضان ، لكنها ليست متواصلة بل تتساقط قوية لفترات قصيرة » .

« ويبدو ان الناس يجهلون الحراثة ، وليست لهم حقول منظمة . والذرة ، البذرة الوحيدة التي لديهم ، تزرع بين الاشجار الشائكة والخيـام بحفر ثقوب كبيرة في التربة لتلقى في كل منها قبضة من البذار . وبعد جمع المحصول في كل موسم يعود الفلاحون الى اشغالهم الرعائية . ويظهر أنهم لم يفكروا ابداً بري الارض لموسم ثان بالمياه التي يمكنهم ان يجدوها في كل مكان يحفرون فيـه آباراً . ويبقى ما لا يقل عن اربعة اخماس الارض بدون زراعة . لكن بما أن كمية الذرة الناتجة تكون كافية عادة... فانهم لا يفكرون ابداً باتخاذ الترتيبات لزيادتها، مع أنهم حـين يكون الفضيان غير غزير ، او حين يكون خفيفاً (ولا يذكر احد انه انقطع تماماً) يقاسون جميع اصناف المشقات من العوز والحاجة »[1] .

ان مثل هذا الاسلوب الزراعي لا يمكن بالطبع ان يكون قـد نشأ في فلسطين وسوريا حيث الانهار ذات الفيضانات المتكررة بانتظام لا وجود لها .

---

(١) جون بوركهارت (Travels in Nubia (J. Burckhardt الطبعة الثانية لندن ١٨٢٢ – صفحة ٣٤٨ – ٣٥٠ .

ومع ذلك فانه يمكن الحصول على النتائج نفسها حيث تنهمر امطار ربيعية غزيرة . ويقول نيوبري عن العبابدة (الحاميين القاطنين بين وادي النيل والبحر الاحمر) : « ان بعضاً من هؤلاء الرحل يزرعون قليلاً من الشعير او الذرة بعد هطول المطر . ثم ينصبون خيامهم فترة من الزمن حتى ينمو الزرع وينضج للحصاد . ثم ينزحون ثانية مع قطيعهم الصغير »[1] .

هناك اذن عدة طرق يستطيع الانسان البدائي بوساطتها ان يستخدم وفراً موقتاً من الماء لانتاج المحاصيل . ولعل توزيع المياه المنظم الذي يميز الزراعة في الازمنة التاريخية في مصر وفي بلاد ما بين النهرين ، لم يكن له وجود على الاطلاق . وسنرى ان قضية التجفيف كانت ، في البداية ، هامة كقضية الري او اكثر منها اهمية . وفي هذه الناحية لا يمكن المقارنة مع حالات عصرنا الحديث .

ان جهلنا باطوار الزراعة القديمة يجعل التكهن بالنتائج الاجتماعية المباشرة لظهور الزراعة امراً عسيراً . فان الواحد منا يتوقع ان يكون لهذه النتائج اثر أبعد في التجمعات المحلية مما لها في التجمع القبلي ، ويتوقع كذلك ان يرى لهذه النتائج اثراً في تضييق نطاق التفكير وبعد النظر ، وكنتيجة لاستقرارهم وتعلقهم ببقعة من الارض ينتظر المرء ان يجد فروقاً في التطور التدريجي الذي يميز مستعمرة عن اخرى . ولعل ادخال الزراعة لم يكن ليعني الانتقال السريع الى حياة مستقرة تماماً ، او الى تنظيم اجتماعي سياسي على درجة واسعة[2] . ولم

---

(١) بيرسي ا . نيوبري (Newberry) Egypt as a Field of Anthropo - logical - Research – المؤسسة السميثونية (Smithsonian) – التقرير السنوي عام ١٩٢٤ (واشنطون ١٩٢٥) صفحة ٤٣٥ – ٤٥٩ .

(٢) ولذلك يبدو من غير المستحسن ان نتكلم هنا عن ثورة العصر الحجري الحديث ، بل انه لا فضل لنا ان نشير الى هذه النقطة كثورة مدنية ، وكلتا العبارتين اللتين استعملها ف . غوردن تشايلد تجعلان التغيير موازياً للثورة الصناعية . لكن كلمة الثورة مستعملة في هذه العبارة بصورة مجازية ، وهي لا تشير الى حادث كالثورة الفرنسية او الثورة الروسية بل الى تغيير في الاحوال . واستعمال لفظة ثورة بهذا المعنى يعطي المرء فكرة مجسمة عن العنف والتغيير المتعمد وهذا مما لا تشير اليه الوقائع ولا تدعمه .

يكن ليعني ايضاً ان جميع الوسائل الاخرى لتأمين القوت قد اهملت : « ان استغلال البيئة استغلالاً جزئياً »[1] صفة خاصة يتصف بها متوحشو العصر الحاضر الذين يقطنون الاراضي التي يكثر فيها الماء والوحل ، ولكنها ليست من صفات القدماء البدائيين الأصيلين . فربما زرع النطوفيون محصولاً ما ، او جمعوا اعشاباً برية ، لكنهم كانوا الى جانب ذلك يصيدون الغزلان والسمك . ان جميع مستعمرات الشرق الادنى تدل على اقتصاد ذي جوانب متعددة مع ان الزراعة كانت تلعب دوراً عظيماً فيها كلها . وفيها كلها ايضاً نجد تربية الماشية . وهذه ظاهرة جديدة يجب ان نأخذها كما هي لان مبدأها والدافع اليها لا يزالان مجهولين تماماً في الوقت الحاضر[2]. لم يكن النطوفيون يقتنون الحيوانات الداجنة.

وهناك اختراعات اخرى ايضاً عرفت في الشرق الادنى في اقدم مستعمرات العصر الحجري الحديث ، منها صناعة الخزف والحياكة . وليس غريباً ان نعجز عن متابعة المراحل الاولى لهذين الاكتشافين . فاذا كانت القدور الاولى ، مثلاً ، مجففة في الشمس او مشوية بالنار قليلاً ، او اذا كانت سلالا مطلية بالطين فقط فاننا لا نتوقع ان نراها تبقى وتدوم طويلاً . وبقاء بعض قطع النسيج العتيق مدة ستة آلاف او سبعة آلاف سنة امر نادر ، ونحن نعد انفسنا محظوظين اذا عثرنا على نماذج منها[3] . وكذلك فان التعرف الى اقدم مستعمرات حسونة

---

(١) ر . ي . سايس (Sayce) – « Primitive Arts and Crafts » (كامبردج ١٩٣٣) صفحة ٢٧ وما بعدها .

(٢) هناك تخمين جذاب عند ف. غوردون تشايلد في مؤلفه « Man Makes Himself » (اكسفورد ١٩٣٩) صفحة ٨٧ – ٩٠ . وكبحث حديث للقضية يزيد شكوكنا ، انظر اندريه له روا جورهان (Leroi - Gourhan) « Milieu et Techniques » (باريس ١٩٤٥) صفحة ٩٦ – ١١٩ .

(٣) ج . كاتون ثومبسون را . و . غاردنر « The Desert Fayum » (لندن ١٩٣٤) صفحة ٤٦ ولوحة ٣٨ وغاي برنتون وجرترود كاتون ثومبسون « The Badarian Civilization » (لندن ١٩٢٨ صفحة ٦٤ وما بعدها) وجاك دي مورغان (Morgan) — « Memoires de la Delegation en Perse » جزء ١٣ (باريس ١٩١٢ صفحة ١٦٣ واللوحة ٤٣) .

المتتالية قرب الموصل (رسم ٢) كمخيم مكون من بعض المواقـــد التي لا تزال تحتوي رماد الحطب ، يعود الفضل فيه الى وسائل الحفريات الحديثة الدقيقة .
كانت المواقد تصنع من « قطع الخزف والحصى المجبول في نوع اولي من الاسمنت» وحواليها الآنية الخزفية [١] . امـــا الجدران ذات الطوب المجفف في الشمس فتظهر في المستويات العليا وحسب . وهذا المثل الفريد لمستعمرة قديمة جداً تم اكتشافها يفسر لنا بقاء المستعمرات الاخرى مجهولة[٢] . لكننا نعلم انه بعـــد عهد النطوفيين (او خلاله) تمت هذه الاكتشافات الهامة ونشرت بين القرى الممتدة من وادي النيل خلال الدلتا ومنها في قوس عظيم (رسم ٥١) من اريحا في الجنوب عبر جبيـــل وراس شمرا (أوغاريت) على الشاطىء السوري الى مرسين في قيليقية . ومن ثمة خلال سهل عاموق شرقي انطاكية عـــبر جرابلس على الفرات الى تل حلف وبازار شاغار في شمال سوريا الى نينوى وحسونه قرب الموصل ، ثم الى الشرق الى سيالك قرب كاشان في اواسط فارس .

هنا وفي هذه المنطقة كلها نلقى مستعمرات صغيرة منطوية على نفسهـــا ومكتفية بذاتها . وربما تم استيراد الخرز والصدف او الكماليات الأخرى من مناطق بعيدة او قريبـــة بوساطة المقايضة المباشرة . وفي بعض الاحيان كانت تستجلب بعض المواد الخام النادرة من الخارج بانتظام ، كما هي الحال في استجلاب

---

(١) سيتون لويـد Seton Lloyd وفؤاد سفـــر في « Journal of Near Eastern Studies » جزء ٤ (١٩٤٥ صفحة ٢٧١) .

(٢) وقد اكد هذه النقطـــة روبرت ج . برايدوود في محاضراته ومقالاتـــه ، انظر « Human Origins, an Introductory General Course in Anthropology, Selected Readings » , Series II الطبعة الثانية (شيكاغو ١٩٤٦) صفحة ١٧٠ وصفحة ١٨١ وما بعدها . وانظر ايضاً ليـنـدا برايدوود في المرجع نفسه صفحة ١٥٣ وما بعدها . ولما كان الكاتبان يحفران عام ١٩٤٨ للمؤسسة الشرقية في جارمو بالقرب من السليمانية فقد وجدا بقايا مستعمرة ربما كانت اقدم من حسونه .

الحجر الزجاجي الأسود مثلاً او الزجاج البركاني المقصوب والمستعمل ، كالصوان في صنع الأدوات . أما فيما عدا ذلك فيبدو لنا انه كان هناك ازدهار ، غير انه ازدهار راكد بعض الركود ، إذ كانت الاختراعات الجديدة العظيمة تستغل استغلالاً كبيراً ، مع ادخال بعض التغييرات القليلة عليها من جيل الى جيل خلال مدة طويلة . وهنالك فروق في الصناعات ، فان الادوات الصوانية والرسوم الخزفية (حتى فن صناعة الخزف) والزينات الشخصية كانت تختلف من منطقة الى منطقة ، لا بل من قرية الى قرية ، كما يظهر ذلك جلياً في آثار فساليا التي تعود الى ما قبل التاريخ . ثم ان هنالك تغيرات في الاساليب حدثت بمرور الوقت . لكن هذه الفروقات المحلية والزمنية ينبغي لها ألا تعيقنا، ونحن نوجز فترة ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى ، عن الوصول الى التطور اللاحق الذي نبتغيه . ولهذه الغاية يمكننا ان نقسم المنطقة الى ثلاثة أقسام : الواديان النهريان الكبيران والمساحة التي بينهما ، بما في ذلك سهول شمالي سوريا الغنية ، وهي الجزء الاكثر اهمية . كانت هذه المساحة الوسطى مزدهرة ، لكنها بقيت غير متطورة حتى الألف الثاني قبل الميلاد ، معتمدة على المراكز الثقافية العظيمة في مصر وفي ما بين النهرين . ولهذا السبب سنحصر انتباهنا بالواديين النهريين .

ان مصر الحديثة ، حتى ولو اننا تجاهلنا جفاف مناخها ، تختلف كلياً عن الأرض التي نتناولها هنا بالبحث . ان الزراعة في هذه البلاد ، في يومنا هذا ، مركزة تركيزاً شديداً حتى انه ليس فيها الآن مراع كافية لماشيتها . اننا نجد الأبقار والجواميس والحمير منتشرة على اطراف الصحراء تعيش على المواسم المزروعة كالبرسيم . والنهر خاضع كلياً للتنظيم والضبط . والوديان الصحراوية خالية من النبات إلا من بعض الشيح والقيصوم . أما في زمن ما قبل التاريخ، وفي العصور الفرعونية ايضاً ، فقد كانت مصر بلاد مستنقعات يرتفع فيها البردى والحلفاء والسمار ارتفاعاً يزيد على ارتفاع قامة الانسان (رسم ٣) .

وكانت الوديان تعج بالحياة أيضاً . وأحسن وصف لها هو انها مراع حيث ظل الانسان حتى عهد المملكة الجديدة (١٤٠٠ ق . م .) يستطيع ان يصطاد الغنم والثيران والحمير وأنواعاً كثيرة من الظباء والحيوانات المفترسة التي كانت تترقبها . وقد أشرنا سابقاً [١] الى ان وسائل الصيد تثبت امكانية وجود أنواع مختلفة من الأراضي . وفي بعض الأحيان تشاهد صفوف من الرجال تسوق الفريسة الى الصياد أو الى الشباك ، وهذه وسيلة ممكنة فقط في المساحات ذات الغابات الكثيفة . وفي احيان اخرى تستعمل الحبال مما يفترض وجود المساحات المكشوفة كسهول اميركا الجنوبية ذات الاعشاب القصيرة .

وفي الوادي كان فيضان النيل السنوي يغير وضع الارض باستمرار . وعندما تغمر المياه شاطىء النهر يتجمع الغرين الذي يبقى معلقاً بسبب سرعة التيار المتضخم . وكان بعض هذا الغرين يرفع ارض النهر ، وتغطي بقيته الشواطىء والاراضي المجاورة لها . اما عند حافة الوادي فهنالك القليل من الغرين . وهكذا تكونت ضفاف عالية الارتفاع . وبعد بضع سنين اقتحمت المياه هذه السدود الطبيعية لتشق لها مجرى جديداً في الانحاء المنخفضة ، على مسافة منها . وانقلب المجرى القديم الى مستنقع ، لكن ضفافه بقيت حواجز وتلالا يزيد ارتفاعها واتساعها بالغبار الذي تذروه الرياح وبالغرين الذي تلتقطه الحافات . وفيها كانت الاشجار تنمو وكان الانسان يستقر ويزرع مواسمه ويرعى حيواناته في لاراضي المجاورة المنخفضة ثم يلجأ الى أراضي الضفاف القديمة العالية عندما يفيض النهر . وخلال الفيضان كانت الاسماك والخنازير البرية وافراس النهر واسراب الطيور المائية الكبيرة تغزو الحقول المجاورة وتوفر لها الغذاء الكافي أثناء الصيف .

---

(١) س. باسارج (S. Passarge) Die Urlandschaft Aegyptens (Nova Acta Leopoldina , N. F.) المجلد التاسع عدد ٥٨ ، هال ١٩٤٠ ، صفحة ٣٥ .

وجميع آثار هذه المستعمرات في الوادي اندثرت منذ زمن بعيد . انهـــا لم تغط بالغرين وحسب ولكنها امحت بتغيرات مجرى النهر [١] . وهذا يفسر لنا لماذا نجد آثار مستعمرات قديمة على حافة الوادي فقط في الانقاض عند سفوح التلال المرتفعة . يجب ان نتخيل ان الوادي لم يكن منبسطاً وبغـير ملامح كما هو اليوم ، بل كان مليئاً بالدساكر المعلقة على الضفاف العالية للمجاري القديمة والمحاطة بشبكة دائمة التغير من الاقنية والمستنقعات والمروج . وحتى في الفترة الوسطى الاولى قبيل الالفين ق . م . غادر أهل منطقـــة من مناطق مصر الوسطى منازلهم ولجأوا الى مستنقعات الوادي ليتجنبوا اخطار الحرب الاهلية والجنود العابثين [٢] . وكانت المستعمرات السابقة لحكم الاسر تبنى على حافـة الوادي في حدائق . وقد وجدت ، آثار الاكواخ والملاجىء ، جذور أشجـار من حجم كبير [٣] .

وفترة ما قبل التاريـخ ، « الفترة السابقة لحكم الأسر » ، في مصر تقـــع بوضوح في جزئين أو مرحلتين (رسم ٤) وتعرف اقدمها بثلاثة ادوار متتاليـة تدعى التاسيّة والبداريّة ، والامراتية [٤] ، وتمثل كل واحـــدة منها تطور معتدل لسابقتها .

---

(١) في عام ١٩٢٣ لم تجد بعثة قاصدة الى قو الكبير في اواسط مصر اثراً لهيكل بطليموسي كان شامبوليون من قبل مئة سنة قد سجله على خرائطه على ضفة النيل الشرقية . ان النهر قد دمر الآثار وقرية قو معاً وبالتـــالي شق له مجرى جديـــداً . (ج برنتون Brunton — « Qau and Badari » - لندن ١٩٢٧ ، صفحة ٢ - ٣ اللوحة الاولى) .

(٢) رودلـف انثيس (Rudolf Anthes) Die Felseninschriften von Hat Nub ليبزغ ١٩٢٨ صفحة ٥٢ ، ٩٥ وما بعدها .

(٣) برنتون Mostagedda لندن ١٩٣٧ صفحة ٦٧ والسير روبرت موند وا . ه . مايرز ، « Cemeteries of Armant, I » صفحة ٧ .

(٤) وتدعى الامراتية (Amratian) في الأدب القديم بالفترة السابقـة لحكم الاسر او القديمة ، او « النقادة الاولى » .

وهي جميعاً تمثل الطبقة الافريقية السفلى للحضارة الفرعونيـة ، او الناحيـة المادية من التعاطف القائم بين اللغة المصرية القديمة واللغة الحامية الحديثة ، وبين اوجه الشبه الجسماني بين المصريين القدماء والحاميين الحديثين ، وبين أوجه الشبه الشديد في العقلية بين هذين الفرعين مما يساعـدنا على فهم العادات والمعتقدات المصرية القديمة بالاشارة الى المشابهات الحامية الحديثة [1] . والمرحلة الثانية من ثقافة الفترة السابقة للاسر — المدعوة بالجرزية [2] — هي من عدة اوجه تتمـة للثقافة الامراتية ، او بكلام آخر ان الطابع الافريقي القوي الطاغي ظـل باقياً . لكن عناصر جديدة اضيفت إليه تشير الى علاقات وثيقة نوعا ما مـع الشرق ومع سيناء وفلسطين . لقد استورد الخزف الاجنبي من هذه الناحيـة ، وقد ابتدع نموذج جديد من الخزف المصري ، نموذج ينطوي على تغير في فـن

---

(١) فرانكفورت « Kingship and the Gods » ، شيكاغو ١٩٤٨ صفحة ٣٤٨ ملحوظة ٤ ، وفي الفهرس افريقيا والحاميون . ولم توجد الآثار البدارية في مصر الوسطى والعليا (في بداري ومحاسنة ونقادة وارمانت وهيراكونبولس Hierakonpolis — انظر برنتون في (Antiquity) جزء ٣ (١٩٢٩ صفحة ٤٦١) وحسب ، بل في النوبـة (انظر « The Badarian Civilization » لبرنتون - لندن ١٩٢٨ صفحة ٤٠) وفي مناطق السودان الشمالية (التقرير عن اكتشافات اوليفر مايرز Myers من كلية غوردون في الخرطوم في مجلة The Times اللندنية ٣١ اذار ١٩٤٨) وفي الصحراء على بعد خمسين ميلاً للغرب من النيل على مستوى عبيدوس (Man عدد ٩١ ، ١٩٣١) وأبعـد من ذلك الى الجنوب على بعد اربعماية ميل للغرب من النيـل على مستوى وادي حلفا (« Journal of Egyptian Archaeology» عدد ٢٢ — ١٩٣٦) صفحة ٤٧ و ٤٨ .

(٢) وتدعى ايضاً النقادة الثانية او الفترة الوسطى السابقة للاسر . لاحظ ان الفترة المتأخرة السابقة للاسر او الفترة السمانيـة قد ثبت انها وهم . والاثار المنسوبة الى هـذه الفترة تعود الى الفترة الجرزية التي انتقلت رأساً الى الاسرة الاولى . انظر هيلين ج . كانتور Kantor في Journal of Near Eastern Studies ٣ (١٩٤٤) ، ١١٠ — ١٤٦ . وعندما نستعمل عبارة الفترة المتأخرة قبل الاسر فانما نعني القسم الاخير من مرحلة مـا قبـل الاسر وبكلام آخر الفترة الجرزية المتأخرة .

صناعة الخزف ، ابتدع هذا النموذج من نمط من المزهريات ذات المقابض المتموجة التي كانت مألوفة في فلسطين . ولعل انواعا كثيرة جديدة من الحجارة المستعملة للمزهريات جلبت من سيناء [1] كما ان زيادة استعمال النحاس يشير بالتأكيد الى علاقات اوثق مع شبه الجزيرة هذه . ومع أن الصوان ظل مستعملاً ، ومع أن صناعة الصوان حققت جمالاً ودقة لا منافس لها ، فان النحاس لم يعد مادة غريبة تستعمل للكماليات ، لكنه ظهر في اشكال حاجات عملية جداً كالحراب والخناجر والفؤوس (واحداها تزن ثلاثة ارطال ونصف الرطل الانجليزي [2]). ثم لعل لغة البلاد تأثرت ايضاً [3] .

ان تجديدات العصر الجرزي يمكن تعليلها على افضل وجه بان نفترض انه كان هنالك شعب تغلغل في مصر العليا وكانت له علاقات وثيقة مع جيرانه

---

(١) ا . لوقاس (A. Lucas) في « Journal of Egyptian Archaeology » ١٦ ، ١٩٣٠ صفحة ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) مجلة Nature العدد ١٢ ، تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٣٢ ، ٦٢٥ . ولوقاس في « Journal of Egyptian Archaeology » ١٣ (١٩٢٧) ، ١٦٢ – ١٧٠ و ١٤ (١٩٢٨) ، ٩٧ - ١٠٨ .

(٣) وصفت اللغة المصرية بانها لغة مشتركة فرضت على بلاد كانت فيها لهجات متعددة ، بنفس الطريقة التي اصبحت فيها لهجة « ايل دي فرانس » « Ile de France » اللغة الفرنسية الرسمية والـ Hochdeutsch وسيلة التفاهم عند جميع الالمان . وهذه اللغة المصرية القديمة تضم تيارين حاميين واضحين : واحد جنوبي او حبشي وآخر غربي او بربري – وآخر سامي . انظر دراسات زهلارز Zyhlarz في مجلة « Africa » عدد ٩ (لندن ١٩٣٦). ٤٣٣ - ٤٥٢ و (Zeitschrift fur Eingeborenensprachen) عدد ٢٣ سنة ١٩٣٢ – ١٩٣٣ صفحة ١ وما بعدها وعدد ٢٥ سنة ١٩٣٤ – ١٩٣٥ – صفحة ١٦١ وما بعدها .

الاسيويين واكتسب منهم بعض ميزات ثقافتهم[١] . ونحن نعلم انــه جرى في الأعصر التاريخية نزوح شعوب من مصر السفلى الى مصر العليا ، ولكنه كان نزوحاً بطيئاً غير منقطع ، ومع ذلك فمن الممكن ملاحظته[٢] . وفي اثناء الفترة الجرزية يبدو أن البلاد اصبحت اكثر كثافة من حيث السكان . وقد اشار بعضهم الى ان تجفيف المستنقعات كان قــد بدأ في تلك الفترة[٣] . ومثل هذا العمل يفترض وجود تعاون بين الجماعات المتجاورة ، ويفترض تنظيمــاً للناس في جماعات . ونستطيع ان نفترض حدوث مثـــل هذا الشيء لكن على مستوى ضيق جداً ، اذ ليس هنالك دلائل على وجود وحدات سياسية كبيرة ، وليس هنالك أثر لخرائب من حجم كبير ، ولا لمنشآت من نوع خارق . واذا اعترض معترض بان هذه ربما وجدت لكنها لم تكتشف للآن ، فاننا نجد انفسنا مرغمين على الاصرار على حقيقة ذات مغزى وهي أنــه ليس بين الالوف الكثيرة المكتشفة من المدافن السابقة للسلالات مدفن واحد يدل بحجمه او باثاثــه على

---

(١) يمكن ان نفترض ان العناصر السامية دخلت عبر وادي الحمامات من البحر الاحمر لكن هذا يترك التجديدات الجرزية بدون تعليل ويتجاهل الحجج التي قدمها ك . سيث .
Die Aegyptische Ausdrucke für rechts und links und die Hieroglyphenzeichen fur Westen und Osten, in Nachrichten von der Koniglichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Gottingen Phil . Hist . Kl سنة ١٩٢٢ صفحة ١٩٧ – ٢٤٢

(٢) ولقد اثر حق في شكل النــاس الطبيعي ، انظر ح . م . مورانت – « **Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times** » في بيومتريكا « **Biometrika** » عدد ١٧ سنة ١٩٢٥ ، ١ – ٥٢ .

(٣) برنتون « **The Badarian Civilization** » صفحه ٤٨ . ولهذا الافتراض تأييد قوي في الرواية القائلة بان مينس ، اول ملوك الاسرة الاولى ، جفف كل الاراضي الواقعة بين « وسطة » والقاهرة قبل ان اسس ممفيس في الطرف الشمالي من البقعة التي جففها . ومثل هذا المشروع يفترض بعض المهارة الراسخة في عمل من هذا النوع .

دفن زعيم كبير[١] . ان التجديد الجرزي لم يغير الطابع العام المميز لثقافة البلاد . وتشير الآثار الى وجود شعب مزدهر متجانس يستغل بيئته الغنية استغلالاً تاماً ، وينتظم في قرى ومناطق ريفية انتظاماً يعتريه كثير من الخلل . وفي مثل هذه الظروف تم ازدهار الحضارة الفرعونية .

وفي بلاد ما بين النهرين حدث الانقلاب الموازي في اقصى الجنوب في السهل المستنقعي بين رأس خليج فارس والارض المرتفعة التي تمتد شمالاً من سامراء وهيت[٢] . كان هذا الجزء الفيضاني القديم من البلاد يحرث ويزرع لبضعة قرون قبل ان استقر الانسان في الجنوب . وقد مر الفلاحون الشماليون في ثلاث مراحل يمكن تمييزها بواسطة ادواتهم المادية (انظر الجدول الزمني في نهاية الكتاب)[٣] . وحين كانت المرحلة الثالثة هي المرحلة السائدة في الشمال نزح الناس من هضبة ايران الى مستنقعات الجنوب . وفي الظروف الراهنة في عهدنا هذا لا يعقل ان يختار الجبليون هذا الاختيار ، ولا يعقل انهم يستطيعون العيش

---

(١) لنقد النظرية المفترضة لتقرير الازمنة السابقة للتاريخ في مصر من حيث توحيد مملكتي مصر العليا ومصر السفلى ، وتعارضها مع نظريات اخرى انظر كتابي « **Kingship and the Gods** » الفصل الاول ، صفحة ٣٤٩ ملحوظة ٦ وصفحه ٣٥٠ ملحوظة ١٥ وصفحة ٣٥١ ملحوظة ١٩ .

(٢) لعل رأس خليج فارس كان ١٢٥ ميلا للشمال من البصرة ولعل هذه المساحة كانت بحيرة مفصولة عن الخليج « بحاجز البصرة » .

(٣) يشار الى اقدمها بانواع عديدة من الخزف البسيط (خزف حسونة) المزخرف بالفرض والحز ، او الجلي الى درجة اللمعان الشديد . وبالاضافة الى ذلك فان هنالك مناجل ذات « اسنان » صوانية ومخازن تحت الارض لخزن الحبوب . وكانوا يقتنون الغنم والماعز والثيران والحمير .. وفي المرحلة التالية يظهر الخزف المدهون الجميل المسمى بالسامرائي – وهو نوع من فن صناعة الخزف المعروف في فارس . ثم حل مكانه نموذج آخر من الخزف اسمه تل حلف نجده في منطقة تمتد من خليج اسكندرونة الى منطقة شرقي الموصل . والمادة الاثرية مدروسة تماماً في مؤلف ان لويس بركنس « **The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia** » شيكاغو ١٩٤٩ .

هناك . لكن هضبة ايران لم تكن قـد اصبحت في الالف الخامس او الرابع ق. م. صحراء مالحة بعد ان كان هنالك انهار كثيرة تنحدر من الجبال المجاورة وتنتهي في بحار داخلية عالية لا منفذ لها ومحاطة بالمستنقعات . ولا يزال سكان المستنقعات في ايران الشرقية حتى اليوم يعيشون على شواطىء البحيرة الكبيرة لنهر هامون [١] . وهم مثل عرب مستنقعات جنوب العراق ، يبنون مراكب واكواخاً من قصب ، ويصطادون السمك ويحتفظون بالجواميس والماشية . ولا بد ان مثـل هذه الاحوال كانت سائدة في كثير من انحاء فارس في الفترة التي ندرسها . والمهاجرون من مثل هذه المناطق يكونون دوماً على استعـداد تام لمواجهة الحياة في منطقة كمنطقة دلتا الفرات ودجلة .

ان الخزف الذي صنعه السكان القدماء في جنوب ما بين النهرين يبين انهـم جاءوا من فارس . وقد احتفظوا في البداية بالرسوم الهندسية الشديدة التشابك التي كانوا يستعملونها في بلادهم الاصلية [٢] . لكنهم حين تركوا وشأنهم سرعان ما تبنوا زخرفة سهلة لا تتطلب عناية (وتعرف بالعبيد) . وقد بقيت مستعملة

---

(١) انظر مقالة ملفين هول Melvin Hall ورسومه في مجلة « Asia » - نيويورك ، شباط ١٩٣٩ .

(٢) عرفت هذه المرحلة الخزفية من النماذج التي عثر عليها في موقع قرب ارك . نولدكه وغيره برلين١٩٣٨لوحات٣٦ - ٤٠ (Neuner Vorlaufiger Bericht ... Uruk -Warka) حين وجدت ممثلة تمثيلاً جيداً في ابي شهرين (اريدو) . انظر مجلة اخبار لندن المصورة ١١ ايلول ١٩٤٨ صفحة ٣٠٥ وسومر عدد ٤ بغداد ١٩٤٨ صفحة ١١٥ وما بعدها . وليس هنالك اعتراض على تسمية هذا الخزف « بخزف اريدو » طالما ان علاقاتها التاريخية بها واضحة. ولا مسوغ للادعاء بان « اهل العبيـد » لا تمكن تسميتهم باقدم سكان جنوب ما بين النهرين لأن خزف اريدو ان هو الا مرحلة سابقة لخزف العبيد . واذا تركنا الخلافات حول التسميات جانباً ، فان الامر جلي بان السكان الاقدمين للسهل تحدروا من فارس . ان الخزف الجديـد يبين مرحلة في فنهم الخزفي سابقة لما وجد حتى الآن في السهل لكنها كانت معروفة من الجهة الغربية للارض الجبلية ، كما هي الحال عند قبة خزينـة قرب سوسه (ج . دي مورغان - « Mèmoires de la Délégation en Perse » باريس ١٩٠٨) .

قروناً عدة وهي تمثل التقليد الفارسي في شكل منحط جـداً . وفي كثير من الامكنة نجد هذا الفن الخزفي في الارض البكر مما يدل على ان المستوطنين انتشروا في بقاع شاسعة في البلاد التي كانوا قد احتلوا منها اولاً مواقـع معينة فقط . وفي اور مثـلاً ، اجريت تحقيقات مفصلة اظهرت الظروف التي كان يعيش فيها الناس حين سكنوها لأول مرة وتبين الطبقات التي لها علاقة بالأمر وجود طبقة غير منتظمة الثخانة مكونة من البقايا الناتجـة عن سكن الناس — كالرماد وفتات الطوب الطيني ، و كسور الخزف الخ . كان هذا على عمق مستوى البحر تقريباً وتحته حزام من الطين سمكه نحو متر ، رمادي اللون من فوق ، مائل الى السواد من تحت ، والكثير منه يعود ، كما هو واضح ، الى النبـات المهترىء . وفيه كسر خزف قليلة في الطبقـة العليا لكنها تكثر في الطبقة السفلى ، و كثيفة في الاسفل ، وجميعها ممددة افقياً . ويظهر انهـا كانت تغرق بسبب ثقلها في الماء الى ان تستقر في الطين الطري . وعلى عمق متر تحت مستوى البحر ظهر طين قاس اخضر اللون تتخلله بقع سمراء متعرجة ناتجـة عن تهرؤ الجذور . وهنا تنقطع آثار أي نشاط بشري . وواضح من هذا كله ان هذه الطبقة كانت اسفل بلاد ما بين النهرين [١] .

كان جنوب بلاد ما بين النهرين يشبه الدلتا المصرية اكثر مما كان يشبه وادي النيل حيث كانت التلال تحبس تعرجات النهر وحيث كانت الضفاف القديمـة والنتوءات تكوّن الاراضي المرتفعة . أما في بلاد ما بين النهرين فان المجرى الأسفل للفرات ودجلة ، حتى في الوقت الحاضر ، كناية عن غابات من القصب حيث يحيا عرب المستنقعات حياة برمائية (رسم ٦) وتجري المواصلات بواسطة زوارق قارية ضيقة . والناس يصيدون السمك ويقتنون الماشية ويعيشون في

---

(١) س . ليونارد وولي (C . Leonard Woolley) في مجلـة (Autiquaties Journal) العدد العاشر ١٩٣٠ صفحة ٣٣٥ .

اكواخ من قصب مبنية على اسس من اصول القصب الملوية الموطأة . وصفة منازلهم كما يلي :

« في طرف واحد فتحة منخفضة صغيرة هي الباب والنافذة والمدخنة في وقت واحد . وعلى الأرض الموحلة المفروشة بالسمار ينام الرجال والنساء والأولاد والجواميس في جوار دافىء ... وغالباً ما ينضح الماء في كل مكان من ارض البيت »[١] .

وخيام الزعماء القصبية افخم صنعاً ، فانها انفاق كبيرة من الحصير القائم على جهاز من حزم القصب التي تكوّن قناطر على شكل نصف دائرة . أما الأبواب والنوافذ فانها في الحصر الموجودة على الطرفين . ونحن نعلم ان هذه الابنية كانت تستعمل في الالف الرابع ق.م. أيضاً لانها ممثلة تمثيلاً تاماً ، وبكل التفاصيل ، في اقدم رسوم الابنية المقدسة ، خاصة في زرائب حيوانات المعابد وحظائرها (رسم ٥) .

ان المتوحشين في الوقت الحاضر ليسوا سوى اشباح مصغرة للبدائيين الحقيقيين . غير ان الناس الذين عاشوا في فترة العبيد كانوا يسيطرون على المستنقع سيطرة لا يطمع ان يصل اليها السكان الحاليون . وفضلاً عن هذا فان اهل العبيد كانوا ينتمون الى اكثر الجماعات تقدماً بين الفلاحين في الفترة السابقة للتاريخ . كان النحاس يستعمل في منازلهم للفؤوس والقدم وللمرايا أيضاً . كان الطوب معروفاً هناك ايضاً . وبناء البنايات الطوبية وطلي السقوف بالقار لمنع تسرب الماء امران اكيدان في هذه الفترة ، وقد يكون انهم عملوا على تجفيف الارض واستصلاحها . وفي كل حال يبدو منذ البدء ان جماعة العبيد

---

(١) فولانين (Fulanain) « The Marsh Arab, Haji Rikkan » فيلادلفيا ١٩٢٨ . صفحة ٢١ .

كانوا مزارعين ، ولنا ان نتصور حقولهم كجزر قليلة الغور في المستنقع أو كأرض مستصلحة ومسورة .

ان حيوية هؤلاء السكان الاقدمين وقوتهم لامر يدهشنا حقاً . ويمكننا تعقب آثارهم صعوداً مع النهر حيث قضى فنهم الخزفي على خزف تل حلف وحل محله ، حتى اننا نعثر على كميات منه في شمال سوريا . وبما انه لم يكن يصلح كمادة للتصدير فيجب علينا ان نفترض ان صانعيه كانوا يجلبونه معهم ويسكنون في مناطق دجلة والفرات العليا. ومع ذلك فقد كان أهل العبيد مزارعين بسطاء كمعاصريهم في مصر ، وكأسلافهم في شمال العراق وسوريا . وهذا مبين بوضوح تام من عجزهم عن تنظيم التجارة للحصول على النحاس الذي كانوا يستعملونه في موطنهم الاصلي . وحالما استقروا في ما بين النهرين وابتعدوا عن مصادر المعدن ، أخذوا يستعملون عوضاً عنه مادة متوفرة محلياً لصنع الفؤوس (رسم ٧ أ) والقاطعات والمناجل (رسم ٧ ب) من الصلصال الذي كانوا يحرقونه على درجة عالية جداً من الحرارة حتى يصبح كالزجاج تقريباً ، وبذلك كانوا يحصلون على حافة قاطعة نافعة . وكانت هذه الادوات بالطبع سريعة الانكسار . كانت تكسر بالمئات لكنها كانت سهلة الاستبدال . وهكذا حققت المستعمرات المعزولة تلك السيادة التي تميز ثقافات الفلاحين القديمة .

ومع ذلك فان فترة العبيد خلفت لنا بعض الآثار التي تشير بان مراكز معينة كانت قد بدأت تحتل اهمية بارزة ، وان تغيراً في الطابع الريفي للمستعمرات اخذ يتحقق . وفي ابي شهرين في الجنوب[1] وفي قبة غورة في

---

(١) اريدو القديمة. Illustrated London News ٣١ ايار-مايو ١٩٤٧ و١١ ايلول ١٩٤٨ . سومر عدد ٣ بغداد ١٩٤٧ صفحة ٨٤ وما بعدها ومجلة « Orientalia » عدد ١٧ روما ١٩٤٨ — ١١٥ — ١٢٢ وسومر عدد ٤ – ١٩٤٨ صفحة ١١٥ وما بعدها تبين التطور من مزار قرية صغير وبدائي جداً في الطبقة السفلى الى بناية واضحة في ملامحها الاساسية كنموذج للهياكل التالية .

الشمال ، بنيت المعابد . وليس بناء المعابد شاهداً على تنسيق الجهد تنسيقاً كبيراً اكثر مما نتوقعه في نطاق ثقافة قروية وحسب ، وانما يدل ايضاً على عدد من المميزات التي تستمر في العصور التاريخية – مثلاً الشكل المستطيل البسيط للمعبد بما فيه من مذبح ومائدة للقرابين ، والمصاطب التي شيدت عليها المعابد ، والركائز الداعمة (التي تطورت الى جهاز من الدعائم والفجوات الموزعة على الجدران بانتظام) . وبالاضافة الى ذلك يرجح انه كان في اريدو استمرار للعبادة لا للتطور المعماري وحسب . ولانعدام النقوش لا يمكن اثبات هذا الزعم . الا ان الإله الذي كان يعبد هناك في العصور التاريخية كان يدعى « انكي » إله الارض لكنه ايضاً إله المياه العذبة . ويوصف انه محاط بالماء (لانه اسس حجرته في الاعماق) ويصطاد السمك في السواقي التي تنبع من كتفيه . ونلاحظ في حفريات معابد العبيد اشارات تشير الى ان الاله ذاته كان معبوداً عندهم . وفي احدى المراحل كان كل من مائدة التقدمة والمعبد مغطى بطبقة من عظام السمك عمقها ست بوصات ، وهي بلا ريب بقايا قرابين للاله الذي قيل فيه :

عندما كان انكي ينهض ، كانت الاسماك تنهض وتسجد له .
كان يقف ، اعجوبة في عيني اسو (الاعماق) ،
ويجلب السرور لأنغور (الاعماق) .
وللبحر كان يبدو وعليه دلائل المهابة ،
وللنهر العظيم كان يبدو كأن الرعب يحوم حوله ،
بينما في الوقت ذاته ، كانت الريح الجنوبية تحرك اعماق الفرات[1] .

ان الاهمية التي يعلقها المرء على هذه الدلائل التي تشير الى الاستمرار الممكن

---

(١) عن ت . جاكوبسن (T. Jacobsen) . في Journal of Near Eastern Studies عدد ٥ – ١٩٤٦ صفحة ١٤٠ .

تبقى مسألة ذاتية يختلف فيها الرأي . لكن ثقافة العبيد التي وصفناها لا تزال ، على كل حال ، اولى الثقافات التي انتشرت في جميع انحاء بلاد ما بين النهرين . ويبدو ان انتشارها كان من الجنوب على محاذاة النهرين[1] . وفي الجنوب بعد فترة من الزمن وقطع التطور الكبير الذي جعل سومر اولا ثم بابل المركز الثقافي لغربي آسيا لثلاثة آلاف سنة .

---

(١) لا نستطيع ان نؤكد ما اذا كان اصحاب هذه الثقافة هم السومريون الذين انشأوا اقدم حضارة في بلاد ما بين النهرين في الفترة اللاحقة الشبيهة بالكتابية . لكن لم يقدم اثبات قاطع على قدوم السومريين فيما بعد ، وان الاستمرار في الثقافة والبناء يؤيد الرأي القائل بانهم كانوا العنصر السائد في فترة العبيد ، لأنهم ظلوا كذلك خلال الالف الثالث ق . م . في جنوب البلاد . انظر ايضاً صفحة ٦١ وهامش رقم ١ .

٣ مُدن ما بين النهرين

ان الاوضاع والمشاهد التي وصفناها حتى الآن كانت رتيبة نوعاً ما . فالفروقات بين الجماعات المختلفة من فلاحي ما قبل التاريخ ضئيلة اذا ما قيست بأوجه الشبه الشديد بين نمط حياتهم ، رغم انهم كانوا يعيشون في شبه عزلة ويتمتعون باكتفاء ذاتي كامل في قراهم الصغيرة. لكن عند منتصف الالف الرابع ق. م. كانت هذه الصورة قد تغيرت ، في ما بين النهرين اولاً ثم في مصر بعد ذلك بقليل . وهذا التغيُّر يمكن وصفه عن طريق الاثباتات الاثرية . ففي بلاد ما بين النهرين نجد زيادة كبيرة في حجم المستعمرات والابنية كالهيا كل مثلاً . ولأول مرة نستطيع ان نتكلم بحق عن البناء الفخم كصفة مميزة بارزة للمدن الكبيرة . وفي مصر ايضاً ظهر البناء التذكاري . وفي البلدين ادخلت الكتابة ، وطوعت فنون جديدة ، وبرز لاول مرة الفن التشخيصي – المميز عن فن كان زخرفياً بالدرجة الاولى في الفترة السابقة .

وانه لامر هام ان ندرك ان التغير لم يكن تغيراً كمياً . فاننا اذا وضعنا التوكيد على زيادة الطعام او على توسع المهارة والجهد الانسانيين ؛ او اننا اذا جمعنا العنصرين معاً وقلنا ان الري كان نصراً للمهارة التي انتجت الكثرة ؛ واذا شددنا على الفرق بين الوجود المحدود لقروبي ما قبل التاريخ ، والحياة الاغنى والاكثر تنوعاً وتعقيداً في المدن – نقول اننا اذا فعلنا كل هذا نكون قد اخطأنا

السبيل . ان هذا التقييم المبني على الكم يؤدي بنا الى تعميات تخفي القضية التي نحن بصددها . اذ ان المقابلة بين مصر وبلاد ما بين النهرين لا تكشف ان الكتابة والفن التشخيصي والبناء الضخم والنوع الجديد من التماسك السياسي امور جديدة ادخلت في البلدين وحسب ، بل تبين ايضاً الحقيقة البارزة بان الغاية من كتابتهم ومحتويات تشخيصاتهم ، ووظيفة ابنيتهم الضخمة ، وتركيب مجتمعاتهم الجديدة مختلفة كل الاختلاف . ليس الذي نلحظه مجرد توطيد حياة متحضرة ، لكنه نشوء « اشكال » محسوسة ملموسة متمايزة لحضارة مصر وبلاد ما بين النهرين .

ولا بد لنا هنا من توقع حصول هذه الفروقات وعلينا ان نبادر الى دعم المقارنة بالحجج . ان اقدم الوثائق المكتوبة في بلاد ما بين النهرين كانت تخدم غاية عملية محضة : كانت تسهل ادارة الوحدات الاقتصادية الكبيرة أي مجتمعات الهيكل . بينما كانت النقوش المصرية الاولى اساطير عن أبنية ملكية او اختاماً محفورة تعين شخصيات موظفي الملك . وأقدم التشخيصات الفنية في بلاد ما بين النهرين كانت دينية بالدرجة الاولى في حين انها كانت في الفن المصري تخليداً للاعمال الملكية و كانت تدور حول شخصيات تاريخية . ان الابنية الضخمة تتكون من المعابد في بلاد ما بين النهرين . أما في مصر فانها كانت المدافن الملكية . واقدم مجتمع متحضر في بلاد ما بين النهرين تبلور في خلايا منفصلة ، في عدد من المدن المتمايزة المتمتعة باستقلال ذاتي — وحدات سياسية مستقلة ، متشددة باستقلالها — وحول كل منها ارض تؤمن حاجاتها . أما المجتمع المصري فاتخذ شكل مملكة منفردة موحدة ، لكنها زراعية تخضع لسلطة حاكم مطلق.

ان الاثباتات التي لدينا عن مصر ، وهي اثباتات أشمل وأوسع مما لدينا عن العراق القديم ، تدل على ان الانتقال لم يكن بطيئاً ولا تدريجياً . صحيح انه حوالي نهاية فترة ما قبل التاريخ برزت تجديدات معينة توحي بانبلاج فجر العهد الجديد ، لكن التغير عندما وقع كان له طابع الازمة التي اثرت في جميع نواحي

الحياة ، بيد انها انتهت خلال أجيال قليلة . ثم اعقب ذلك – من منتصف الاسرة الاولى حتى نهاية الاسرة الثالثة – فترة توطيد واختبار ، اختتمت بها المرحلة التكوينية للحضارة المصرية . وقليلة في مصر الفرعونية هي الاشياء الهامة التي لم تكن لها اصول في عصر الابداع العظيم الاول هذا .

اما في بلاد ما بين النهرين فقد كان للتطور الموازي طابع يختلف عن الطابع المصري بعض الاختلاف . فمع انه أثر في جميع ميادين النشاط الثقافي ، كانت تنقصه الغايات والاهداف التي تميزت بها حضارة مصر . ولا يمكن القول ان حضارة بلاد ما بين النهرين تطورت في كل نواحيها القيمة من اعمال فترة واحدة قصيرة مهما كانت هذه الفترة حاسمة . ان تاريخ ما بين النهرين يبين سلسلة من الانتفاضات المتتابعة على فترات من قرون قليلة حققت اكثر من تعديل واحد في تركيبه السياسي . فاللغة السومرية [1] – مثلاً – التي كانت مسيطرة خلال مرحلة تكوين حضارة ما بين النهرين حلت محلها اللغة السامية الاكادية اثناء

---

(١) يبدو ان اقدم ألواح الفترة السابقة للكتابة كانت مكتوبة بالسومرية . وهي تستعمل النظام السومري الستيني (١٠ ، ٦٠ ، ٦٠٠ ، ٣٦٠٠) وفيها ذكر الآلهة السومرية مثل انليل ، لكنه ليس للغة السومرية قرابة واضحة مفهومة للالسنة الاخرى .

ويجب ان نعلم ان عبارة « السومرية » لا يمكن اطلاقها ، اذا التزمنا الدقة ، الا على هذه اللغة فقط . ولا وجود لشكل انساني يمكن تسميته بهذا الاسم . ومن زمن العبيد حتى الوقت الحاضر ظل سكان بلاد ما بين النهرين يتألفون بالدرجة الاولى من بشر ينتمون الى جنس البحر الابيض المتوسط او الجنس الحنطي مع اختلاط بين مع الجبليين ذوي الجباه العريضة من الشمال الشرقي . وهذا يصدق على فترة الاسرة الاولى كما تبين الجماجم التي تعود الى فترة العبيد وفترة كيش . ان الجماجم التي وجدت في اريدو وفي حسونة لأقدم سكان معروفين في السهل قد ناقشها باقتضاب س. س. كون في « Sumer » عدد ٥ سنة ١٩٤٩ صفحة ٩٣ – ٩٦ . انها « تمثل جنس البحر الابيض المتوسط الناتىء الفك الغليظ العظام والكبير الاسنان نوعاً ما » . ان القضية التي كثر النقاش حولها ، قضية نشأة السومريين ، قد تكون اقرب الى الجري وراء الخيال مما هي الى قضية تاريخية .

النصف الثاني من الالف الثالث . وانتقال مركز السلطـــة في الالف الثالث من سومر في أقصى الجنوب الى بابل في الوسط ، وفي الالف الثـــاني الى اشور في اقصى الشمال جلب معه تغيرات ثقافية هامة . وبالرغم من كل التغيرات فان حضارة ما بين النهرين لم تفقد شخصيتها اطلاقاً . لقد أصيب شكلها بالتعديـل خلال تاريخها المضطرب لكنه لم يتحطم ابداً .

والآن دعنا ننصرف عن المقابلات الى النظر في العهد التكويني لما بين النهرين وهو الذي يسمى بالفترة الشبيهة بالكتابية لانه شهد اختراع الكتابة . الى هذه الفترة ترجع اقدم خرائب المدن . وللمرء الآن ان يقول ان مولد حضارة ما بين النهرين كنموها في الاعصر التالية ، قد تم في المدينة . ولفهم اهمية المدينـــة كعامل في تكوين المجتمع ينبغي الا نعتبرها مجرد مجموعة من الناس . لقد فقدت اكثر المدن الحديثة طابع الفردية الخاص الذي نستطيع ان نلحظه في مدن ايطاليا في النهضة وفي اوروبة في القرون الوسطى ، وفي اليونان وفي بلاد مـــا بين النهرين . ففي هذه البلدان لم يكن الكيان الطبيعي للمدينة سوى علاقـــة خارجية للقابليات المجتمعية الوثيقة التي تسيطر على حياة كل ساكن داخـــل اسوارها . فالمدينة تفرق بين مواطنيها وبين سكان البـــلاد الآخرين . وتعين علاقاتهم بالعالم الخارجي وتنتج شعوراً ذاتياً عنيفاً عند سكانها الذين يرون في أعمالهم المشتركة مصدر فخر واعتزاز . ان الحياة المجتمعية في عصر ما قبـــل التاريخ تحولت الى حياة مدنية .

وهذا التغير لم يكن عديم السيئات ، ولا سيما في بلاد كبلاد ما بين النهرين . ان حياة القروي البسيطة فيما قبل التاريخ كانت تتلاءم احسن التلاؤم مع البيئة الطبيعية . اما الحياة المدنية فكانت مما يتعارض في احيان كثيرة مع النظـــام الطبيعي وكانت اقرب الى التباين منها الى الانسجام معه . وتتضح هذه الحقيقة مع كثرة تكرر الفيضانات والعواصف والجفاف والحرائق التي كانت الالهـــة تهدّم بها اعمال الانسان . ولم تكن الاحوال الطبيعية في بلاد ما بين النهرين ،

على عكس ما هي عليه في مصر ، لتهيىء الظروف الملائمة لتطور المدنية . فالتغيرات الفجائية تستطيع ان تخلق احوالاً تفوق قدرة الانسان على ضبطها والسيطرة عليها [١] . ان المد الربيعي في خليج فارس قد يرتفع الى ثمانية اقدام او تسعة اقدام كما ان العواصف الجنوبية التي تستمر مدة طويلة قد ترفع شاطىء النهر قدمين أو اكثر بما تذروه من تراب وغبار . ثم ان سقوط الثلوج في ارمينية وسقوط الامطار في الجنوب بصورة غير عادية قد يؤديان الى ارتفاع مستوى النهرين بصورة مفاجئة ، وقد يسد زحل الارض مجرى الزابين الضيقين أو مجرى الخابور ، ثم لا يلبث المجرى طويلاً حتى يدفع بكمية ضخمة من الماء . وأية واحدة من هذه الاحداث ، أو وقوع اثنين منها في وقت واحد قد يسبب فيضانات لا قبل لسدود السهل الجنوبي ان تصدها أو أن تمنع اخطارها . وفي الازمنة السابقة للتاريخ حين كان الفلاحون البدائيون يزرعون المواسم بعد الفيضان ، كان بالامكان تكييف الاستيطان بحسب التغير الدائم لتوزيع الماء والأرض حتى ولو تكرر تدمير القرى مرات كثيرة . لكن المدن الكبيرة الثابتة التي تعتمد على التجفيف والري تحتاج الى مجار مائية ثابتة . وهذا لا يتحقق إلا بالمراقبة والكدح الشاقين ؛ لأن مياه دجلة الجارية بسرعة تجرف معها غريناً خشناً بحيث تنسد الاقنية بسهولة . حتى ولو نظفت سنوياً فانها ترتفع عن السهل نتيجة للترسب ، ومن هنا فان خطر انفجارها او انفجار النهرين لا يستبعد ابداً . وفي عام ١٨٣١ ارتفع دجلة فجأة وحطم حواجزه وهدم ٧٠٠٠ منزل في بغداد في ليلة واحدة [٢] .

---

(١) أ.ج. ويلسون ، « Geographical Journal » ، العدد LIV ، لندن ، ١٩٢٥ ، الصفحة ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) و . ك . لفتوس (W. K. Loftus) « Travels and Researches in Chaldaea and Susiana » — لندن – ١٨٥٧ صفحة ٧ – ٨ . وفي ١٧ ايار - مايو ١٩٥٠ ابلغ مراسل التيمس من بغداد انه « بعد انفجار سد دجلة ... انهار نحو الفي منزل من الطين » .

فلا عجب اذن ان يكون لجرأة هؤلاء الناس القدماء الذين قاموا بانشاء مستعمرات ثابتة في السهل المتحول ، وجهُها الآخرُ القلقُ ، ولا عجب ايضاً ان تكون الثقة التي كانت تبديها المدينة في تنظيمها ومؤسساتها ومواطنيتها مغمورة بالخوف . وهذا التوتر بين الشجاعة والاحساس باعتماد الانسان على قوة خارقة أوجد توازناً عجيباً في فكرة خاصة ببلاد ما بين النهرين . وهي فكرة يعالجها لاهوتهم معالجة شديدة التعقيد لكنها كذلك تم عن تنظيم عملي للمدينة : ان المدينة تحكمها الآلهة . هكذا كانوا ينظرون الى المدينة .

لم يكن الحكم الديني طبعاً غريباً على ما بين النهرين ، كما ان مصر أيضاً كانت محكومة من قبل إله . لكن هذا الاله كان متجسداً في فرعون . ومهما يكن من تناقض في الاعتقاد بألوهية الملوك فان مثل هذا الحكم الديني لا يترك ، على الاقل ، شكاً عند أحد من الناس في السلطة النهائية للدولة ، بل انه يخضع الناس بدون تحفظ الى أمر الحاكم . أما في ما بين النهرين فان الاله لا يتجسد في شخص رئيس الدولة الفاني . كان عالم الالهة وعالم الناس عندهم منفصلين كل الانفصال ، ومع ذلك فقد كان يفترض ان الاله يملك المدينة وأهلها . وكان الهيكل يدعى منزل الاله ، وهو يقوم في الواقع بوظيفة بيت الاقطاعي في اقطاعه حيث كان الناس يعملون في خدمته .

وسنصف تنظيم جماعة الهيكل في نهاية هذا الفصل . انما يجب علينا ان ننظر اولاً في البقايا المادية لمدن العصور الشبيهة بالكتابية — اقدم مدن ما بين النهرين .

في انقاض العصور الشبيهة بالكتابية كانت الهياكل اكثر المميزات بروزاً . وقد رأينا كيف ان الهياكل في فترة العبيد كانت تشاد في اريدو في الجنوب وفي تبّه غوره في الشمال . لكن الابنية في الفترة الشبيهة بالكتابية في ارك كانت أفخم وأروع . فان هيكل الاله انو (الرسمان ٨ و ٤٥) كان مبنياً

على تلة اصطناعية يبلغ ارتفاعها اربعين قدما تغطي مساحة تقدر بـ ٤٢٠,٠٠٠ قدم مربع . وهو يشرف على السهل على مدى اميال عدة . وبقرب قاعدتـه مذبح عظيم آخر مكرس للالهة إنـّانا . وقد غُيـّر وأُعيد بناؤه عدة مرات ، وكانت ابعاده في احدى المراحل ٢٤٠ قدما × ١١٠ اقدام . وفي مرحلة اخرى كانت له أعمدة قطر الواحد منها تسعة اقدام (الرسمان ٩ و ١٠) . كان كل عمود من هذه الأعمدة وكل جدار من الجدران المجاورة وكل جانب من جوانب المصطبة التي تدعمها ، مغطى بجلد مقوى ضد الطقس مصنوع من عشرات الوف المخروطات الطينية المصنوعة والمشوية والملونة كل واحدة منها على حـدة . وكانت هذه كلها تكوّن أشكالاً لوزنجية ومتعرجة ومثلثة الخ وهي ملونـة باللون الأسود والاحمر على أرض صفراء . كانت المخروطـات تغرس في طين كثيف يغطي بناء الطوب . ثم ان الرسوم الملونة تُجَمّل مقدم البناء الذي تتخلله نظم معقدة من الدعائم والنحوتات والاعمدة المتشابكة . ولذا فانـه يترك في النفس اثراً عميقا يفوق تصورنا لما يمكن للطين ، كمادة وحيدة للبناء ، ان يوفره من فن .

والميزة الاساسية لفن بناء الهياكل في ما بين النهرين هي التلة الاصطناعيـة المدعوة بالزقورة أو برج الهيكل (الرسمان ٨ و ١١) . وبرج بابل اكثرهـا شهرة ، وبرج اور احسنها شكلا – بالنسبة للآثار التي تم اكتشافها حتى الآن . ومع ذلك فان هذه الابراج المدرجة لم تبن في جميع الهياكل . فان هيكل تل عقير في الفترة الشبيهة بالكتابية ، ولـه نفس المخطط ونفس الابعاد كالهيكل المعاصر له القائم على زقورة ارك ، يرتفع على مصطبة علوها بضعـة امتار فقط[1] . وأنا اميل الى أن ارى في هذا تمثيلاً مختصراً للزقورة ، لكن امكانية اختلاف الاثنين من حيث المغزى لا يمكن نفيها . نحن لا نستطيع ان نفسر لماذا

(١) سيتون لويد وفؤاد سفر « Tell Uqair » ، في مجلة دراسات الشرق الادنى ، عدد ٢ – ١٩٤٣ ، ١٣١ – ١٥٨ .

كانت بعض الهياكل بغير زقورات ، لكننا نستطيع ان نفهم لماذا كان الكثير من المعابد العظيمة مجهزاً بها ولماذا تحمل الذين بنوها الجهد الجماعي الشاق الذي يقتضيه بناؤها . ويظهر لنا مغزى الزقورات من الأسمـــاء التي يحملها الكثير منها ، وهي اسماء تعرفها وتحددها على أنها جبال لا تلال مصطنعة . فان زقورة الإله انليل في نيبور مثلاً تدعى منزل الجبل ، جبل العاصفة ، والرابطـة بين السماء والارض . وكلمة «جبل » ،كما تستعمل في مابين النهرين، عبارة تحمل معنى دينياً حتى أن ترجمتها البسيطة لا تنصفها ابداً ، تماماً كما يقع لكلمة « الصليب » في المسيحية عند ترجمتها وكلمتي « الغرب » او « نون » في الاستعمال المصري[1] . ان لفظة الجبل في ما بين النهرين تعني المكان الغمر الذي تتركز فيه قوة الارض الخفية ، وبالتالي كل الحياة الطبيعيـــة . وربما استطعنا ان ندرك هذا ادراكاً افضل اذا نظرنا الى مصوَّر ٍ خشن ٍ لقطعـة خزف قاسية سمراء مائلة للاحمرار (رسم ١٢) وجدت في اشور في هيكل يرجع للألف الثاني ق. م. بالرغم من أنه قد عثر على تشخيصـات مماثلة على الاختام تعود في الزمن الى عهد اقدم . ونتبين بوضوح ان الاله الممثل على هذا المصوّر هو تجسيد لقوى الهية ارضية ، وينبثق جسمه من جبل والنبات ينمو من جنبات الجبال ومن يدي الاله ايضاً ، والماعز ترعى هذا النبات والماء الذي لا غنى عنه لكل حياة ، ممثل في الهين ثانويين على

---

(١) يقال احياناً ان السومريين وهم يتحدرون من منطقة جبلية ، رغبـوا بان يواصلوا عبادة آلهتهم على « أمكنة عالية » ولذلك كانوا يشيدونها عالياً في السهل ، والسؤال هو لماذا كانوا يعتبرون « الامكنة العالية » مناسبة ، لا سيما وان الآلهة المعبودة هناك لم تكن من سكان السماء وحسب ، ولكنها كانت ايضاً وفي الدرجة الاولى آلهة ارضية . ان تفسيرنا ينطلق من « الجبل » كمظهر يحمل المعنى لا كميزة جغرافية . وهناك نظريات عديدة تعتبر ناحية واحدة او عدة نواح من الجبل كرمز ديني . ونحن لا نستثنيها ولكننا نعتبرها بوجه الاجمال فكرة اضافية للفكرة الاساسية القائلة بأن « الجبل » كان يعتبر المسكن الطبيعي للنشاط الالهي . ان كل المادة التي تتعلق بابراج الهياكل والتفسيرات المتعددة التي قدمناها ، معروضة بصورة مناسبـة في مؤلف اندره بارو ، الابراج المدرجة وبرج بابل ، « Ziggurats et Tour de Babel » باريس ١٩٤٩ .

جانبي الاله . وكانت آلهة كهذا الاله الممثّل على هذه الصورة البارزة تعبد في كل مدن ما بين النهرين مع ان اسماءها كانت تختلف ، واشهرها تموز . وبحكم كونها تجسيداً للحياة الطبيعية فقد كان يظن انها تصبح عاجزة في صيف كصيف بلاد ما بين النهرين الذي يعتبر لعنة تدمر النبات تدميراً كلياً وتنهك الانسان والحيوان . وتعبر الاساطير عن ذلك بالقول أن الاله « يموت » او أنه يؤسر في « الجبل » ومن الجبل يعود في السنة الجديدة عندما تنتعش الطبيعة . ومن هنا كان الجبل ايضاً بلاد الاموات . وعندما يمثل اله الشمس مشرقاً كل يوم من وراء جبال المشرق فان هذا المشهد ليس مجرد تذكير بجغرافية البلاد . والمطر المحيي يجلب ايضاً من الجبل بواسطة اله الطقس . وهكذا يكون الجبل ، في جوهره ، المجال الغامض لنشاط القوى التي هي فوق قدرة الانسان . ولقد اوجد السومريون الظروف التي فيها اصبح الاتصال مع الآلهة ممكناً عندما شيدوا الجبال الاصطناعية لهياكلهم .

وقد مكنوا ايضاً ، بعملهم هذا ، تماسكهم السياسي . ان هذه البناية الضخمة المشيدة لتوطيد الرابطة مع القوة التي تعتمد عليها المدينة لم تكن تعلن عن عظمة الآلهة وجبروتها وحسب ولكن عن قدرة المجتمع الذي تمكن من بذل مثل هذه الجهود . وكانت هذه الهياكل العظيمة شاهدة على التقوى وموضع فخر وتباه قومي . والى جانب كونها قد انشئت لتأمين الحماية المقدسة للمدينة فانها ايضاً شيدت تعظيماً لمعنى المواطنية . وهذه الابنية التي ظلت قائمة بعد موت الذين شيدوها تعتبر أنصبة تذكارية تعلن عن عظمة المدينة .

وفي هذه الهياكل نجد دلائل اختراع جديد لولاه لتعذر القيام بمنشآت عظيمة كهذه او لتعذر في الحقيقة تنظيم المجتمع على مثل هذا المستوى العالي من التنظيم وهو الكتابة[1] . ومنذ البداية تبدو الكتابة بشكل طبعات مصنوعة من

---

(١) ان المؤلف القيم الذي يعالج موضوع الكتابة في ما بين النهرين قديماً هو لآدم فولكنشتاين (Falkenstein) وعنوانه : « Archaische Texte aus Uruk » ليبزغ ١٩٣٦.

القصب على الواح طينية ، واقدم الالواح التي وجدت في هيكل ارك ، كانت مذكرات تساعد على ادارة الهيكل كمركز للانتاج ومصنع للخزف ومشغل للمجتمع . وكانت ابسطها حسابات وعليها ارقام قليلة . وهناك غيرها تحمل ، الى جانب الارقام ، طبعات من اختام اسطوانية للتعريف بالفرقاء او الشهود في المعاملات المسجلة ، ويدل غيرها على الغرض المقصود من هذه المعاملات . وقد يتألف نقش بسيط مثلاً من تسجيل عدد من الاغنام والماعز . وهنالك ايضاً نموذج اكثر تعقيداً هو عبارة عن كشف بالاجور فيه سلسلة من النبذات المختلفة – يفترض انها اسماء اشخاص – تتبعها نبذات اخرى تشير الى « الجعة والخبز ليوم واحد » . وليس هناك من سبب يدعونا الى الافتراض (كما جرت العادة) ان هذه الالواح القديمة تمثل المرحلة الاخيرة لعمل كتابي ، طويل الامد . فان هذه النقوش تبدو منذ البدء وكأنها نظام من اشارات قديمة متفق عليها – بعضها اشارات كيفية وبعضها كتابة صورية كالتي يمكن ان تكون قد ادخلت دفعة واحدة (رسم ١٣) . اننا امام اختراع حقيقي لا امام تكييف لفن تصويري[1] .

---

(١) يمكننا هنا ان نضيف بضع كلمات عن تطور الكتابة الاول . ومع ان هنالك آثار كتابة صورية أي صور للاشياء (رسم ١٣) فان الكثير من الاشياء الاكثر شيوعاً تمثل باشارات أبسط منها : اما صور مقتضبة جداً (وهي لذلك اصطلاحية) مثل رسم بخطين منحنيين على طرف واحد (رقم ٤) يمثل رأس ثور ذي قرنين (العلامة تعني ثوراً) او في اغلب الاحيان اشارات اصطلاحية مثل الدائرة ذات الصليب – وهي اكثر الاشارات شيوعاً – لتعني « الغنم » . فالنظام اذن مجموعة من الاشارات المجردة وعليها بعض الرسوم الاضافية . ثم اتسع مدى الافكار التي يمكن التعبير عنها بمركبات معينة . فعلامة المرأة المضافة لعلامة الجبل تعني « جارية مسبية » لأن الجواري كن اجنبيات يجلبن من فارس عادة . وعلامة الشمس قد تعني « النهار » او « الابيض » ، واشارة « المحراث » قد تعني اداة الحراثة او مستخدمها الحراث . ومع ذلك فقد كانت الكتابة محدودة الفائدة . فهي لا تستطيع ان تعبر عن جمل تامة لأنها لا تستطيع ان تدل على علاقات نحوية ، بل لقد كانت كتابة صورية تسجل افكارا . وهذا ما كان على الكتابة ان تفعله قبل كل شيء . واتخذت، في خلال الفترة الشبيهة بالكتابية، خطوة+

واما فيما يتعلق بفن الفترة الشبيهة بالكتابية فان الاكثرية الغالبة من الرسوم والصور كانت تتناول قضايا دينية . فاننا نجد احياناً مشاهد طقوس دينيـة ، وفي احيـان اخرى نموذجاً زخرفياً مركباً من الرموز الدينية . وفي بعض الاحيان يستحيـل التأكد ايها هو المقصود . لكن الرمز في كل حال يشير الى الآلهة . ومن بين الرموز على الاختام[1] وفي الزخارف على جدران الهياكل — نجد ان النباتات والحيوانات ، ولا سيما التي كان الانسان يعتمد عليها في معيشته تتكرر اكثر من غيرها بكثير . وقـد كانت هذه شعارات للآلهة العظيمـة

+اضافية نحو الكتابة كتمثيل تصويري للغة. فاننا نجد ان علامة السهم مثلاً سرعان ما اصبحت تعتبر تمثيلاً للصوت « تي » الذي يعني السهم لا تمثيلاً لفكرة السهم ، لأن علامة السهم كانت تستعمل ايضاً لتمثيل فكرة « الحياة » التي كان لفظها « تي » كذلك . وهذا يدل على ان تصوير الكلام دون الافكار اصبح ممكناً ايضا . كان تطور الكتابـة يتألف من سلسلة من التغييرات والتوفيقات التي كانت تجري شيئاً فشيئاً عندما كان المرء يشعر بنقائص النظام المستعمـل . واكتسبت بعض الاشارات عدداً من القيم الصوتيـة . وكان بعضها يستعمل لتوضيح معنى مجموعات اخرى مع أنها نفسها لم تكن تلفظ البتة او هي المسماة بالتوضيحية . فان « تي » عندما تعني السهم (وادوات اخرى معينة) كانت ترفق باشارة اخرى تلفظ لوحدها « جيش » وتعني الخشب لكنها عنـد استعمالها للتوضيح تدل فقط على أن الاشارة هي اشارة الى اداة خشبية . وكذلك فان اسماء الامكنة كانت ترفق باشارة « كي » التي تعني « الارض » وكانت الاسمـاء المقدسة ترفق باشارة النجم الخ ... ومع ذلك فان حقيقـة ربط القيم الصوتية باكثر الاشارات جعلت تمثيل اواخر الكلمات المعربة ، او باختصار ، الكلام الحقيقي ، ممكناً .

(١) منذ الفترة الشبيهة بالكتابية وما بعدها كان الموظفون ، ثم الافراد فيما بعد ، يقتنون اختاماً يدمغون بها البضاعة او الوثائق . وكان لهذه الاختـام شكل خاص ظل شكلا خاصاً تميز به بلاد ما بين النهرين حتى نهاية وجودها المستقل في العصر الهليني . لقد كانت اسطوانات حجرية صغيرة تحمل على دائرتها رسماً محفوراً يطبع على اللوح او الطين لختم الخزف او لدمغ بالة البضاعة . وبما ان الغاية من شكل الختم كانت صنع علامـة فردية معروفة فان صنعه ظل في جميع الازمنة حافزاً على قدرة الاختراع عند فناني ما بين النهرين الذين كانوا يستجيبون للتحدي بنجاح متفوق . (وفي امثلتنا اظهرنا الكتابة التي على الاختام نفسها . انظر الرسوم ٣٥ الى ٣٩) .

المعبودة في ارك وفي كل البلاد . وقد توجد منفردة او مركبة مع غيرها (مثلا سنبلة شعير وثور ، الرسمان ١٤ و ٤٤) . وغالباً ما كانت مملكة النبات يرمز اليها بالوريدات . وهنالك رسوم للاغنام او الماشية تغطي افريزات هياكل الفترة الشبيهة بالكتابية — وتوجد ملونة في آثار عقير ، ومطعمة او منحوتة بالحجارة في ارك (الرسمان ١٧ و ١٨)[١] . وكانت الادوات التي تستعمل في العبادة ، كالمذابح التي تقدم عليها القرابين تزدان برسوم الحيوانات . وكذلك كانت الآنية المقدسة ايضاً . والحوض (رسم ٥) الذي كان يوضع فيه علف قطعان الهيكل ، كما يظن ، كان يظهر عليه رسوم خرفان قرب طياته — وهو بناء من قصب يسمى صريفة كالتي لا يزال عرب المستنقع يبنونها في جنوب العراق (رسم ٦) . والبناية متوجة بحزمتين من قصب مربوطتين ربطاً عجيباً مما تشبهان اقدم رمز كان يرمز به الى اسم الالهة الأم . ورسوم الاواني والاختام التي ترمز الى القيام بالمراسيم الدينية (الرسمان ١٥ و ٤٤) مألوفة ايضاً . وهي كالرموز المستعملة في الفن الزخرفي ، اي انها رسوم تشير بانتظام الى عبادة الآلهة التي تتجلى في الطبيعة .

كانت الآلهة رموزاً لوحدة جماعية . وكانت كل مدينة تعتبر سيادتها من حق الآلهة التي كانت تتصور انها تملك المدينة ، وهنا يبدو ان هنالك تناقضا . فان آلهة الطبيعة التي اقيمت لها المعابد في الفترة الشبيهة بالكتابية قد تبدو اكثر ملاءمة لعبادة الريفيين والفلاحين مما هي لرجال المدينة كما نعرفهم . لكن

---

(١) يتألف الترصيع من الواح خزفية سمراء مائلة للحمرة مركبة في المخروطات الطينية التي تغطي الجدران . وكانت الرسوم المحفورة تصنع من حجارة تثبت في الجدار بشريط من نحاس في عرى خلفية (رسم ١٨) .

مقارنتنا هذه – بين المدينة والقرية – مضللة[1] . نعم ان المدينة في بلاد ما بين النهرين يمكن اعتبارها تجديداً بارزاً تحقق في الفترة الشبيهة بالكتابية غير أن الفارق الكبير بين المدينة والريف ، بين الحياة القروية والحياة المدنية هو ، في الشكل الذي نعرفها به اليوم ، نتيجة للانقلاب الصناعي ، وكل تأكيد على هذا الفرق يشوه نظرتنا عندما نعتبر المؤسسات السابقة .

حوالي ٤٠٠ ق. م. كان نحو ثلاثة ارباع سكان مدينة اثينة يملكون ارضا في اتيكا[2] . ولكن التمييز بين المدينة والقرية ظل غير معروف حتى العصور الاوروبية الوسطى . ففي ذلك الزمن كانت المدينة مؤسسة اجتماعية

---

(١) ونفس الكلام ينطبق على عبارة « الانقلاب المدني » وهي عبارة تستعمل غالباً لوصف مولد الحضارة ، واول من استعمل هذه العبارة هو ف. غوردن تشايلد الذي كان عمله الكبير كمؤرخ انه استعاض عن الفروق الزمنية ذات القيمة التفسيرية للاشكال بمميزات اخرى تدل على الفروق الاجتماعية الاقتصادية . وفي الطبعات الاخيرة لكتابه « Dawn of European Civilization » وفي كتابيه « Man Makes Himself » ، و « What Happened in History » اخذت وجهة نظره تنحرف نحو الماركسية التي تنطبق على احوال الشرق الادنى القديم . ومقالته الاخيرة ، « The Urban Revolution » في مجلة التنظيم المدني ، عدد ٢١ ليفربول ١٩٥٠ صفحة ٣ - ١٧ ومحاضرته الاخيرة في دار ذكرى ل .ت. هوبهاوس (L. T. Hobhouse) لندن ١٩٤٩ وهي بعنوان «Social Worlds of Knowledge » تظهران تعديلا في وجهة نظره . وفيما يختص بعبارة « الانقلاب المدني » فانه لا يمكن تطبيقها على مصر باية حال من الاحوال ، كما سنرى ، حتى وان قبلناها ، مع التحفظات المذكورة في كتابنا ، كدليل على الانتقال من فترة ما قبل التاريخ الى الفترة التاريخية في ما بين النهرين .

(٢) وقد درست هذه المسألة الاستاذة اليزابيت فيسر E. Visser في محاضرتها الافتتاحية عن المدينة (أمستردام ١٩٤٧) واستشهدت ببوسولت سووبودا « Griechische Staatskunde » جزء ٢ ، صفحة ٩٢٠ ، وبزمرن ايضاً في « The Greek Commonwealth » صفحة ٢٢٨ حيث يقول : « ان الحضارة اليونانية كانت مدنية من ناحية لكن اساسها كان زراعياً . كانت نسمات البرية تهب على البرلمان والسوق معاً » .

واضحة المعالم كما هي الآن ، لكنها كانت على صلة وثيقة بالارض . وهـــذا ترفليان يقول :

« كانت المدينة الانجليزيـــة في القرن الرابع عشر لا تزال مجتمعا ريفيا وزراعيا الى جانب كونها مركزاً للصناعة والتجارة ايضا ... خارجها « حقول المدينة » غير المسورة حيث يحرث كل مواطن مزارع قطعة الارض الخاصة به ، وكان كل فرد يرعى ماشيته وأغنامه في مرعى المدينــة المشترك ... وفي عام ١٣٨٨ سن البرلمان قانونا بموجبه « ينبغي للتجار المتجولين واصحاب الحرف ان يتخلوا عن مهنهم جانبا ويجبروا على حصاد الحنطة وجمعها وجلبها » وكان على العمد ورجال المحاكم والشرطة ان يراقبوا تنفيذ ذلك »[١] .

ففي بلاد ما بين النهرين إذن كان الكثيرون من أهـــل المدينة يحرثون حقولهم . وكانت حياة المجتمع منظمة حسب تقويم يلائم بين تطـــور المجتمع خلال السنة وبين تتابع الفصول . وكان توالي الاعياد الدينية المتكررة يوقف العمل والنظام في فترات كثيرة . وكانت بضعة أيام من الشهر تخصص للاحتفال بانجاز القمر احدى مراحله ، او للاحتفال بالاحداث الطبيعيـــة الأخرى . والحدث السنوي الأعظم في كل مدينة ، الذي كان يستمر نحو اثني عشر يوماً ، كان الاحتفال برأس السنة الجديدة في وقت حرج من سنة الفلاح حين تكون حيوية الطبيعة في مستواها الادنى وحين يتوقف كل شيء على الخروج من فترة الركود هذه الى الحيوية الجديدة . ان المجتمع المرتبك الى الحد الاقصى في حياته لا يستطيع ان يبقى سلبياً بانتظار نتيجة الصراع بين قوى الموت والانتعاش . فكان يسهم بحساسية عاطفية عنيفة بواسطة المراسيم الطقوسية مشاركة للآلهة في سرّائها وضرائها ، تلك الآلهة التي تتجسم فيها قوى الطبيعة الخلاقة . وظلت

---

(١) ج. م. ترفليان « English Social History » لندن ١٩٤٦ ، صفحة ٢٨ .

طبيعة الاحتفالات المدنية هذه حتى العهود الآشورية والبابلية الثانية تبين بوضوح ان القضية الاساسية إنما كانت الاحتفاظ بالرابطة مع الطبيعة .

اننا لا نعلم الاسباب التي من أجلها اصبحت آلهـــة طبيعية معينة مرتبطة بمدينة معينة . اننا نعرف فقط ان المدينة ، حالما أصبحت متميزة ، كانت تبرز كملكٍ خاص لاله واحد ، مع ان الآلهة الأخرى كانت تعبد فيها أيضاً . كان إله المدينة ينظر اليه أحياناً كسيد اقطاعي متغيب ، دائماً يصعب الاتصال به ، غير ان هذا الإله كان يعبر عن وجوده أحياناً بظواهر وعلامات مشؤومة أو في أحلام وآمال ذات معنى غامض . ومع ذلك فان اساءة فهم اوامره التي تصل الى الناس بهذه الصورة قد تسبب وقوع كارثة من الغضب المقدس .

وتمشياً مع الفكرة الدينية في بلاد ما بين النهرين فانه لا يمكن ادراك العلاقة بين المدينة وسيدها المقدس الا اذا اعتبرنا ان هذه العلاقة بين المدينة وبين سيدها نوعاً من التوكل التام[1] . فاننا باستمرار نواجه الاعتقاد بان الانسان العاجز معرض الى نوائب هذا العالم المضطرب الذي لا يمكن التكهن به . وقد تجسد هذا الشعور في لاهوتهم الديني الذي كان يعلم ان الانسان خلق خصيصاً لخدمة اهواء الآلهة . ففي ملحمة الخليقة وجـــد الانسان بعد ان قال مردوخ الخالق عرضاً : « ليتحمل كدح الآلهة حتى تستطيع التنفس بحرية » .

ومثل هذه النظرة نجدها في اسطورة سومرية اكثر قدماً تقول ان انليـــل شق قشرة الارض بفأس حتى ينبثق الناس منها كالنبات . ثم تحيط الآلهـــة الاخرى بانليل ويرجونه ان يخصص لهم خدماً من السومريين الذين يطلعون من

---

(١) ناقشنا في مكان آخر شعور القلق الذي كان يتخلل الديانـــة في ما بين النهرين ، « Kingship and the Gods » ، شيكاغو ١٩٤٨ . ص : ٢٧٧ – ٢٨١ .

الارض [1] . ان هذا الاعتقاد بان الانسان انما وجد ليحقق الغرض من وجوده بخدمة الآلهة كان له نتائج خطيرة في تركيب المجتمع السومري القديم . وبما ان المواطنين كانوا ينحون سيادة مجتمعهم الى آلهتهم ، فانهم كانوا جميعاً متساوين في خدمته . وفي الواقع اتخذت الخدمة شكل جهد تعاوني منظم الى ابعد دقائق التنظيم . فكانت النتيجة مجتمعاً منظماً . وآثار الفترة الشبيهة بالكتابية تبين انها كانت موجودة آنذاك ، مع انها اصبحت اكثر وضوحاً منذ عصور الاسر الاولى [2] .

والآن ينبغي لنا ان نبدأ بالتفريق بين مؤسستين اجتماعيتين متشابكتين لكنهما متمايزتان . كانت الوحدة السياسية هي المدينة ، وكانت الوحدة الاقتصادية الدينية هي مجتمع الهيكل . كان كل هيكل يملك اراضي هي املاك الآلهة . وكان كل مواطن ينتمي الى احد الهياكل. وكان جميع اهل الهيكل– الموظفون والكهنة ، الرعاة وصيادو السمك ، الجنائنيون والمهنيون ، والحجارون والتجار ، حتى العبيد ، يشار اليهم بانهم « عباد الاله الفلاني » . وبوسعنا ، من حيث المبدأ ، ان نتصور ان كل مجتمع معبدي كان النواة الاصلية لكل مدينة . لكننا لا نعلم ما اذا كانت هذه الوضعية قد سادت ابداً

---

(١) « Journal of Near Eastern Studies » ، جزء ٥ ، ١٩٤٦ ، صفحة ١٣٧ .

(٢) نشر ا . دايمل (A. Deimel) النصوص وناقشها انظر Die sumerische Tempelwirtschaft zur Zeit Urukaginas und seiner Vorgânger , Analecta Orientalia , عدد ٢ روما ١٩٣١ ، صفحة ٧١ – ١١٣ . ثم نشرت تلميذته ، أنا شنيدر ، وقد تخصصت في الاقتصاد ، دراسة اعتمدنا عليها كثيراً وهي Die Sumerische Tempelstadt « Plenge staatswissenschaftliche Beitrage, » عدد ٤ اسن ١٩٢٠ . وتقدم الواح الفترة الشبيهة بالكتابية اساساً كافياً للقول بان تنظيم عصور الاسر الاولى قد استمر به في اغلب النواحي بشكله الذي نعهده منذ بداية تاريخ ما بين النهرين .

اذ ان الالواح التي وصلتنا من عهد الاسر الاولى تطلعنا على مدن تحتوي على عدة هياكل بممتلكاتها [1] .

كانت المجموعة البشرية التي تنتمي الى معبد مـــا تحرث جزءاً من اراضي الهيكل لصالح المجموع ، ولو استعملنا لغة الاقدمين لقلنا المجموعــة التي تعمل في خدمة الله .

وهذا الجزء من الارض – وهو لا يتجاوز ربعها في حالة نستطيع التأكد منها – يدعى الارض المشاع او المشتركة (Nigenna) لأن هذه الارض كانت تحرث من قبل المجموعة كلها . وهنالك قسم آخر هو الارض المقطعة (Kur) المقسمة الى قطع موزعة على اعضاء المجموعة لسد حاجاتهم . وهناك قسم ثالث يدعى الأرض المأجورة (Uru - lal) التي تؤجر للمستأجرين بأجر يتراوح ما بين ثلث المحصول وسدسه . ويمكن دفع القسم الاكبر من الاجرة حباً لكنــه ينبغي دفع قسم صغير منها بالفضة .

كان الهيكل يقدم الحب البذار والحيوانات والأدوات لحراثـــة الارض المشتركة . وكان القوم الاعلون منهم والأدنون يعملون كل سنة في « الحقول التي تخص الإله » فيرمون السدود والقنوات سخرة . وكان الكاهن (Sangu) القائم على رأس جماعة الهيكل يعين نصيب كل فرد من الواجبات المشتركة ، فكأنه وكيل الإله . ويساعده معاون (Nubanda) يراقب العمل والمخازن

---

(١) كان اله المدينة ، لغايات سياسية ، ولأهمية المعبد احياناً ، الاله الرئيسي للمدينـــة ، لكن الاله الرئيسي كان يملك ارض معبده وحسب – ولعل علاقتـه بالآلهة الاخرى كانت في الغالب اشبه بعلاقة رئيس القرية بالملاكين الآخرين وممتلكاتهم في القرية . ثوركيلد جاكوبسن في « Human Origins, An Introductory General Course in Anthropology » – سلسلة القراءات المختارة رقم ٢ شيكاغو ١٩٤٦ ، صفحة ٢٥٥ .

والادارة . ولم تكن مخـــازن الحب المكدس تستعمل للبذار وحسب ولم تكن تحت تصرف الكاهن بمفرده لاستخدامها في القرابين أو لغذاء أهل الهيكل ، فقد كان للكهنة ، كما كان لأي شخص آخر ، نصيبهم لتأمين قوتهم ، بينما يرد بعض ثمـــار العمل المشترك الى المواطنين على شكل حصص من الشعير والصوف ، توزع عليهم بانتظام ، وعلى شكل حصص إضافية ، أيام الاعياد .

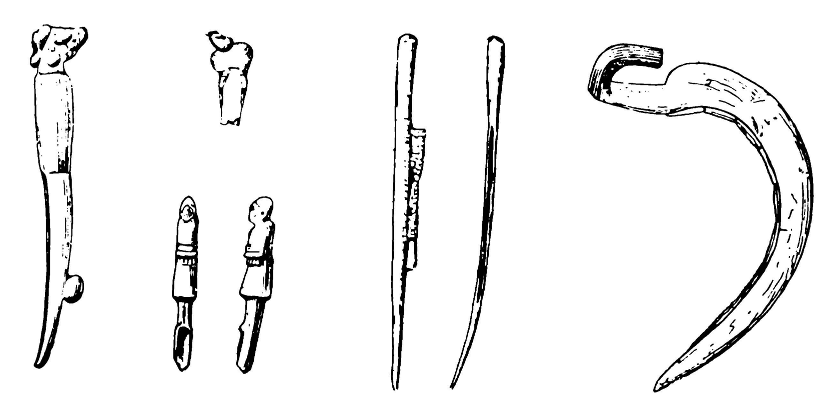
ومع ان الحصص لم تكن متساوية ، ولا كانت الواجبات المفروضة على كل الناس شاقة بنفس المقدار ، فاننا نلاحظ هنا حقيقة لا مثيل لها في العالم القديم ، وهي ان جميع أعضاء المجموعة كانوا من حيث المبدأ متساوين . كان كل فرد يتناول حصة وقطعة ارض لتأمين حاجاته . وكان الجميع يعملون في الارض المشتركة وفي الاقنية والسدود . ولم يكن هنالك وجود لطبقة عاطلة . وكذلك لم يكن هنالك وجود لاقنان محليين . كان بعض الاغراب ، او بعض أسرى الحرب يقتنون كعبيد ، لكن الافراد قلما كانوا يملكونهم . كان العبيـــد يعملون في الهيكل الى جانب الاحرار كحمالين وجنائنيين . أما البنات الجواري فكن يوجدن باعداد كبيرة كحائكات وكن يساعدن في المطابخ وفي مصانـع الجعة وفي الزرائب حيث كن يسمن الخنازير .

كانت الارض قطعاً تختلف من حيث الحجم ، حتى وان كان توزيعها يجري على رجال ينتمون الى المهنة نفسها . اننا لا نستطيع تعليل الفروقات . وليس لدينا اثبات على وجود اراضي واسعة في أيدي افراد من جماعة الهيكل، ولكن بوسعنا ان نفترض ان وجود عدة جماعات هيكلية في المدينة الواحدة أتاح للبعض ان يتصرفوا بقطع من الارض في أكثر من مجموعة واحدة . ونحن نعلم عن معاون كان يملك حوالي ١٢٠ فداناً ، وعن مراقب لمخازن الخشب كان يملك نحو ٨٠ فداناً [١] . لكن هذه الحالات تمثل خروجا على النظام الاساسي . وأهم من هذا

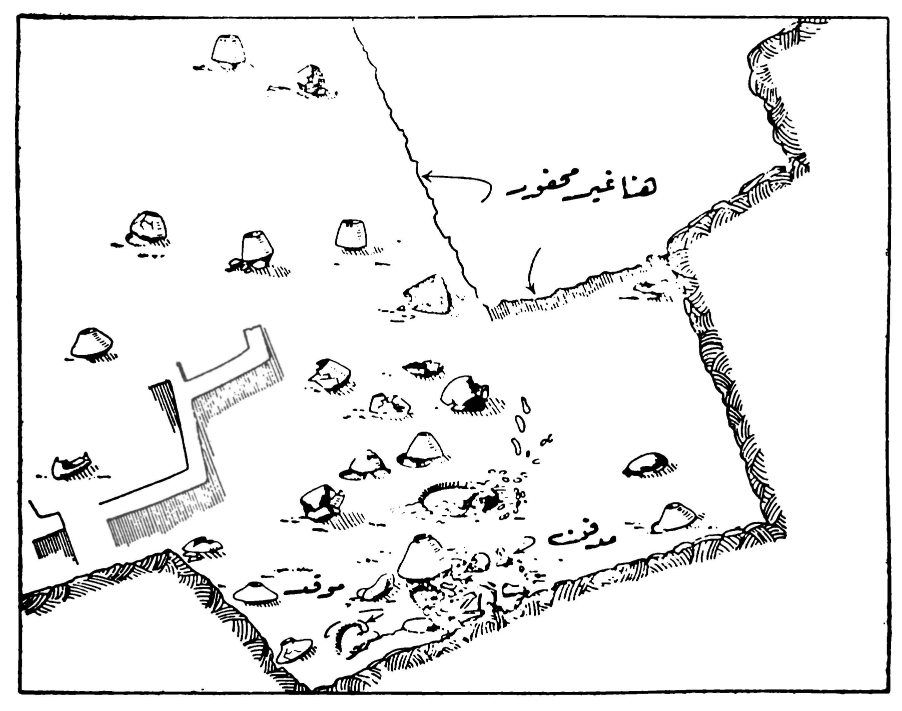
---

(١) شنيدر (**Schneider**) . المرجع نفسه صفحة ٣٥ .

اللوحة الاولى

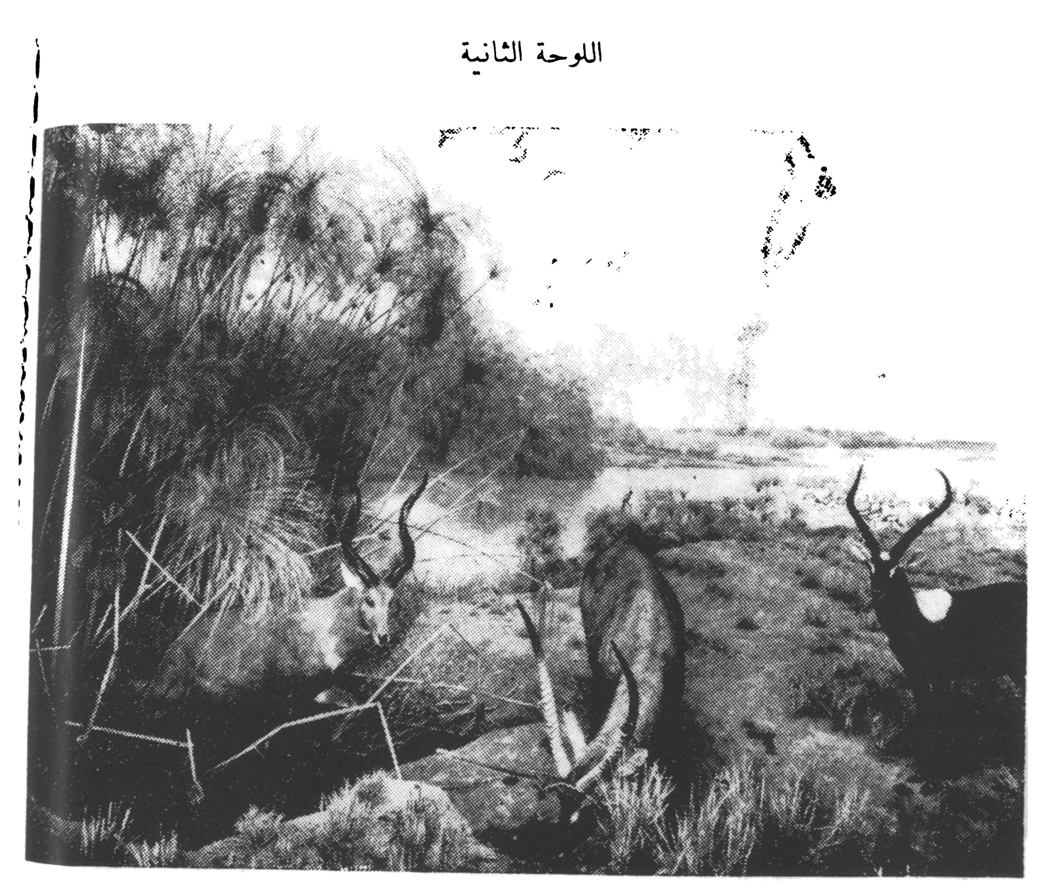


١ - مناجل من عظام وخشب ذات « اسنان » صوانية .   ١ و ٢ من الكرمل في فلسطين .
٣ - من سيالك في فارس .   ٤ - من الفيوم بمصر .   ٥ - من سقارة بمصر .



٢ - مخيم في حسونه

اللوحة الثانية



٣ - مستنقع بردي على النيل الاعلى (بموافقة المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك) .

اللوحة الثالثة



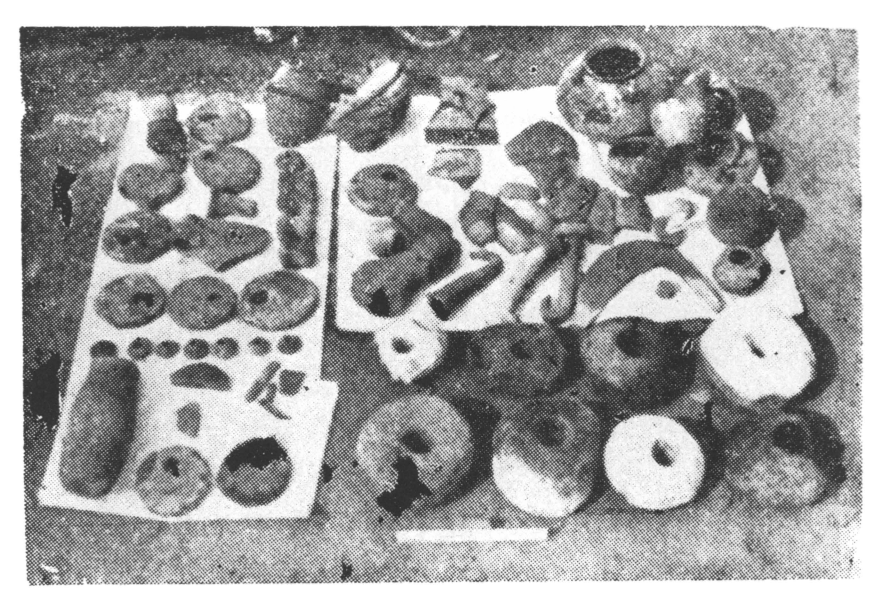
اللوحة الرابعة



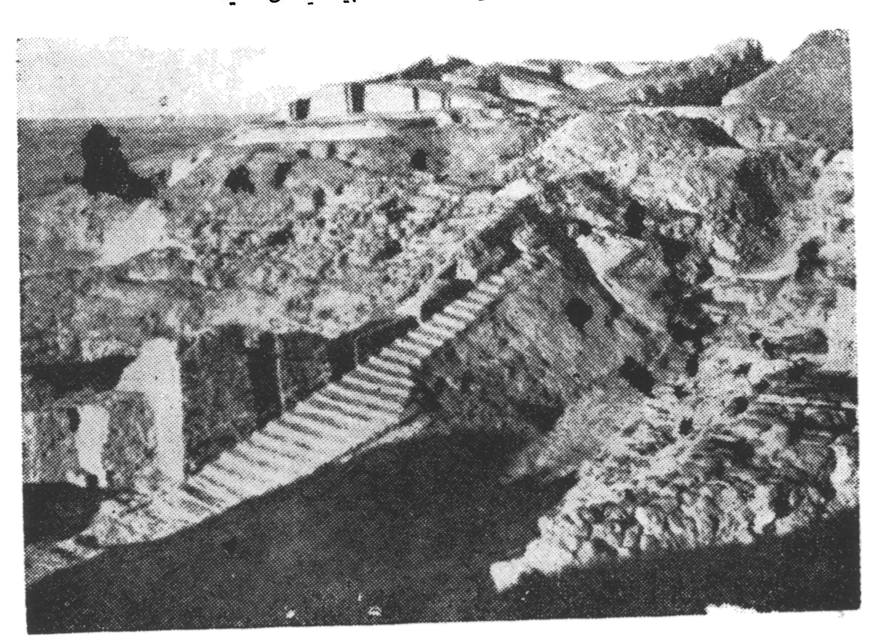
٥ - تمثال منقوش في حوض في الصخر يعود الى الفترة السابقة للفترة الكتابية

٦ - عرب المستنقعات في جنوب العراق

اللوحة الخامسة

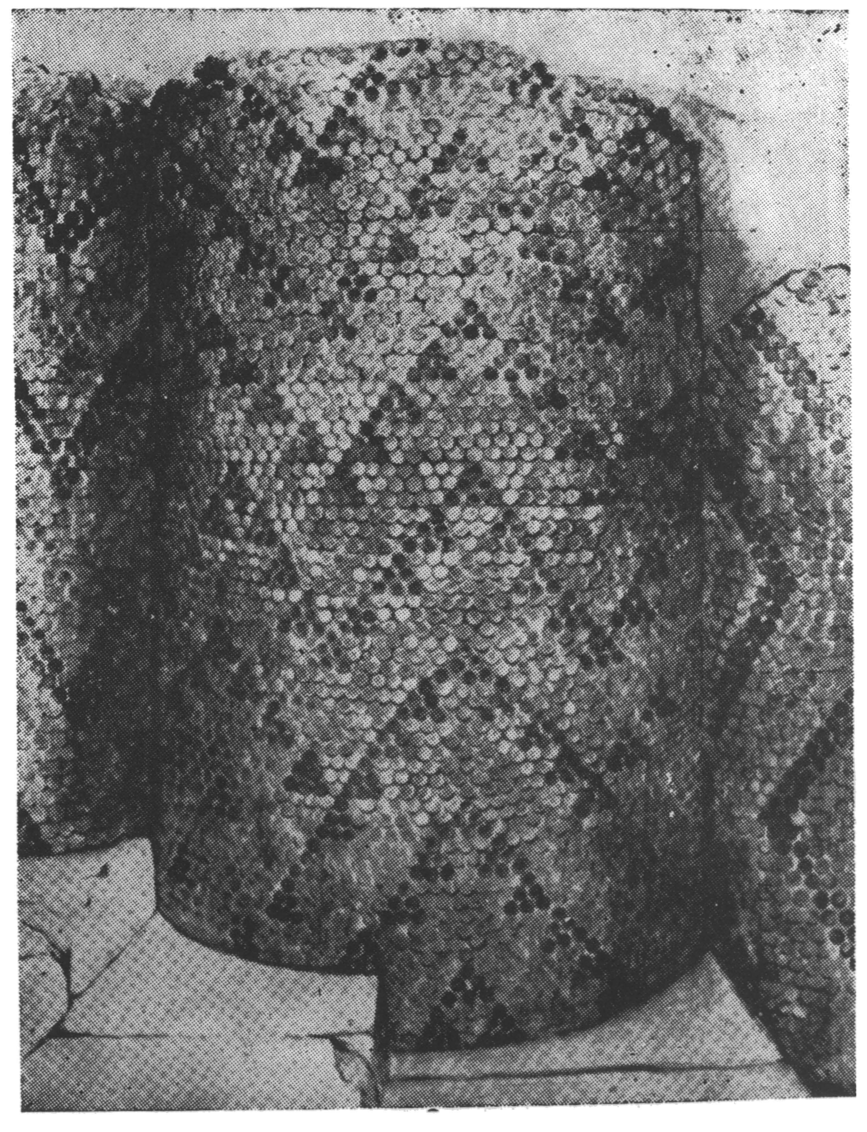


٧ - ادوات صلصالية من فترة العبيد في تل عقير



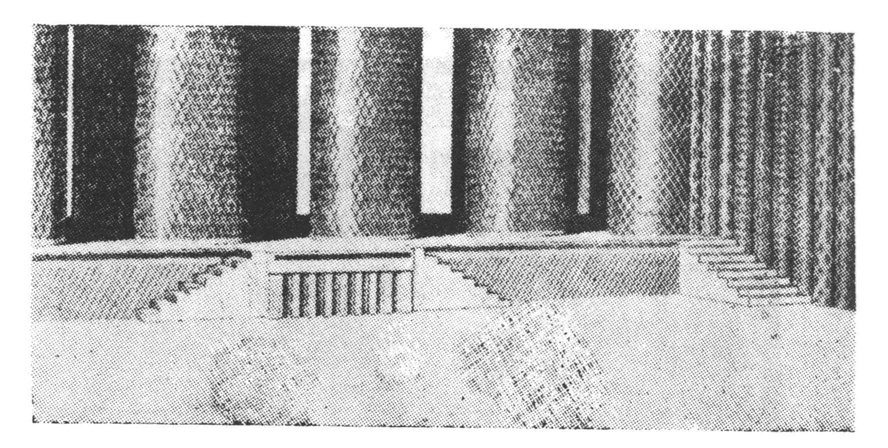
٨ - الهيكل الابيض القائم على مرتفع يعرف بالزقورة في مدينة ارك

اللوحة السادسة

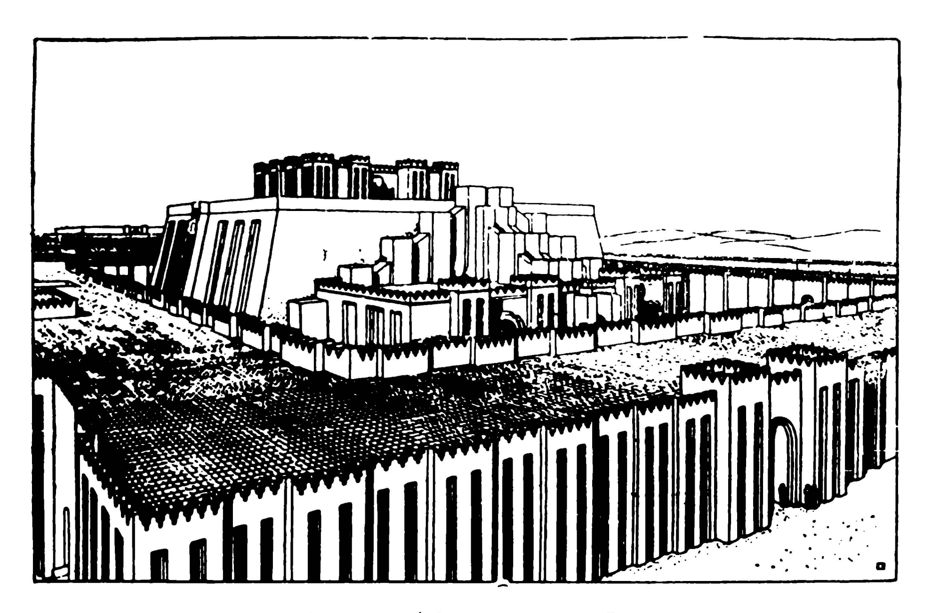


٩ - اعمدة شبه معلقة بالجدران مغطاة بالموزاييك المخروطي الشكل في ارك

اللوحة السابعة



١٠ ـ أعمدة على مصطبة في ارك



١١ ـ زقورة عشتروت في ارك في عهد الاشوريين

اللوحة الثامنة



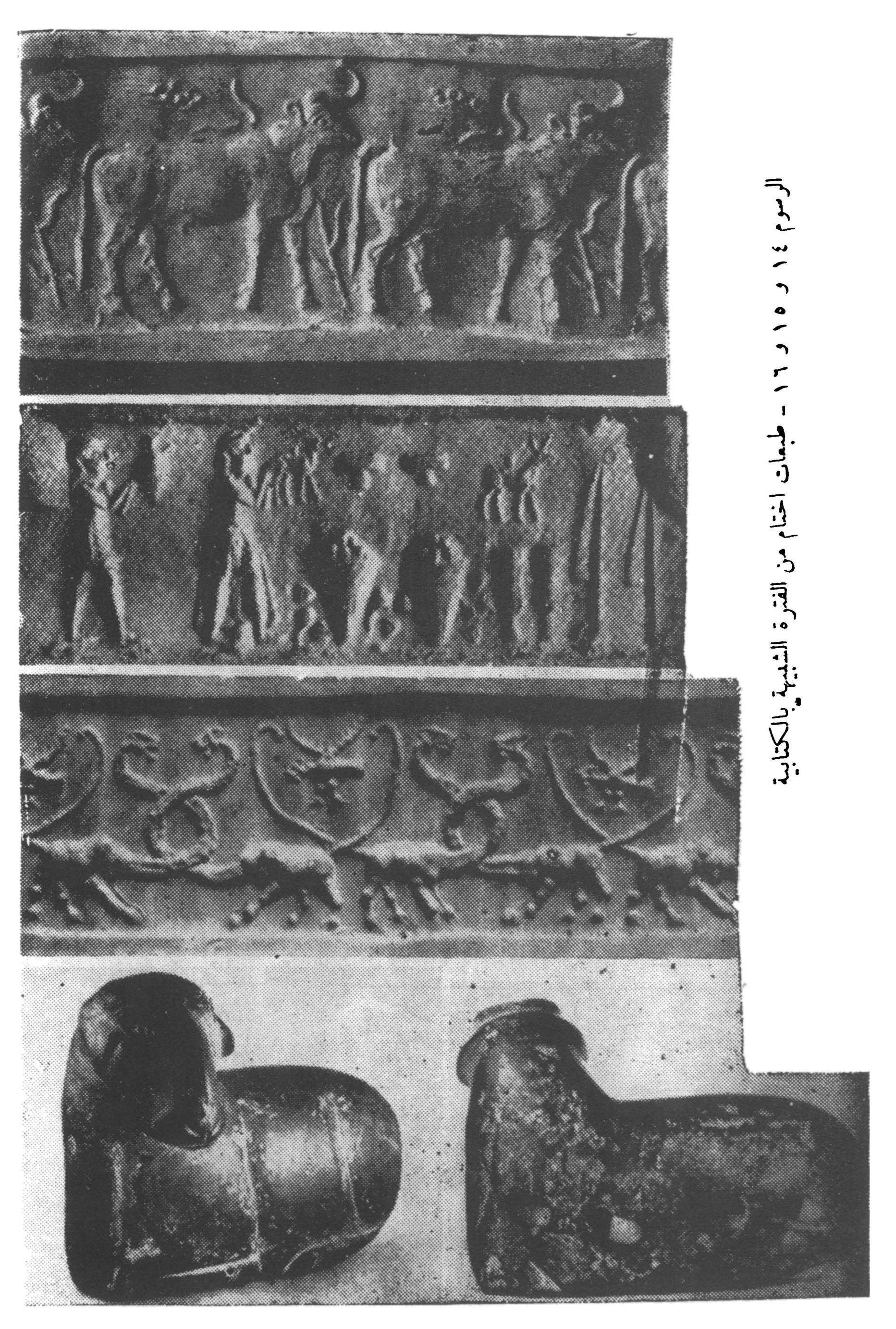
١٢ ـ إله الخصب على نقش حجري في اشور

اللوحة التاسعة

هـ معنى اصلي أو مشتق	د اشوري	جـ بابلي قديم	ب مسماري متأخر	أ الاصل	
طير					١
سمكة					٢
حمار					٣
ثور					٤
شمس يوم					٥
حبوب					٦
شجر					٧
يفلح يحرث					٨
يرمي					٩
يقف يذهب					١٠

١٣ ـ تطور الكتابة في بلاد ما بين النهرين (لم تدخل العلامات المتكلفة في العمود أ)

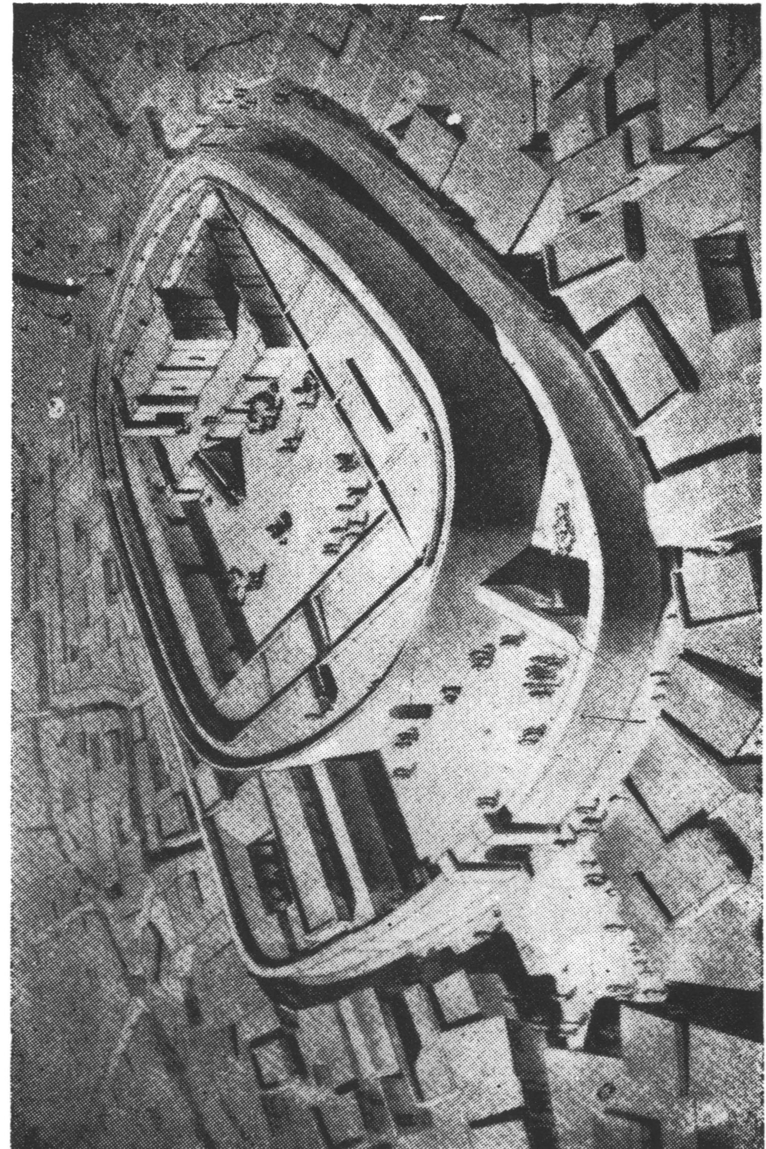
اللوحة العاشرة



الرسوم ١٤ و ١٥ و ١٦ - طبعات اختام من الفترة الشبيهة بالكتابية

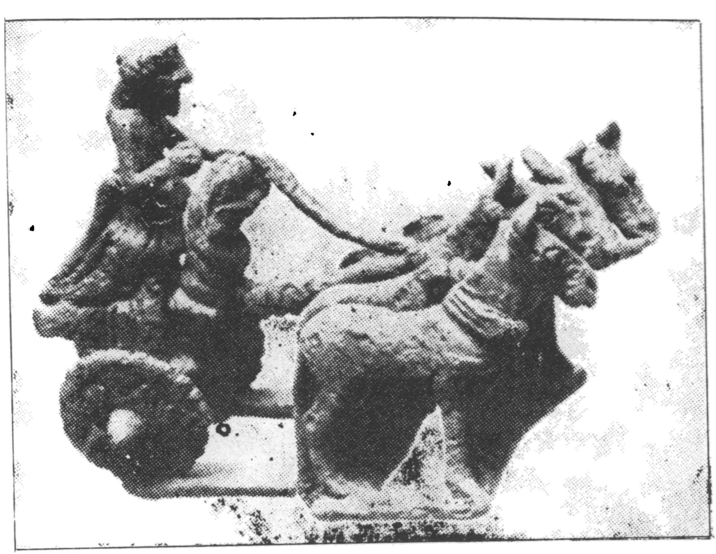
١٧ و ١٨ - خروفان حجريان من الفترة الشبيهة بالكتابية . (مجموعة ييل البابلية) .

اللوحة الحادية عشرة



١٩ - هيكل خفاجه الذي يعود الى عهد الاسرة الاولى

اللوحة الثانية عشرة



٢٠ : نموذج نحاسي لعربة يعود تاريخها الى الأسر القديمة من تل اقرب





٢٢ : رأس برونزي لحاكم اكادي

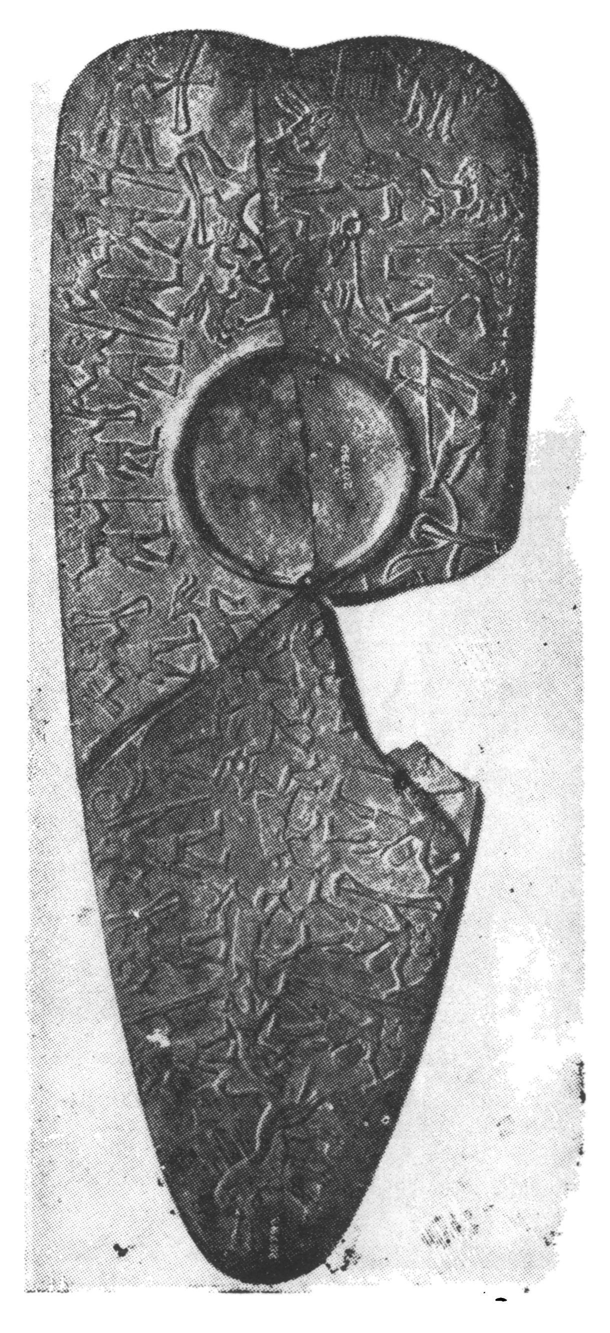
اللوحة الثالثة عشرة





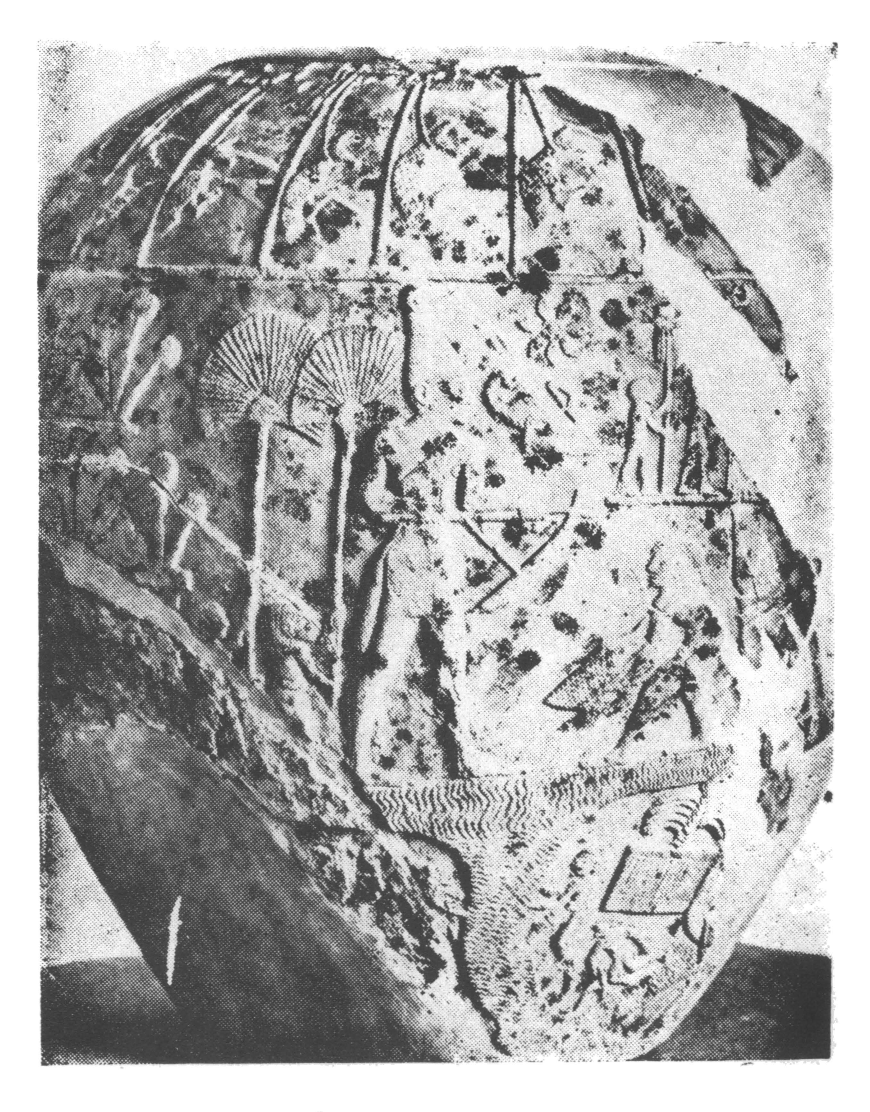
٢٣ و ٢٤ : مقبض سكين من
جبل الاراك

اللوحة الرابعة عشرة



٢٥ : لوحة الصياد

اللوحة الخامسة عشرة



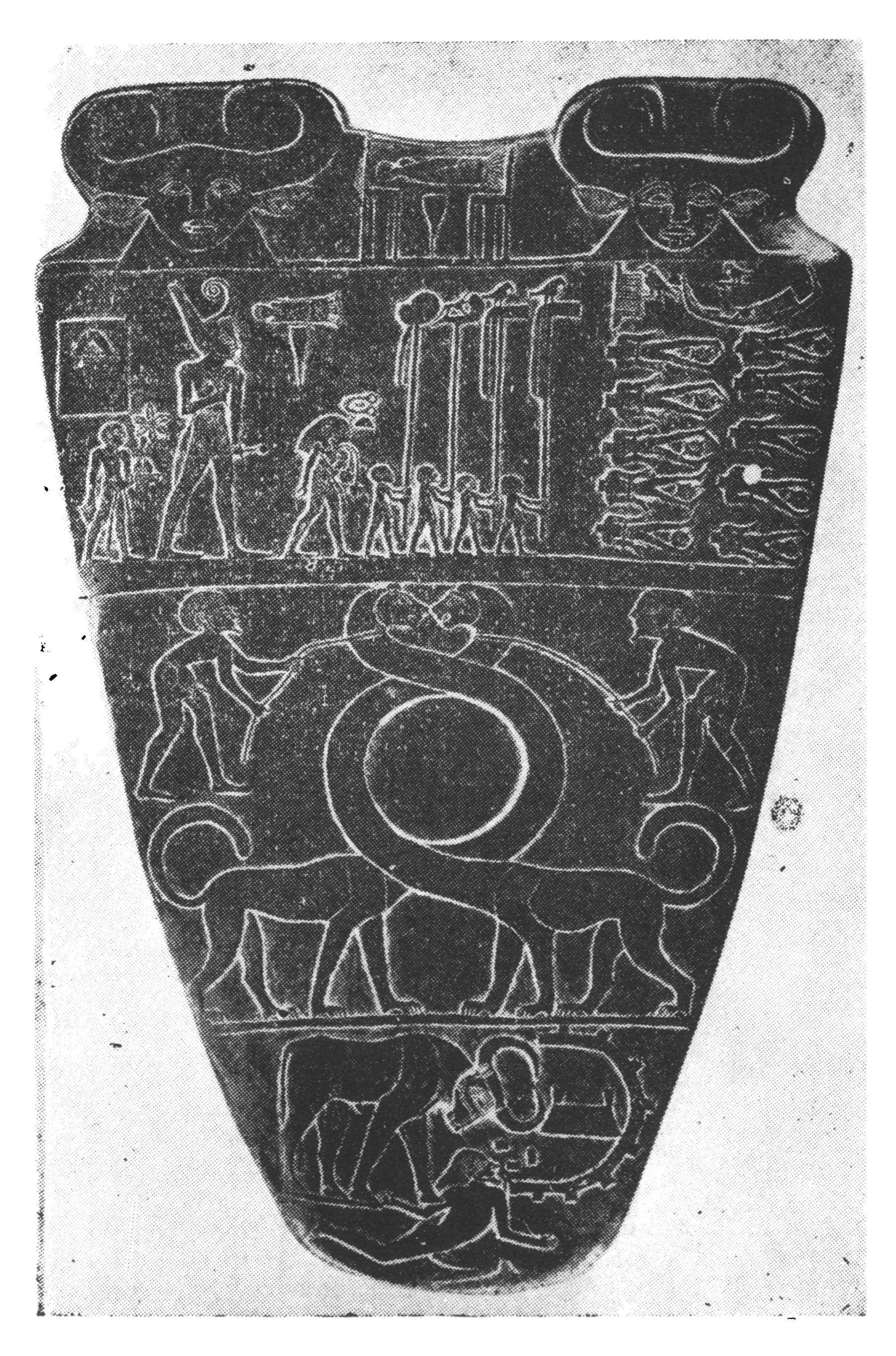
٢٦ : صولجان الملك عقرب (سكوربيون)

اللوحة السادسة عشرة



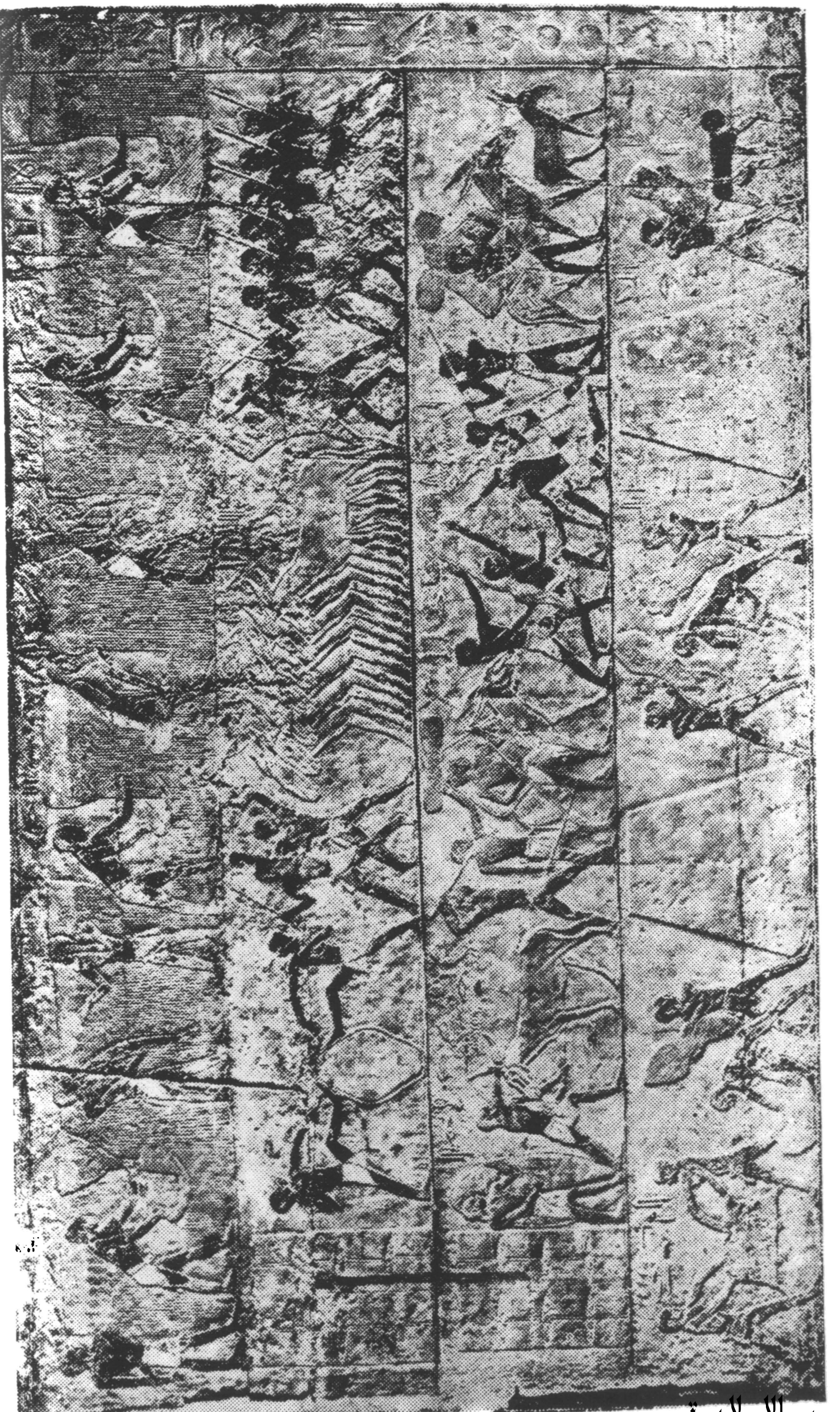
٢٧ : قفا لوحة الملك « نارمر »

اللوحة السابعة عشرة



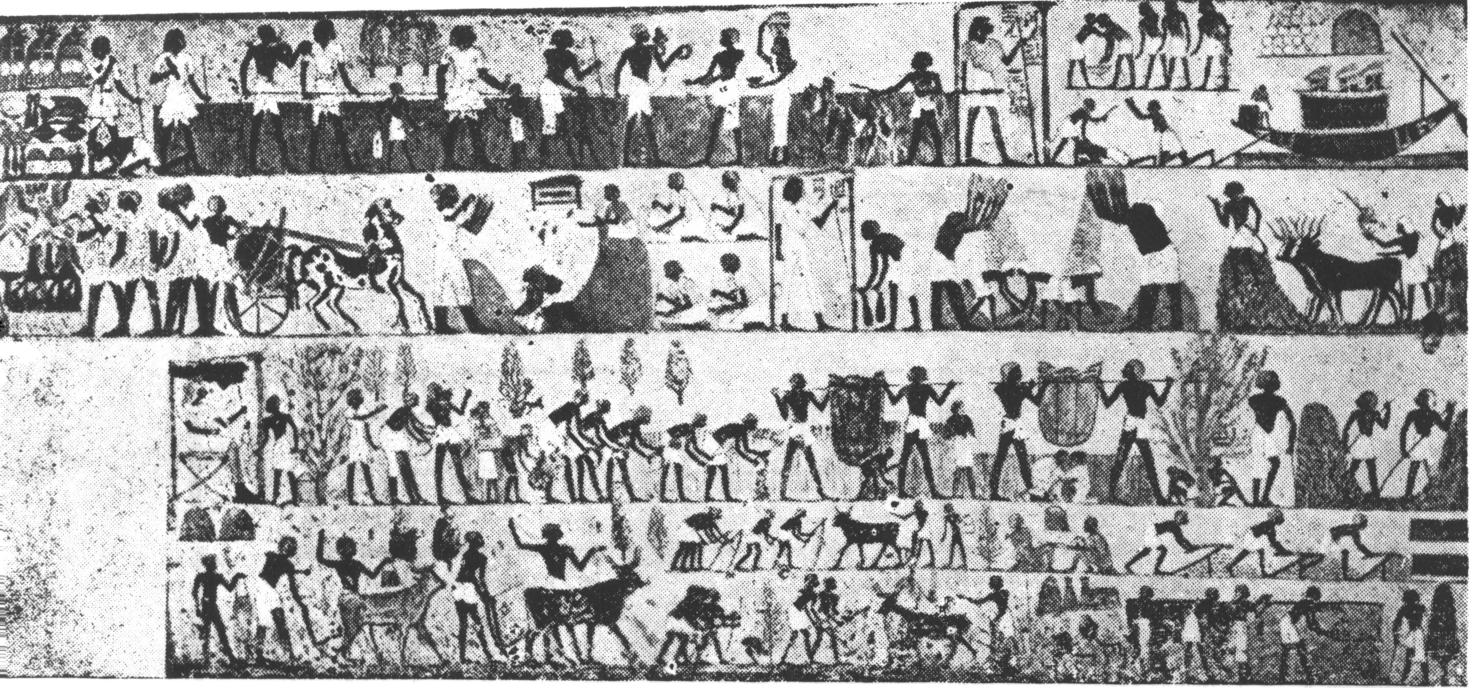
٢٨ : وجه لوحة نارمر

اللوحة الثامنة عشرة



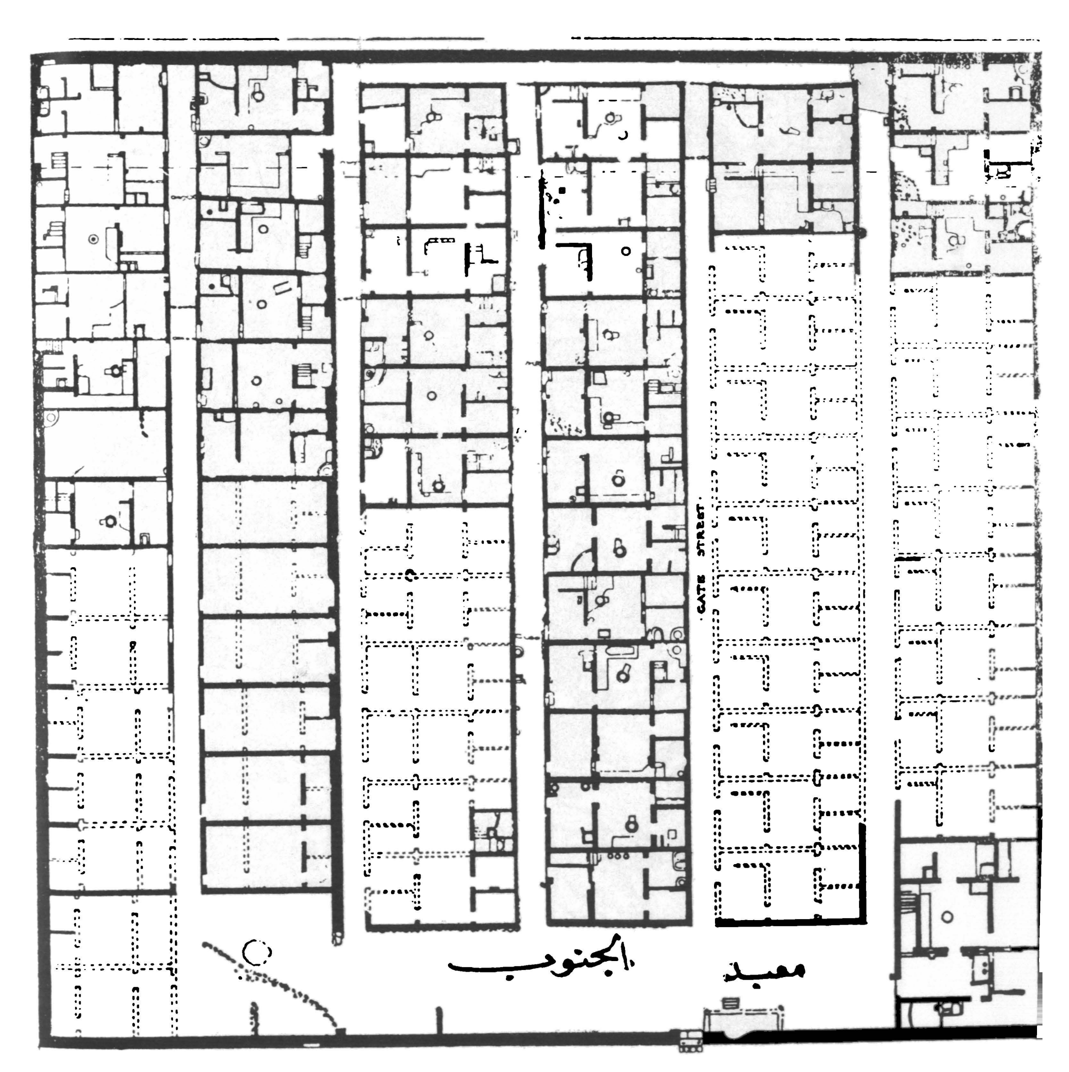
٢٩ : مشاهد الحصاد من مدفن « تي » في المملكة القديمة

اللوحة التاسعة عشرة



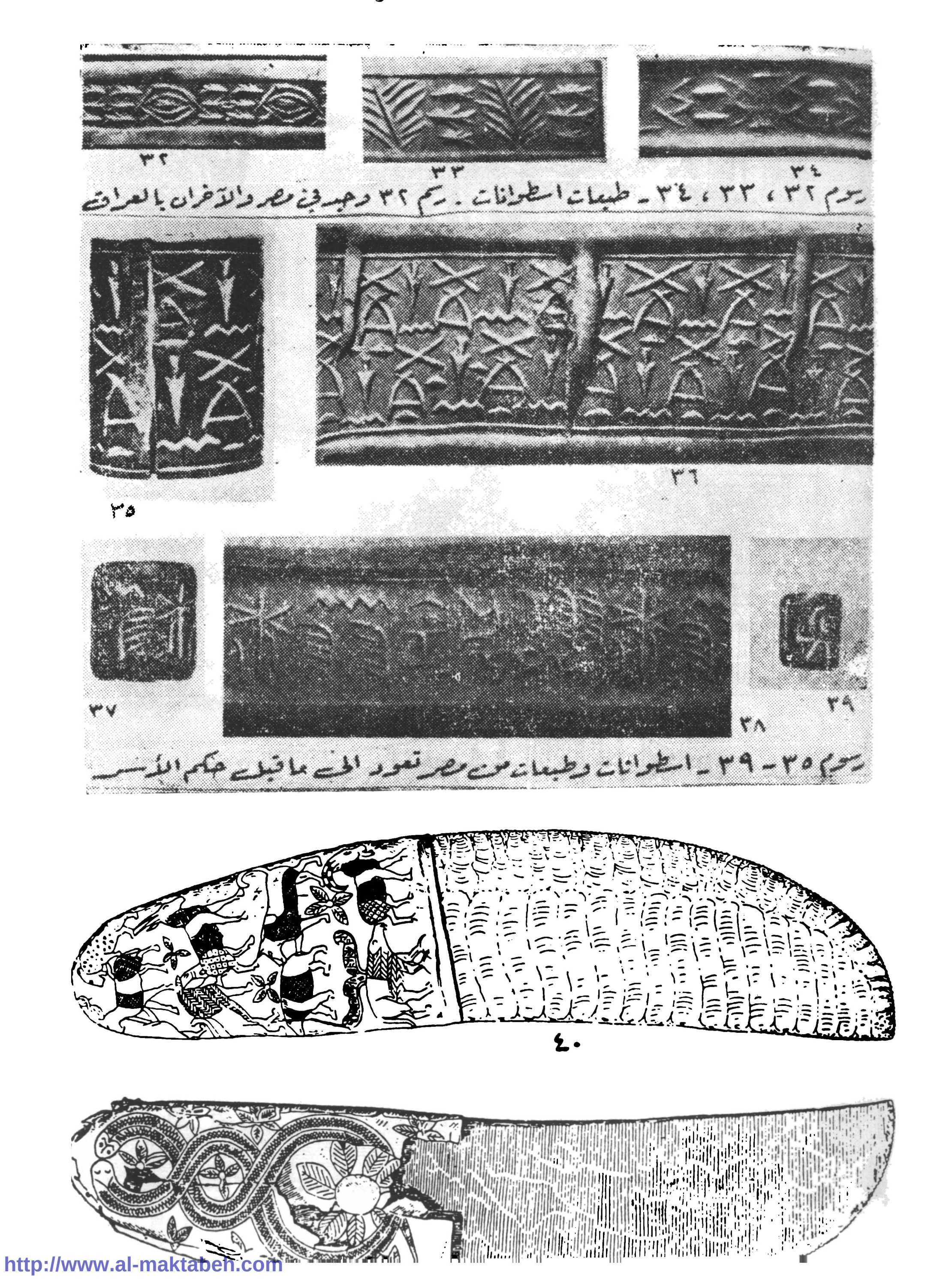
٣٠ : مشاهد زراعية من مدفن مينا من المملكة الجديدة

اللوحة العشرون



٣١ : مخطط قرية عمال في تل العمارنة

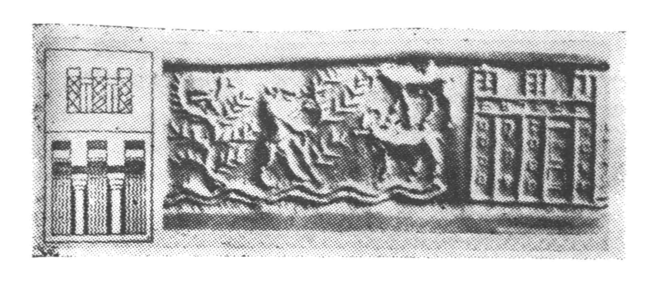
اللوحة الواحدة والعشرون



رسم ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ - طبعات اسطوانات . رسم ٣٢ وجد في مصر والآخران بالعراق

رسم ٣٥ - ٣٩ - اسطوانات وطبعات من مصر تعود الى ما قبل حكم الأسر

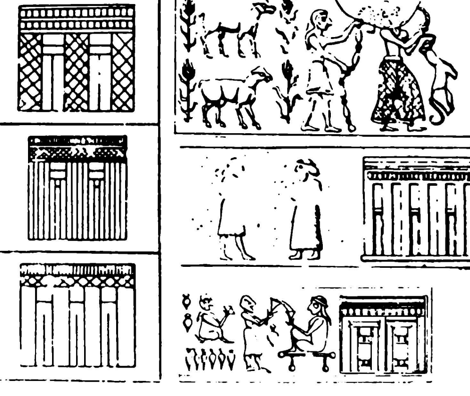
اللوحة الثانية والعشرون

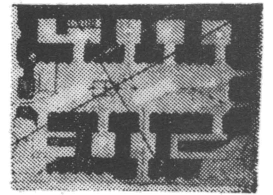


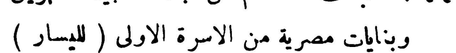
٤٢



٤٣ : لوحة جت ، الاسرة الاولى

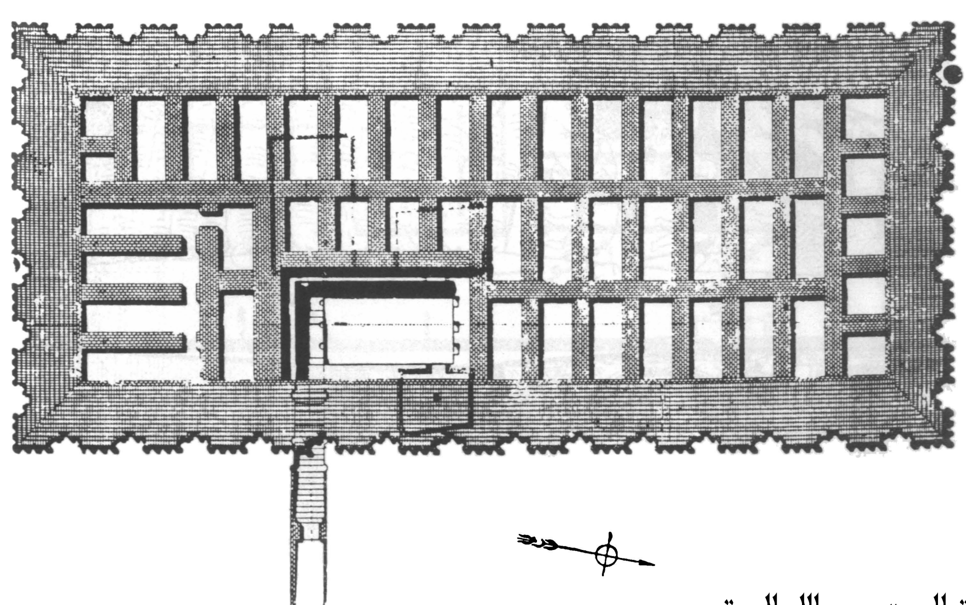






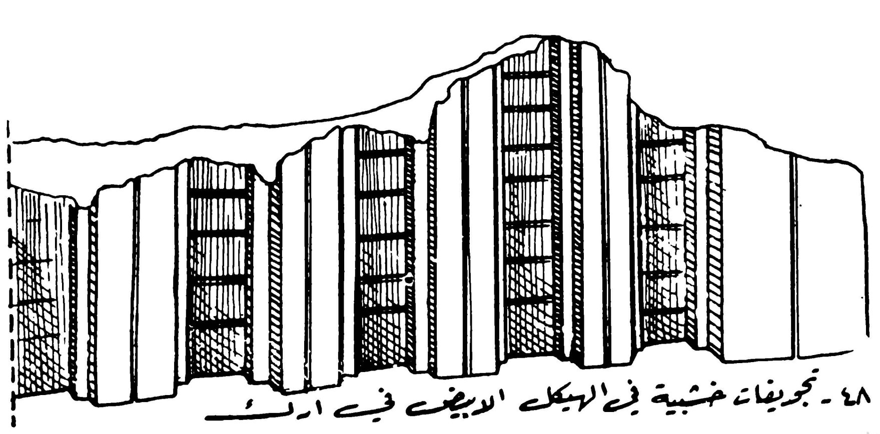
٤٢ و ٤٤ : طبعات اختام من بلاد ما بين النهرين (لليمين) وبنايات مصرية من الاسرة الاولى (لليسار)

٤٥ : هيكل ابيض في ارك

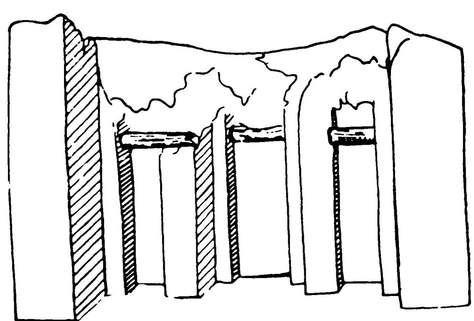


اللوحة الثالثة والعشرون

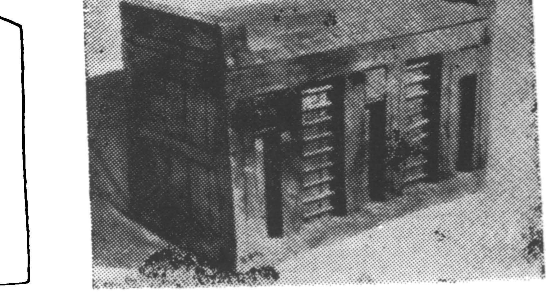
٤٧ - مدفن من ابي روش



٤٨ - تجويفات خشبية في الهيكل الابيض في ارك

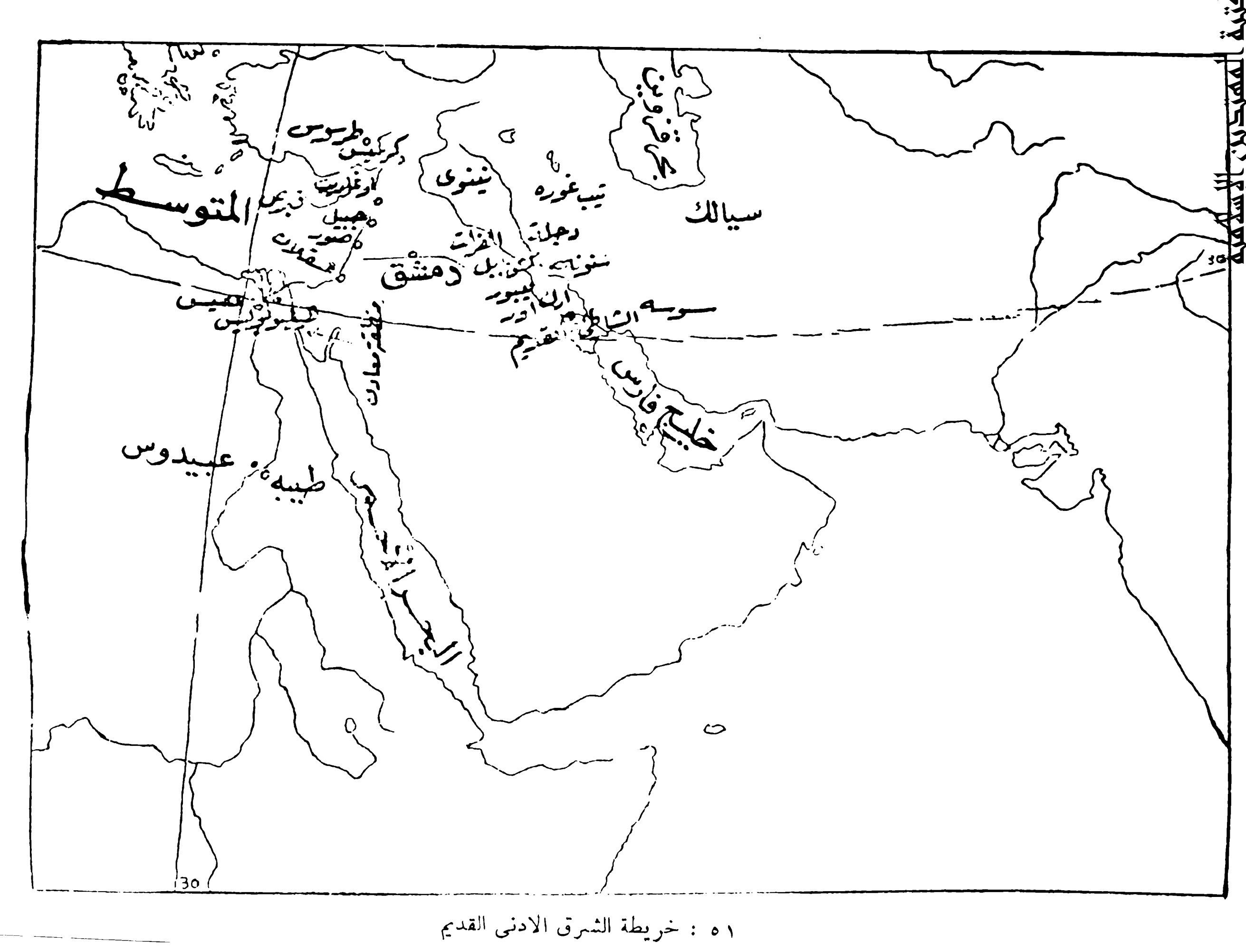


٥٠ : تجويفات خشبية في ابي روش



٤٩ : تابوت خشبي من طرخان

اللوحة الرابعة والعشرون



٥١ : خريطة الشرق الادنى القديم

الحقيقة بأن القطعة الصغرى المسجلة في كشوف الهيكل وهي غان (Gan) او سبعة اثمان الفدان كانت تكفي لسد حاجات المرء . غير ان الزواج بامرأة واحدة وندرة وجود الجواري كانت من الامور التي تحدد المساحة التي يمكن لعائلة واحدة ان تحرثها .

وقد ورد ذكر النساء ايضاً كمالكات لقطع من الارض . وهذا يدل على انهن كن يخدمن المجموعة بشكل ما . اذ أن القاعدة الأساسية في المجموعة الهيكلية كانت ان الشخص يملك الارض لكسب عيشه لأنه كان يضع مهارته في التخصص لخدمة المجموعة . فالراعي والسماك والنجار والحداد ، جميعهم يقدمون لمخازن الهيكل كميات من انتاجهم ، او يكرسون اوقاتهم كلها للعمل في ممتلكات الهيكل .

كانت المخازن (رسم ١٩)[١] تحتوي على تنوع هائل من الحاجات . الحب ، وبزر السمسم كمادة خام للزيت ، والبصل وغير ذلك من الخضروات الاخرى ، والجعة ، والبلح ، والخمر (النادر) ، والسمك (المجفف او المملح) ، والدهن ، والصوف والجلود ، وكميات ضخمة من القصب والسمّار الذي يستعمل للسقوف وللمشاعل ، والابنية الموقتة ، والحصر لتغطية الارض وللزينة ، والخشب من انواع كثيرة ، والاسفلت (الذي يستعمل في منع تسرب الماء) ، والحجارة الثمينة كالرخام والديوريت ، لتصنع منها التماثيل والمستلزمات الدينية كمقاعد التقدمة ، والآنية اللازمة في المراسيم الدينية ، والصولجانات لحرس

---

(١) وهذا الرسم يمثل اعادة بناء هيكل يعود تاريخه الى عصر الامر الاولى بجميع تفاصيله التي يمكن التثبت منها . وقد اكتشف في خفاجة بواسطة البعثة العراقية للمؤسسة الشرقية . كانت المخازن مبنية داخل السور المستدير وتحيط كلياً بالمصطبة التي يقوم عليها المعبد والفسحة التي قدامه . انظر ب . ديلوغاز ، « The Temple Oval at Khafajah » ، شيكاغو ١٩٤٠ .

الهيكل . وكان التجار يجلبون الحجارة وبعض الخشب كما انهم كانوا يجلبون من عيلام الروائح العطرية التي كان يصنع منها في « بيت الزيت » دهوناً ذات رائحة بعد مزجها بدهن الحيوان . وكان الهيكل يملك ادوات كثيرة وكان يؤجرها لمن يحتاجها من الناس .

وكانت جميع هذه الادوات والمواد تراقب وتسجل عند وصولها ثم تخزن او تصنع في حرم المعبد . فكان النجارون يصنعون المحاريث والادوات الاخرى ويرممونها ويبنون العربات وربما السفن . وكان الدباغون يدبغون الجلود للسروج وللقرب الجلدية التي يحفظ فيها الحليب والزيت . وكان الصوف يهيأ ثم يغزل قسم منه بواسطة البنات الجواري . وكان هيكل « بابا » في لاغاش يستخدم ١٢٧ جارية وثلاثين من ابنائهن . لكن بينهن ١٨ غازلة فقط . اما الباقيات فكن ينظفن الصوف ويحضرنه . وكانت كميات كبيرة من الصوف تستخدم في تجارة التصدير . كما كان قسم كبير منه يوزع حصصاً على اعضاء المجتمع . وكان جز الاغنام العديدة او جمعها يتم في ساحة خاصة خارج ارض المعبد كما كان طحن الحنطة يجري هناك ايضاً .

كان الشعير يشكل الموسم الاساسي ، لكن القمح الصلب ونوعاً آخر منه كانا يزرعان أيضاً . وكانت المخصصات الشهرية تؤخذ من المخازن الى مصنع الجعة ومطبخ المعبد . كما كان أهل مصنع الجعة أيضاً يعتنون بالاغنام والماشية لتسمينها . لكن الماشية كانت نادرة لقلة وجود الاراضي الصالحة للرعي . ان بطاح العراق توفر المرعى للاغنام في الربيع لكن الشمس تحرق العشب في أوائل الصيف . حتى انه في الزمن القديم كان لا بد من تغذية القطيعان حَباً في أسوأ فترة من السنة . وفي التقاويم المحلية ورد ذكر خاص وهو الشهر الذي « يقدم فيه الشعير للاغنام » .

كان الطعام البروتيني المألوف هو السمك لا اللحم . وعندنا سجلات عن

بُرك سمك خاصة ، ذكر من اسمائها خمسون نوعاً مختلفاً في النصوص . وهـذه النصوص تميز ايضاً بين صيادي الانهر وصيادي الأقنيـة وصيادي الشواطىء وصيادي البحار البعيدة . وكانت الاغنـام والماعز تقتنى للحليب والصوف . وكانت الثيران تستخدم للحراثة كما كانت تستخدم الحمير للحراثة ايضاً . وكانت الثيران والحمير تستخدم اربعة اربعة وتطعم شعيراً . وكانت الاجناس المحلية ، التي تتأخر بسبب طقس السهل المنهـك ، تُقَوَّى دورياً بتزويجها بحيوانات تستورد من فارس . وكانت الخنازير تربى وتسمن في المستنقع ايضاً .

والى جانب حواجز القصب كان الهيكل يملك حقولاً تضم في الغالب صفوفاً من اشجار النخيل ، وكان يزرع بين النخيل اشجـار اخرى كالكروم والتين والرمان والتوت[1] . وكانت هناك غابات اخرى تحتوي على اشجار للخشب ، ثم كان هنالك بساتين التفاح حيث كان العميان[2] يُشغَّلون فيها على ما يبدو .

وكان المواطنون ، عندما يعملون للهيكل ، ينظمون في جماعات او نقابات تحت اشراف وكلائهم . وكان هؤلاء يوزعون الواجبـات بين اعضاء الجماعة ، وكانوا مسؤولين عن تسليم المحاصيل ، وكانوا ايضـاً يتسلمون مخصصات الجماعـة والكشوفات الاخرى التي تعدد اسماء الذين عليهم ان يقوموا بالخدمة العسكرية ، تشير الى ان الرجال كانوا في ورشهم يعملون كفرقة عسكرية او كمِلاكٍ معيَّن . لكنه كان هنالك جنود محترفون ايضاً يتميزون جماعتين — رمَّاحين وحامـلي التروس . امـا في زمن السلم فانهم كانوا يعملون في الارض المشتركة ويقطعون القصب من الغابات ويساعدون في عمليات البناء .

ان التخصص وتوزيع العمل في مجموعة الهيكل ، ولا سيما تنظيم جميع انواع

(١) « Cambridge Ancient History » ، جزء ١ ، صفحة ٤٩٩ .
(٢) ثبت هذا في محاضرات الاستاذ ثوركيلد جاكوبسن في شيكاغو .

العمال تحت اشراف وكلاء مسؤولين عن تسليم المخصصات واستلامها لما يتيح فرصاً كثيرة للظلم . الا انه يمكن المبالغـــة كثيراً في الحديث عن نقاط الضعف في النظام . والحديث عن « الفائض » من الطعام اللازم انتاجـه لتغذية الموظفين والتجار والمهنيين ايضـاً ، والتلميح الى ان الموظفين كانوا طبقة طفيلية تستعبد الفلاحين[1] ، هذه وغيرها تخفي عن اعيننا عدة اعتبارات اهمها مناخ البـلاد . فانه حيثما توجد السلطة ، لا بد من وجود سوء استعمال للسلطة . لكن غنى تربة ما بين النهرين ، اذا سقيت جيداً ينتج الطعام بوفرة بدون جهد زائد متواصل . كان العمل في الحقول موسمياً في الغالب . ففي وقت البـذار وفي وقت الحصاد كان كل قوي الجسم ، بغير ريب ، في الحقـــل ، كما كانت الحالة في انجلترا في القرون الوسطى . لكن الفلاحين لم يكونوا طبقـة منفصلة او منبوذة . فكل مواطن ، سواء أكان الكاهن ام التاجر ام المهني ، كان في الواقع فلاحاً يعمل في قطعته لتأمين قوته وقوت المتوجب عليه اعالتهم . وبعـد البذر وجمع الحصاد يبقى متسع كبير من الوقت لتطوير المهارات الخاصـــة وتعليمها واستغلالها . وهنالك شبه طريف بين هذه الحالة وبين القرى في زمننا هـذا حيث الفلاح او العامل في احيان كثيرة يتخصص في مهنة معينة . ان هذه الحالة آخذة بالزوال بسرعة في اوروبا ، وهي لم تنتظم ابداً ، لكن بوسعنا ان نستشهـــد بمثلين من افريقية في يومنا هذا يسهلان علينا ان نتصور كيف ان الزراعة العملية وممارسة المهن والصناعة المنزليـــة يمكن ان تتمشيا معاً . ان المثلين العصريين يختلفان بالطبع في التفاصيل الهامة لكنهما مع ذلك مفيدان . فقـــد قيل عن النوير (Nuer) : « لا وجود للمهن الاختصاصية والوراثية لكن اشخاصاً معينين قـد يكسبون شهرة محليـــة للمهارة في صناعة اشياء كالغلايين والاطواق للعجول

---

(١) ف. غوردون تشايلد في « Man Makes Himself » صفحة ١٥٢ ، وفي « Social Worlds of Knowledge » لندن ١٩٤٩ ، صفحة ١٩، يوافق على الرأي المعبر عنه هنا .

والقوارب او عقود العاج . وليس هؤلاء الصناع محترفين ، وانما يتمركز نشاطهم حول ماشيتهم ككل نويري آخر . ولكن خدماتهم يتقبلها الآخرون كجزء من نظام تام من المساعدة المتبادلة الذي هو اساس كل مجتمع نويري ، ولهؤلاء الصناع مكافأة يقدمها لهم الآخرون كأن يساعدوهم في اعمـال رعاية الماشية او الاعمال الزراعية او يقدموا لهم هدايا »[1] . وهذا مثـل آخر ذو طابع خاص : « في غربي افريقية لا وجود لمهنة الحفر والحياكة عند قبائل البنغوي . ان مثل هذه الأعمال يقومون بها كأعمال ثانوية في الفترات بين صيد الاسماك والزراعـة . ولكن اذا صدف ان كان هنالك رجل مهنته الحفر فانـه يكون حفاراً متخصصاً ، وقد يصنع مثلاً ادوات وآلات ولكنه لا يتعاطى صنع القوس ، بل هو يترك هذه المهنة الى جاره . واذا كان يصنع ملعقة فانه لا يصنع مغرفة »[2]. ثم اننا نتعرف الى اسماء كثيرة لتسمية صيادي الاسماك في المدن السومرية بالرغم من ان الاختصاص في مدن ما بين النهرين كان ضيقاً . والنقطة التي اريـد ان اوضحها هي ان الناس ، مع كل الصناعات والمهارات المهنية التي نجدها عندهم ، كانوا ، كمجموعة ، يتعاطون الحراثة كعمل اساسي ، ولا يمكن تشبيههم بأيـة مجموعة حديثة من ساكني المدن .

وبما ان قسماً كبيراً من المنتوج الزراعي وغير الزراعي كان لا بـد له من المرور في مخازن الهيكل فقد انشىء نظام اداري متقن[3] . وللتدليل على نوعية الحسابات الدقيقة المحفوظة عن النفقات فاننا سننقل هنا سجلاً عن الحبوب التي استخدمت في عملية معينة . ولفهمها ينبغي لنا ان نعرف ان الحقول كانت تحرث مرتين ، بشقها اولاً ثم للبذار وتغطيته ثانياً . وفي الحراثة الثانية كان يعلق في

---

(١) ب . ب . هويل (Howell) في مجلة « Man » عدد ١٤٤ ، ١٩٤٧ .

(٢) ر . هـ . لوي (R.H. Lowie) « Are We Civilized ? » ، صفحة ١٠٨ .

(٣) انا شنيدر ، المرجع نفسه ، صفحة ٥٤ .

المحراث انبوب للبذار للتأكد من أن بذر الحب كان بذراً متناسقاً في الاثلام . وبما ان الحراثة الثانيـــة أقل جهداً من شق الارض أول مرة فان الثيران المستخدمة لها كانت تعطى فقط نصف الطعام المخصص للثيران التي استخدمت في الحراثة الاولى . (ويمكن تحويل المكاييـل السومرية باعتبار الغان (Gan) أقل من الفدان بقليل وباعتبار الغور (Gur) حوالي ٣ ١/٣ بوشل) .

١٤٧ غان من الارض الصالحة للزراعة والثيران المجهزة لحراثتها والبذار :

الشعير لاطعام الثيران الحارثة	٢٤ ١/٢ غور
الشعير لاطعام الثيران عند البذار	١٢ ١/٤ غور
البذار	١٢ ١/٤ غور
السِقْط	١ ١/٢ غور
زراعة ٣٦ غان اضافية	
البذار	٣
العلف	٣
مجموعها ١٨٣ غان من الارض الصالحة للزراعة	
والحاجة من الحبوب للأرض المشتركة	٥٦ ١/٢ غور

ويجلب هذا البذار من مخازن الهيـاكل المملوءة من حصاد الارض المشتركة . ولكي يكون بالامكان وضع ميزانية كانوا يقدرون غلة الفدان آخذين بعـــين الاعتبار ما إذا كانت الارض جيدة وصالحة للزراعة ، او مستصلحة حديثاً ، أو مستنقعية ، او بعيدة عن الماء . وكانت المخصصات الشهرية للموظفين تسجل كما تسجل ايضاً التموينات الشهرية لمصنع البيرة والمخبز والمطبخ والواجبـــات المفروضـــة على نقابات المهنيين والرعاة والصيادين . وكان يذكر ايضاً العمال الاختصاصيون الآخرون في المخصصات الشهرية . وكان الكاهن والمعاون يوقعان

على جميع هذه الوثائق والمعاملات غير أن انعدام النقـــد جعل التبسيط أمراً ضرورياً ، ذلك لأن الحسابات كانت تسجل باستمرار عمليـات التسلم والتسليم لجميع انواع البضائع والمخزونات المتنوعـة بشكل مخصصات وتقدمـات ومواد للاصلاح او بضائع للتجارة وغيرها كثير من دون ان تحول الى مقياس مشترك من التقييم . وكان يستحيل وضع الميزانية من شهر الى شهر ومن سنة الى سنة الا بعد ان يكون امساك الدفاتر قد عدل وكيّف الى ان اصبح نظاماً بسيطاً ذا نسب ثابتـــة شائع الاستعمال . ان طابع التنظيم في حسابات الهيكل يمكن ملاحظته من المثل الذي نقلناه آنفاً . فان العلف للثيران التي تستخدم عنـد البذار هو نفس الكميـة التي تبذر بالضبط ، والحيوان المستخـدم لشق الارض يأخذ بالضبط ضعفي القيمة المحددة للحيوان الذي يتبعه بانبوب البـــذار . وكذلك كانت تستعمل نسب بسيطة للتقييم . فالغور الواحـــد من الشعير يساوي جناً (Gin) واحـــداً من الفضة ، والغور الواحد من الشعير كانوا يتقاضونه أجراً لما يقرب من فدان واحد من الأرض . وواضح ان مثل هــذه المعادلات تحول حسابات الهيكل الى نسب سهلة . ولكنه واضح ايضاً ان هذه المقاييس المبسطة الصارمة لم تكن اطلاقاً تتفق والقيم الواقعيـــة للبضائع او الخدمـات . ولا يمكن كذلك ان يكون الفرق ، اذا كان هنالك من فرق في الحسابات ، أمراً يقصد به دوماً ايذاء الناس والا لكان مصيره الانهيار وبالتالي لا بد للفرق من أن يكون ضاراً باقتصاد الهيكل الذي كان يستطيع تحمـله ، والذي كان على اية حال ، ملكاً للناس كمجموعـة . وفي سنوات تدني المنتوج عندما يقل المتسلم من بعض البضائع المستحقـــة للهيكل كل شهر تنشأ الديون وتسجل على أن تدفع فيما بعد . ولكن تنظيم الاقتصاد الهيكلي كان على وجـــه الاجمال ، يستهدف البساطة اكثر من الدقة . وفي المدينة السومرية كان الناس ، بالرغم من « المجتمع المنظم » يجدون مجالاً كبيراً للاشغال الفردية .

ان الفرق بين القيم المحددة المستعملة في المعاملات مع الهيكل من جهـــة ،

والغلة الفعلية للحقول والقطعان والمعامل من جهة ثانيـــة كان لا بد له من أن يفسح المجال لشيء من تكديس الثروة الخاصة ، وبالتالي للمقايضة . كان بوسع المهنيين أن يستخدموا مهاراتهم الخاصـــة لقاء عمولة شخصية طالما انهم كانوا يستخدمون مواد لا تعود الى مخازن الهيكل . وبوسع الراعي ان يتصرف بأيـة زيادة من القطيـع عن الرقم المحدد له في القانون . وباستطاعة الصياد أن يتصرف ببقية الصيد بعد أن يسلم الهيكل نصيبه الشهري . واذا قيل ، بعد ذلك ، ان «جماعة الإله الفلاني » ـ المجموعة الهيكلية ـ كانت تعيش في ظل نظام من الاشتراكية الثيوقراطية (اي الدينية) فينبغي لنا ان نضيف ان هذا الاقتصاد المنظم كان يشكل نواة قاسية محاطة بمجال واسع من تجارة خاصة بقيت حرة[1] .

واما ان تكديس الثروة الخاصة كان امراً مقبولاً لدى المجتمع فواضح من القانون القائل بان جزءاً من ايجار الارض المأجورة يجب ان يدفع فضـة لا منتوجاً . وفضلاً عن هذا فان تنوع المواد المستوردة يشهـد بالمدى المتروك للمقايضة . والواقع ان تنظيم تجارة الاستيراد والتصـدير كان يتم في المركز . وكان التجار يسافرون الى الخارج للحصول على الحجارة والذهب والفضـــة والنحاس والرصاص والخشب والروائح العطرية للهيكل . ومقابل ذلك كانوا يستطيعون ان يقدموا الحبوب والبلح والبصل وما اشبه ذلك لقاء ثمن لها لكن فرصتهم الفضلى كانت ناتجة عما تنتجه مهارة الناس لا من انتاج التربة الغنية فيما بين النهرين . كانت البضائع المرسلة للخارج تحتوي قبل كل شيء آخر (وفي كل مرة) على المنسوجات — الاقمشة الصوفية والستائر والسجاد — وكانت تحتوي

---

(١) اشار م. دافيد (M. David) في « Revue de L'Histoire du droit » ، جزء ١٤ صفحـــة ٣ - ٦ - في مقـــال **Bemerkungen zur Leidener Keilschriftsammlung.** الى « ان الاشتراكية الحكومية » في عصور سومر الاولى لم تستبدل تماماً باقتصاد حر الا في حكم السلالة البابلية الاولى حوالي ١٨٠٠ ق.م. وفي ظل السلالة الثالثة في اور امكن للملكية الخاصة ان تتألف من منازل وحدائق تابعة لها لا من الحقول الصالحة للزراعة التي كانت تخص الهيكل او الملك .

ايضاً – اذا استندنا الى التوزيع الواسع لنماذج الادوات السومرية – على الاسلحة والمجوهرات والادوات المعدنية المصنوعة في السهل من المواد المستوردة . كان التاجر في ذلك العهد البعيد معنياً بالتصدير والاستيراد وحسب . ولم يكن يتعاطى بالتجارة مع اعضاء مجتمعه . كان يستبدل البضائع المصنوعة محلياً بمنتوجات من مدن اخرى في السهل ، او في بلدان اخرى كعيلام ، وكان يتسلم قطعة ارض مقابل هذا الجهد اقراراً واعترافاً بانه يعمل لصالح المجموعة ، وهذه بادرة لها مغزاها الخطير . وبالاضافة الى هذا فقد كان له ان يستعمل الحمير التي تخص الهيكل في اسفاره (رسم ٢٠) . ويبدو محتملاً ، ان التجار كانوا يجدون فرصاً للتجارة الخاصة ، الى جانب تجارتهم العامة ، ولسنا نعلم يقيناً ما اذا كانوا يؤمنون مباشرة البضائع المستوردة التي يستعملها الناس في المنازل . وفي الحفريات ، مثلاً ، وجدت في كل منزل مطاحن يدوية تتألف من حجارة مسطحة وطاحنات مستديرة . ومع ذلك فلا بد ان تكون الحجارة البركانية الصلبة المستعملة فيها مستوردة كلها من الخارج . وفي المدافن الخاصة التي تعود الى نهاية الفترة الشبيهة بالكتابية كانت الاقداح الرصاصية والأصص الحجرية مألوفة . وفي خفاجة وجدت الاواني النحاسية والقواعد لصحون الطعام الحجرية ، او فناجين الشراب او المصابيح في مدافن الاسرة الثانية القديمة . اما المدافن المتأخرة نوعاً ما في كيش وأور فانها تدل على ترف وتأنق اكثر عظمة . فقد وجدت فيها مرائي نحاسية ومجموعات زينة نحاسية وذهبية – ملاقط شعر ومسواك ومنظفة اذن معلقة في حلقة ومحمولة في محفظة مخروطية صغيرة ، ودبابيس من نحاس او فضة ذات رؤوس مستديرة من صوّان ازرق لامع ، وعقود وتماثيل حيوانات صغيرة من الرخام تعلق في العنق او الرمل المتبلور او الصوان الأزرق اللامع وغيرها من الادوات المصنوعة من الحجارة الكريمة . كان الجواهري يعرف كيف يصنع عقوداً ثمينة ومشابك للأحزمة ، فكان يصنع حتى السلاسل ذات العقد الناعمة .

والقسم الاكبر من هذه المواد كماليات بالطبع ، ففي مسائل السكن والطعام والثياب كانت البلاد تسد حاجاتها . فكانت المنازل تبنى من طوب مجفف في الشمس فلا يترك مظهرها في النفس اثراً . وهي لا تدل على نظام هندسي رتيب. وكانت الغرف يتصل بعضها ببعض بحسب ما تسمح به قطعة الارض وشكلها . وكانت الابواب واطئة ومقوسة بحيث ينبغي للمرء ان ينحني ليمر من غرفة الى غرفة . وكانت الشبابيك صغيرة ومثبتة في الاعلى وهي ذات قضبان خشبية او حواجز من الطين المحروق . غير اننا لا نكون منصفين في الحكم على فنهم وذلك لأن خرائب الطوب الطيني لا تعطينا صورة صادقة عن الجو المنزلي الذي كان يعيش فيه هؤلاء الناس . وعلينا ان نتخيل ارض الغرف مغطاة بحصر ناعمة ونظيفة ، والمقاعد مغطاة ببسط وشراشف ذات الوان زاهية .

كان الناس يلبسون ثياباً تشبه الشال وتلف حول الخصر ، ويجر جزء من الثوب على الظهر ثم الى الأمام من فوق الكتف اليسرى (رسم ٢١) . وتظهر رسوم هذه الثياب على الانصبة والمباني العامة بطريقة توحي بأنها من جلود الغنم او الماعز . ومن الجائز ان تكون هذه الالبسة البسة خاصة يلبسونها في الاحتفالات والاعياد وذلك لأنه من المؤكد ان المنسوجات كانت معروفة ولدينا اثباتات بوجودها منذ منتصف الالف الثالث ق. م .

وهكذا فان الآثار المادية التي وجدت في الحفريات تثبت ان المجموعة الهيكلية لم تفرض على اعضائها شكلاً صارماً من الحياة كما قد يبدو للقارىء من وصفنا لها . ثم ان النصوص التي تثبت وجود الملكية الخاصة والتجارة تؤيد مرونة النظام . ونحن نعلم بالاضافة الى ذلك ان هذا النظام استطاع ان يتحمل وقع الايام العصيبة ، اذ يُقَدَّر[1] ان الهيكل كان يتسلم من الاراضي المشتركة ومن الايجارات اكثر بكثير مما يحتاج اليه عادة . ثم ان الاحتياطي المتجمع كان

---

(١) شنيدر ، المرجع نفسه ، صفحة ٩٣ وما بعدها .

يصرف في الاحوال الطارئة – وهذا ضمان لمؤونة الناس الغذائيـــة افضل من الاعتماد على التأمين الفردي . ويبدو ايضاً ان الهيكل كان يقدم المخصصات اثناء الفترة ما بين البذار والحصاد ، عندما تكون المخزونات قليلة[1] .

ولا تفرق حسابات الهيكل بين دور الهيكل كمخزن مركزي للمجموعـة وبين دوره كمركز ديني . فالبضائع التي توضع جانباً للتقدمات الدينية كان ينظر اليها كما ينظر الى البضائع المأخوذة للمخصصات . والظاهر أنـه لم يكن هناك تمييز بين الوظيفتين . فالمجموعة الهيكلية مؤسسة دينية تنظم حياة المجموعة الاجتماعية . والناحيتان اللتان نميز نحن بينهما كانتا ، على ما يبدو ، ناحية واحدة لا تتجزأ .

ومع ذلك يبدو ان المجموعة الهيكلية لم تكن مؤسسة سياسية . فان اقدم هذه المؤسسات التي عرفت آثارها للآن[2] تتميـز بروح المساواة نفسها كتنظيم المجموعة الدينية . ويظهر ان السلطـــة السياسية كانت في الاصل بأيـدي المواطنين . وكانت السيادة في مدينة الإله تنحصر في مجلس يضم جميع الذكور الأحرار – كما نظن – يقوم بارشاده جماعة من الكبار الذين كانوا ، فيما يبدو ، وبالاضافة الى هذا ، مسؤولين عن الشؤون اليومية .

وبما ان ذكر « المجلس » « والشيوخ » ورد في الواح الفترة الشبيهة بالكتابية

---

(١) يبدو ان هذا هو التفسير الاقرب للحقيقة القائلة ان متسلمي القطع ايضاً كانوا يتناولون المخصصات خلال اربعة اشهر . ويرى شنيدر ، (المرجع نفسه ، ص ٩٢) ان هذا العطاء كان لقاء السخرة . الا أن هذا يبـــدو اقل احتمالاً لان الكثيرين من متسلمي القطع كالمهنيين كانوا يعملون للهيكل طيلة السنة .

(٢) ثوركيـــلد جاكوبسن ، **Journal of Near Eastern Studies** . « **Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia** » ، عـدد ٢ سنة ١٩٤٣ صفحة ١٥٩ – ١٧٢ .

فانه بوسعنا أن نخمن ان هـــذه المؤسسات السياسية الخاصة وجدت مع وجود المدن نفسها .

ويحسن بنا ان نتفهم طبيعة هـذا الطابع العجيب لهذا الشكل المدني من التنظيم السياسي . فهو يمثل في اعلى درجاته الشعور والتأكيد الذاتيين الشديدين اللذين لاحظناهما كمميزين لتحديدات الفترة الشبيهة بالكتابية . انه مؤسسة من صنع الانسان يعـــلو على الانقسام الطبيعي الاولي لمجتمع تألف من العائلات والقبائل . وهو يؤكد ان المسكن لا القرابة هو الذي يحـــدد علاقات المرء ، والمدينة فوق ذلك لا تعترف بالسلطة الخارجية . وقد تخضع لجار او لحاكم لكن ولاءها لا يمكن ان يكسب بالقوة ، لأن السيادة فيهـــا تكمن في مجلسها الذي يتألف من مواطنيها . وهكذا كانت المدن القديمة في ما بين النهرين تشبه مدن اليونان ومدن الرابطة التجارية(*) ومدن ايطاليا في عهد النهضة في نواح كثيرة . ففي كل هذه الحالات نصادف استقلالاً محلياً ، ونلحظ ان كل مواطن مسؤول عن المصلحة العامة ، هذا الى جانب جماعة صغيرة من الرجال المتنفذين الذين يعنون بالمسائـــل العامة ، وفي بعض الاحيـان يفرضون حكومة من الاعيان (اوليغاركية) مستبدة على جماهير الناس .

لسنا نعلم ما اذا كان حكم الأعيـان هذا اصبح مؤسسة في ما بين النهرين . فان مصادرنا عن الفترة الشبيهة بالكتابية أضأل من أن تعرفنا تطور السلطـــة داخل الاطار القائم . وفي عصور الأسر الاولى عندما اصبحت النصوص غزيرة كان هذا الاطار قد انهار ولم تعد المؤسسات القديمة اكثر من بقايا هزيـــلة من الماضي . لكن الحكم الفردي لا حكم الاعيان هو الذي حل محل المجلس .

وسبب التغير واضح . كان للمجلس القائم على اساس المساواة سيئـة هي :

(*) في المانيا (Hanseatic League).

الحرية التي تبلغ درجة غير مألوفة . وكان الخضوع لارادة الاكثرية ، كما يعبر عنها في الاقتراع غير معروف . وقد كان المجلس يستمر في المناقشة تحت ارشاد الكبار حتى يتوصل الى الاجماع العملي . وقد يكون هذا نتيجة للاتفاق الحقيقي او العاطفة الجماهيرية او بسبب توافق حذر بين المتخاصمين على خطة للعمل تدعو اليها جماعة قوية ، وعلى كل حال لم يكن يتوصل الى هذا بسهولة . وفي حالة الطوارىء عندما تدعو الحاجة الى قرار سريع او عمل له غاياته الخطيرة ، كانت المدينة في ما بين النهرين كالجمهورية الرومانية تضع نفسها في يدي دكتاتور . وفي سومر كان هذا الحاكم المطلق يسمى لوغال (Lugal) اي الرجل العظيم وتترجم عادة « بالملك »[1] .

كانت الملكية « بالا » (Bala) اي « ردة » او عودة الى الاصل . وبكلام آخر كان للمنصب الملكي مدة محدودة الزمن ، وعند انتهاء الطوارىء كانت السلطة تعود الى المجلس . اما في الواقع فان خطر الطوارىء كان امراً مترقباً لا سيما حين تزدهر المدن ويزيد عدد سكانها . فان الحقول القريبة من المدن ومسائل التجفيف والري وتأمين سلامة النقل لتأمين المؤن — كل ذلك قد يصبح

---

(١) لم يكن لهذه الكلمة وجود في نصوص الفترة الشبيهة بالكتابية . وهذه حقيقة لا تثبت بالطبع ان المؤسسة كانت مجهولة في تلك الفترة ، غير ان عدم ورود هذه اللفظة قد يكون سبباً اساسياً لمثل هذا الافتراض . وعلى النصب التذكارية (الرسمان ١٥ و ٤٤) صورة لشخص ذي لحية يلبس جلابية طويلة وهذا الرسم يمثل دوماً الملك او لوغال ، شعره ملفوف حول رأسه ومجموع في تسريحه على القفا وهذا اسلوب مألوف عند حكام فترة الاسر القديمة . لكن ينبغي ان نتذكر ان الاشياء التي تحدرت الينا من الفترة الشبيهة بالكتابية التي يظهر عليها لوغال وجدت كلها في ارك حيث ، بحسب ملحمة جلجاميش ، كان هنالك ملك منذ الازمنة القديمة جداً . (ولعل هذا كان متصلا بعبادة اينانا) . ولاحظ ، في كل حال ، انه حتى جلجاميش نفسه يستشير المجلس والاعيان قبل ان يقرر خطة للعمل قد تؤدي الى الحرب (Journal of Near Eastern Studies II , 166, n. 44.) وفي ارك كان الحاكم يدعى ان (en) اي السيد ، لا لوغال .

مسألة نزاع بين المدن المتجاورة . وباستطاعتنا ان نتابع خلال خمسة او ستة اجيال حرباً مدمرة لا فائدة منها بين « أما » (Umma) ولاغاش (Lagash) وذلك بسبب حقول قليلة صالحة للزراعة . وفي ظل هذه الظروف يبدو ان الملكية اصبحت دائمة في مدن معينة .

وفي امكنة اخرى كانت السلطة المركزة التي كانت تقتضيها الاخطار التي تتعرض اليها المجموعة تمنح في احيان كثيرة لزعماء يشغلون وظائف هامة دائمة . وكان لبعضهم من الحرمة في نظر الناس ما يستطيعون معها ، عندما تنشأ الطوارىء ، ان يمارسوا سلطة شبيهة بسلطة اللوغال . كان الكاهن او المعاون في هيكل اله المدينة هو الزعيم الاداري لأهم مجموعة هيكلية في المدينة . وصيرورته الزعيم السياسي للمدينة كانت ممكنة جداً . لكن الموظف الذي يغتصب صلاحيات الحاكم كان يتخذ ، في هذه الحالة ، بدلاً من اللقب العلماني لوغال ، لقباً يؤكد اعتماده على إله المدينة معلناً ضمنياً موافقة الإله على حكمه . وهذا اللقب هو انسي (Ensi) واحسن ترجمة له هي الحاكم من عند الله ، او الحاكم بأمر الله .

وسواء كان لوغالا او انسيا فان حاكم المدينة في ما بين النهرين لم ينل مركزه هذا بسبب تفوق داخلي او لحق وراثي . فقد كان يحكم بالنيابة عن المجلس او بصفته وكيلاً عن السيد الحقيقي الذي هو إله المدينة . وفي نظام الحكم الديني (الثيوقراطي) كان الحكم الشخصي يقوم على الاعتراف بمبدأ الاختيار الإلهي الذي ظل اساس الملكية حتى نهاية الامبراطورية الاشورية . غير أن موافقة الآلهة على تعيين الملك لم تكن امراً ثابتاً فان للآلهة ان تسحب هذا الاعتراف بالملك ساعة تشاء . ولذا كان امر قيام أسرة مالكة ، اي تتابع الابن على عرش الأب ، مع انه كان امراً معروفاً في فترة الأسر القديمة ، لا يرتكز على اساس في نظرية الملكية ، لكنه كان يفسر في كل حالة على انه علامة رضى تمنحها الآلهة . وهذه الافكار المحددة للملكية تدل على التأثير

المتفوق الذي كان للمدينة في التفكير في بلاد ما بين النهرين . وبقيت الملكية مؤسسة تعتريها جميع ضروب المشاكل . ثم انها عجزت نتيجة لذلك ، من ان تصبح اداة اتحاد ، كما كانته في مصر . كانت الملكية تتصف الى درجة ما بوصمة الاغتصاب ، لا سيما في العصور القديمة .

كانت مهمة الانسي في الاساس ، ان ينسق المجموعات الهيكلية داخل المدينة . فكان يعين لكل منها نصيبها من الواجبات المشتركة في الابنية والاقنية والسدود . ثم كانت هذه السخرات توزع بين النقابات والافراد والاعضاء بواسطة الكاهن او المعاون . ثم كان الانسي ، فوق ذلك ، يتناول شؤون الدفاع والتجارة ، او بكلام آخر ، الشؤون الخارجية . كان الجنود النظاميون تحت قيادته الشخصية المباشرة ، وكانوا يشكلون مصدراً هاماً لقوته داخل المدينة . وككل مواطن آخر ، كان يتلقى قطعة ارض لمعيشته ، لكن حقوله كانت جزءاً من الارض المشتركة ، وكان يحرثها بعض الناس كجزء من واجب المجموعة . وهنا ، مرة اخرى ، فرصة لاساءة استعمال السلطة . وبالاضافة الى ذلك فقد اصبح مألوفاً ان يعترف بعظمة مركز الانسي بتقديم الهدايا له في اعياد الآلهة . ثم انه كان يأخذ اجراً لاعطاء قرارات قانونية او لتقرير طلاق . وكان يفرض ضرائب معينة ، وفي اثناء ادارته الهيكل الرئيسي للمدينة كان يعين افراد عائلته لرئاسة المجموعات الهيكلية الاخرى .

ومع انه يبدو ان المجلس لم يلغ تماماً فان سلطة الانسي النافذة كانت فوق كل سلطة اخرى . وما كان في الأصل قوة في المجتمع السومري ، اي اندماجاً في التنظيم الهيكلي ، اصبح نقطة ضعف عندما استغل زعماء المجموعات الهيكلية الحاجة للقيادة ، وهي حاجة اقتضاها نمو المدن ، لظلم الناس . ونحن نعلم مثلاً ان واحداً من الحكام صادر الحقول المخصصة له في الاراضي المشتركة واستخدمها لإقامة « قصر اقطاعي » على نمط الهيكل . وتدل وثائق « فارا » الى انواع مختلفة من الناس الذين صاروا يعتمدون مباشرة على الانسي – الكتبة والحجاب

المنادون والوصفاء وحاملو الكؤوس ، والسقاة والطهاة والموسيقيون وجميع انواع المهنيين[1] . وهكذا فان المجتمع القائم على المساواة تغير تغيراً تاماً ، كما ان السلطة التي كان يتمتع بها الحاكم كانت تنعكس في الوقاحات والاغتصابات التي يقوم بها موظفوه . والواقع أن فترة الأسر القديمة انتهت في لاغاش عندما قاموا بمحاولة فاشلة للسير عكس التيار ، ولإعادة الشكل الثيوقراطي في صورته المثالية الى المجتمع السومري . ويذكر الانسي المدعو اروكاجينا انه تعاقد مع الإله ننجر سو (اله مدينة لاغاش) انه لن يتخلى عن اليتيم والارملة للرجل القوي[2] . ووضع ايضاً حداً لمساوىء معينة . « لقد استرجع المراكب من سيد البحار ، واسترد الغنم والحمير من الرئيس الراعي . واستعاد من الحجاب الضريبة التي كان يدفعها الكاهن الى القصر » وهذه « التغييرات » والكثير مما يشبهها ، مما هو مسجل فيما يدعى بالنصوص الاصلاحيــة ، تعني ان الصلاحيات التي اغتصبها الرؤساء والموظفون أبطلت ، وان هذه الحقوق أعيدت مرة اخرى الى الهيكل وحده كعضو حيوي في المجموعة .

وقضى اروكاجينا ايضاً على المساوىء التي ارتكبها اسلافــه ، ومنع – ولنستعمل كلماتــه نفسها – « ثيران الإله من حراثــة حقل البصل الخاص بالحاكم » . ثم انه خفض اجور الدفن وخدمات الصلوات . واعاد لرجل الطبقة

---

(١) وهذا التعداد يذكرنا بما يسمى « بالمدافن الملكية » في اور حيث دفن مجتمع ملكي بفخامته الكاملة في ظروف لا تزال غامضة . والثروات المكتشفة في هذه المدافن التي ترجع الى نهاية فترة الاسر القديمة وهي فيما يبدو بعيدة جداً عن المجتمع التعاوني البسيط للمجموعة الهيكلية المثالية التي وصفناها ، تذكرنا بهوميروس ومالوري اكثر مما تذكرنا بهسيود وبالحراث ، ومنذ ان اقترح سيدني سميث سنة ١٩٢٨ (« Journal of the Royal Asiatic Society », ١٩٢٨ صفحة ٨٤٩ وما بعدها) ان هذه المدافن الفنية التي تضم خدماً كثيرين قتلوا عندما دفن فيها الجماعة المالكة ، ترجع الى « عادة الخصب » . لا يزال النقاش مستمراً بدون ان يصل الى قرار حاسم . انظر كتابي « Kingship and the Gods » صفحة ٤٠٠ ملحوظة ١٢ .

(٢) ترجمة العمود ١٢ ، صفحة ٢٥ – ٢٦ نقلا عن ثوركيلد جاكوبسن .

الدنيا حقه باملاكه : « عندما يولد حمار جيد لجندي ملكي (؟) ويقول له رئيسه « أنا اشتريه منك – » فاذا سمح له بان يشتريه ، يقول له « زن لي من الفضة مقداراً تطيب بـه نفسي » ، واذا لم يسمح لـه بالشراء ليس للرئيس ان يتعرض له » .

ويمكن، بالطبع ، ان نفترض أن اروكاجينا ، في حده من سلطـة الناس البارزين لم يكن يحاول ان يستعيـد للمجموعات الهيكلية نزاهتها الاصلية وحسب ، بل انه كان يحاول ايضاً ان يكسب تأييد العامة له . ومهما يكن من أمر فان عوامل خارجة عن سيطرته تدخلت في براجه اذ أنه هوجم من قبـل حاكم مدينة أما المجاورة وقضي عليه .

ان المساوىء التي حاول اروكاجينا ان يقضي عليهـا هي في الاساس المساوىء التي تفسد تحقيق اي مثل سياسي اعلى . ومهما كانت الحال فان نقاط الضعف الخاصة ببلاد ما بين النهرين ظهرت واضحة عندما جرت محاولات جدية لانشاء دولة موحدة تضم جميع المدن المستقلة . قام بهذه المحاولة سرجون الاكادي وخلفاؤه (رسم ٢٢)[١] . كان سرجون موظفاً كبيراً عندما ملك كيش ، وحوالي ٢٣٤٠ ق . م . اسس مدينة خاصة به هي اكاد ثم هزم لوغال زاغيزي الذي كان قد تغلب على اروكاجينا وهزم حكام مدن اخرى قاوموه ، حتى أصبح سيد البلاد بلا منازع . وقبل عهده ، كان قد تحقق نجاح مشابـه لذلك لكنه كان نجاحاً قصير الامد . وبالرغم من ان وصول سرجون الى السلطة لم يكن يختلف كلياً عن النموذج القديم ، اي اخضاع المدن الاخرى واحدة بعد الثانية ، فانه قد شق طريقاً جديدة في توطيد مركزه . فلقد استمرت الدولة التي اسسها هذه المرة بضعة اجيال بعد موت مؤسسها . وقد تعود جدة وسيلته

---

(١) ليس الرأس منقوشاً لكنه يمثل في الارجح رأس احد الملوك الاكاديين . كانت العينان مطعمتين بمواد ثمينة لكن اللصوص اقتطعوها .

الى انه يمثل عنصراً شمالياً من سكان مـــا بين النهرين الذي أصبح الآن صاحب السيطرة للمرة الأولى . وهذا بين من النقوش – فقد بدأت النقوش الملكية والوثائق التجارية الكثيرة تكتب باللغة السامية التي تدعى أكادية . وهذا التغيير بالذات كان السبب في شيوع الرأي الذي يأخذ به بعض العلماء بان سرجون يمثــل فتحاً اجنبياً [١] . وظاهر أن اللغة تشير الى الفرات الاوسط والمناطق المجاورة . انها البلاد الاصلية التي ظهرت فيها هذه اللغة . لكن هذه المنطقة كانت قد دخلتها ثقافة ما بين النهرين منذ قرون ولا يمكن ان ندعو الناس من هذه المناطق اجانب بالمعنى العادي للكلمة . ففي العهود الشبيهـــة بالكتابية كانت الحضارة السومرية قد انتقلت نحو الشمال على محاذاة النهرين كما فعلت ثقافة العبيد (وربما الثقافة السومرية ايضاً) في أزمنة ما قبل التاريخ . وكما ان النفوذ الروماني في اوروبا البربرية، يمكن تعقبه بواسطة انتشار النقود فان نفوذ الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين ، في جميع انحـــاء الشرق الادنى ، يمكن تعقبه عن طريق الاختام الاسطوانية المميزة للفترة . فاننا نجد نماذج من هذه الاختام شمالاً حتى طروادة وجنوباً حتى مصر العليا وشرقاً حتى اواسط فارس او حتى الى الشمال الشرقي منها[٢] . وفي براك على الخابور في شمال سوريا ، وعلى مسافة ٥٠٠ ميل شمال ارك ، اكتشف هيكل مبني على خطة الهياكل الجنوبية يحتوي على اشياء مشابهة لها ومزخرف بالفسيفساء المخروطية[٣] . وبعد ذلك في ازمنة الاسر القديمة كانت هياكل عشتار في ماري

---

(١) رفض ثوركيلد جاكوبسن هذا الرأي في مقاله :
« The Assumed Conflict of Sumerians and Semites in Early Mesopotamian History » , in Journal of the American Oriental Society . عدد ٥٩ ، سنة ١٩٣٩ ، صفحات ٤٨٥ – ٤٩٥ .

(٢) فرانكفورت ، « Cylinder Seals » ، صفحة ٢٢٧ وما بعدها .

(٣) م. إ. ل. مـــالوان (M. E. L. Mallowan) – Excavations « IRAQ at Brak and Chagar Bazar » ، عدد ٩ لندن ١٩٤٧ .

على الفرات ، وفي اشور على دجلة ، مجهزة بتماثيل من النموذج السومري تمثل رجالاً بألبسة سومرية[1] . وهكذا يتضح انه قام على النهرين العظيمين استمرار ثقافي كان الناس يتنقلون داخله بدون ان يسببوا اضطرابا في أساس المدنية . والتغير اللغوي الذي اشرنا اليه يدل على نزوح تدريجي ، لكنه متواصل ، نحو الجنوب ، فكأن المؤثرات الثقافية المنبثقة من سومر كانت تجذب اولئك الذين وقعوا تحت سحرها . والاثبات على هذه الحركة موجود في النقوش التي تعود الى عهد الاسر القديمة . ان اهل ماري الذين كانوا قد اصبحوا سومريين حتى النهاية والذين اعتمدوا الكتابة السومرية ، نقشوا على تماثيلهم باللغة الاكادية . ويبدو ان نفس الشيء قد وقع في خفاجة قرب بغداد . وفي كيش ، على مسافة قليلة للجنوب ، كان الناس ، فيما يبدو ، يستعملون لغتين[2] .

ان لهذه الملاحظات في ميدان اللغة دلائل ذات قيمة . ولعله كانت هنالك فروقات اخرى غير ملموسة بين العناصر الشمالية والجنوبية من سكان ما بين النهرين ، فروقات ميزت التيارين بتقاليد ثقافية متباينة . ومع ان النظرة القديمة القائلة بان مجيء سرجون الاكادي يمثل فتحاً اجنبياً ليس لها ما يدعمها ، فان حكمه يدل حقاً على بداية جديدة . فالروح الجديدة تجد في الفنون تعبيراً رائعاً عنها ، وفي السياسة تجري محاولة جديدة كل الجدة لخلق وحدة سياسية تضم المدن الدول وتتجاوزها في المدى بدون ان تكون لذلك سابقة في الماضي .[3] ويظهر

---

(١) ولتر اندره (W. Andrae) « Die Archaischen Ischtar Tempel in Assur » لبزغ ١٩٢٢ .

(٢) « Journal of the American Oriental Society » عدد ٤٩ سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٤٩٠ .

(٣) ومع ذلك فان لوغال زغاسي Lugalzaggesi الذي قهره سرجون اتخذ لنفسه لقب : « ملك البلاد » .

ان اسرة سرجون كانت تدعي دوماً الملكية على البلاد كلها باستمرار . ولعل هدفهم السياسي الاسمى كان وثيق الصلة بهذه الحقيقة وهي انهم كانوا متحررين ، كما لم يكن اسلافهم من قبل ، من وجهة النظر التقليدية التي كانت تنظر الى المسائل السياسية من وجهة نظر المدينة وحسب . اذ ان الملكية عند أكثرية الشعوب المتكلمة باللغات السامية كانت الرابطة العليا التي تربط بين الناس . ولعل ولاء السكان المتكلمين بالاكادية في اواسط ما بين النهرين وشماليه كان دائماً يتعدى المدينة نفسها . وليس في سومر ما يدل على مثل هذا الولاء ، كما انه لم تكن هناك مؤسسة سياسية تستقطب سيادة المدن المنفردة . أما عن سرجون فهناك قصة تقول انه « اسكن اهل قصره على ثلاثة وثلاثين ميلا وحكم شعوب جميع البلاد »[1] . ويوحي القسم الاول من هذه العبارة ان سرجون كان يوزع قطعاً من اراضي المجموعات الهيكلية على اتباعه متجاوزاً بذلك الاساس المحلي القديم للحقوق المتعلقة بالارض . ولا يستطيع اي فاتح ان يعتمد على اخلاص المدن المغلوبة ، ويبدو ان سرجون أنشأ حاشية خاصة مستغلا روابط النسب والدم بالمعنى الواسع للعصبية القبلية . وفي ظل حفيده نارامسن كان حكام المدن يدعون انفسهم « عبيداً للملك » .

ويبدو أن سرجون قام ايضاً بمحاولة لاكتساب ولاء عامة الناس . وهـذا يظهر من التعديل في نص الايمان اي القسم[2] . فلقد اصبح الآن بالامكان ذكر اسم الملك الى جانب اسم الآلهة . ولهذا مغزاه العملي الواضح . فانه اذا خولفت

---

(١) ل . و . كنـغ (L. W. King) « Chronicles Concerning Early Babylonian Kings » جزء ٢ صحفة ٥ ، وسدني سميث « Early History of Assyria » صفحة ٩٣ .

(٢) هكذا يقول ف.و. غيرز F. W. Geers وثوركيلد جاكوبسن ؛ انظر فرانكفورت Kingship and the Gods صفحة ٤٠٦ ملحوظة ٣٥ .

اتفاقية اقسم الطرفان على احترامها او اذا جرى حنث باليمين كان للملك شأن في ذلك اذ اصبح يتوجب عليه ان يؤيد حق الطرف المتضرر . كانت لهذا اهمية قصوى اذ ان القاضي كان في السابق مجرد حكم واجبه الاول ان يوفق بين الطرفين او يرضيهما . لم تكن له سلطة لينفذ قراراته . واذا لم يكن للانسان الذي لا يتمتع بمركز مرموق من يسنده[1] ويحميه فان امكانيات الحصول على حقوقه المهضومة امام المحاكم كانت ضئيلة ، فالنص الجديد للقسم جعل الملك في وضع اصبح فيه شفيعاً لجميع الذين اقسموا باسمه . انه في الواقع مرجع استئناف لجميع البلاد بغض النظر عن المدن . وهذه خطوة ذات اهمية عظمى في تطور القانون والمجتمع في ما بين النهرين . والخطوة الأخرى لتوحيد البلاد كانت ادخال تقويم موحد . اذ انه حتى هذه الفترة كان لكل مدينة تقويم خاص بها وفيه اسماء شهور واعياد خاصة . وأخيراً كان وجود حاكم فرد يدعو نفسه « ملك انحاء العالم الاربعة » يذكر الناس دوماً بوحدة الدولة[2] .

ولو أن الضغط الخارجي يمكن الاعتماد عليه في تحقيق الوحدة القومية لكانت بلاد ما بين النهرين قد اصبحت ، بلا ريب ، دولة واحدة على الخطوط التي وضعها ملوك أكاد . إذ أن البلاد كانت في كل الاوقات معرضة لأخطار جسيمة. لقد كانت بلاداً متحضرة ومزدهرة ولكن كانت تعوزها الحدود الطبيعية . لذلك كانت تغري الجبليين وسكان البطاح بامكانيات النهب الهين . كانت المدن

---

(١) فرانكفورت ، المرجع نفسه .

(٢) كان الحكام الاكاديون في الظاهر قريبين جداً من فترة الاستقلال الذاتي المحلي فلم يضعوا جدولاً واحداً باسماء الملوك لكل البلاد . لكن هذا تم في عهد اوتوهيغال (حوالي ٢١٠٠ ق. م.) الذي اباد الغزاة الغوتيين الذين قضوا على حكم اكاد ، فان فخر اوتوهيغال بالاستقلال الجديد وبالملكية التي استعيدت ادى الى تحضير كشف للبلاد يجمع الجداول التقليدية للحكام المحليين في المدن الهامة (ثوركيلد جاكوبسن « The Sumerian King List » شيكاغو ١٩٣٩) . وهكذا تكون فكرة الملكية التي اتت بها السلالة السرجونية قد طبقت على الماضي .

تستطيع ان ترد غائلة الغزوات ، أما الهجمات الكبيرة التي كانت تتكرر كل بضعة قرون فقد كانت تحتاج الى حكومة مركزية قوية تردها . كذلك كان تأمين سلامة الطرق التجارية ايضاً فوق امكانية المدن المنفردة . وقد يتوقع المرء أن يرى هذه المدن تتعاون معاً في جهد وطني مشترك . اننا بالفعل نجد ملحمة عن « ملك المعركة » تصف كيف ان سرجون الاكادي ، حينما توسل اليه تجار ما بين النهرين الذين كانوا يتاجرون مع الاناضول ، ذهب الى هناك على رأس جيش للدفاع عن قضيتهم . وقد تعكس القصة حدثاً فعلياً لأن حفيد سرجون نارامسن بنى قلعة قوية في براك على الخابور . ولم يكن الخشب المستعمل في بنائها من الحور والدلب فقط لكنه كان ايضاً من البلوط والسنديان والصنوبر ، ولا بد ان هذا كان مستورداً[1] . وهكذا تعهد ملوك اكاد بواجب شغل جميع خلفائهم من حكام البلاد . حتى انه في الالف الاول كان اقتحام الجيش الآشوري السنوي جبال ارمينيا ثم اتجاهه نحو الغرب محاولة منظمة مركزة لصد الجبليين ، لأن اخضاعهم بصورة دائمة ، وعندهم هذه الامكانية غير المحدودة للانسحاب الى وديانهم البعيدة ، كان مستحيلاً . ومنذ عهد سرجون الاكادي أدرك الملوك ضرورة الاحتفاظ بدولة موحدة ومركزية . لقد كان لا بد من السيطرة على الحدود سيطرة تكفي لمجابهة العدوان هناك . وباختصار ان النظام الاستعماري كان الضمان الوحيد للسلام .

وقد يتوقع المرء ان يجد الناس ايضاً مؤيدين للنظام الجديد الذي فرضه ملوك اكاد لا سيما وان الشعور بالانسجام القومي كان موجوداً . كانت للسومريين عبارة « الشعب ذو الرأس الاسود » للتدليل على انهم وحدة جنسية ، وكان الالهان انليل وانو وغيرهما يعبدان في جميع انحاء البلاد . لكن هذا الشعور لم يجد ابداً تعبيراً عن ذاته في شكل سياسي معين . لقد ظل بدون

---

(١) « IRAQ » عدد ٩ - ١٩٤٧ صفحة ١٥ .

تأثير ، فيما يبدو ، على تاريخ البلاد . ان فردية المدن لم تمح على الاطلاق . وعند تولي كل ملك في اكاد كانت البلاد تقوم بثورة . وبدلاً من الاتحاد ضد العدوان حاول الناس ان يعودوا الى الاستقلال الذاتي المحلي الذي كان الاساس قبل ظهور سرجون . وقد سادت البلاد في جميع مراحل تاريخها ظروف مشابهة لهذه الظروف . ان الاكتشافات في تل اسمر (اشنونا قديماً) ، مثلاً ، تدل على سيطرة الاعتبارات المحلية على الاعتبارات القومية . وقد تعاون حاكم تلك المدينة مع الاموريين الذين عاثوا في البلاد فساداً بعد سقوط اسرة اور الثالثة . وقد سمح للبرابرة ان يغيروا ، لا بل اعانتهم بعض الفئات ، على المدن المجاورة التي ضمت الى دولة اشنونا بعد ان نهبها الاموريون[1] .

وفي ظل الملوك الاكاديين اتضح الشكل المفجع لتاريخ ما بين النهرين . فانه حوالي ٢١٨٠ ق. م. انهارت اسرتهم امام هجمات الغوتيين من جبال زغروس . ثم ان الغزوات الموحدة التي قام بها العيلاميون والاموريون قضت على امبراطورية الاسرة الثالثة في اور عام ٢٠٢٥ ق. م. وكذلك قضت غزوات الحثيين والقاشيين على اسرة حمورابي عام ١٥٩٥ ق. م. وحطمت غزوة الميديين الامبراطورية الآشورية عام ٦١١ ق. م. وقضى هجوم قورش الفارسي على حكم بابل الجديد عام ٥٣٩ ق. م.

كان انعدام الامان والاستقرار في الميدان السياسي منسجما تمام الانسجام مع الحالة السائدة في البلاد . لقد حققت بلاد ما بين النهرين انتصاراتها في جو من القلق العميق . والروح التي تتخلل اهم كتاباتها هي الشك في قدرة الانسان على تحقيق السعادة الدائمة . ولم تكن فكرة الخلاص عندهم فكرة لاهوتية بل كانوا يشعرون بها ، او فلنقل ، انهم كانوا يحيونها عاطفياً اثناء ممارستهم اعيادهم الدينية السنوية .

---

(١) هـ . فرانكفورت و س . لويد و ث . جاكوبسن ، « The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar » ، شيكاغو ١٩٤٠ ، صفحة ٤ وصفحات ١٧٧ — ١٨٠ .

٤ مصر ، مملكة البلدين «مصر العليا ومصر السفلى»

ذكر المصريون القدماء ان مينس الذي حكم أولاً في ثيس[١] جعل البلاد كلها تحت سلطانه . ثم سموه أول ملك في أول اسرة ملوكية . وبهذا يعطون البرهان القاطع على ان توحيد بلادهم كان بداية تاريخهم . واذا نحن تذكرنا بُعد الزمن الذي يفصلنا عن هذه الحوادث القديمة ، واذا تذكرنا ان التقليد والرواية كثيراً ما ينسبان الى فرد واحد فضل القيام بانتصارات جيل او جيلين، نقول اذا نحن تذكرنا هذا حق لنا ان نقول ان الاكتشافات الاثرية اثبتت لنا صحة هذه التقاليد وصحة هذه الرواية . ان قيام المملكة الموحدة يبدو ، في الواقع ، بمثابة الناحية السياسية لمولد الحضارة المصرية .

عندنا وثيقتان معاصرتان سجل عليهما ملكان من مصر العليا – سكوربيون[٢] ونارمر – خير فتوحاتها في البلاد الشمالية . وهنالك صولجان نذري (رسم ٢٦) يرينا الملك الاول – سكوربيون – عند مدخل قناة . وهو يلبس التاج الطويل الابيض الذي كان في الأزمنة التاريخية يرمز الى السيطرة على مصر العليا . وفوق هذا المشهد الاساسي تظهر شعائر آلهة موضوعة على قواعد تستخدم اعواداً لعصافير الريخت Rekhyt . وهذه العصافير ، تمثل

(١) قرب عبيدوس في مصر العليا رسم ٥١ .

(٢) الاسم مكتوب بعلامة عقرب ، لكننا لا نعلم كيف كان يلفظ هذا الاسم .

في الغالب سكان مصر السفلى[1] . ويبدو ان سكوربيون أخضع كل وادي النيل لأن نصبه وجدت عند مقالع طورة قرب القاهرة .

غير ان نارمر وسع سلطانه على اراضي الدلتا المستنقعية ، ولذلك يبدو انه النموذج الحقيقي لمينس الاسطوري . ومن بين نصبه الكثيرة المحفوظة لوحة حجرية نذرية كبيرة (رسم ٢٧ ورسم ٢٨) هي اهمها . ويظهر انها سجل واقعي لتوحيد مصر ، أو على الاقل ، لمرحلة هامة من التوحيد . فعلى جانب منها يحطم نارمر اللابس لتاج مصر العليا ، زعيماً من زعماء المستنقعات الشمالية ، وعلى الجانب الآخر ملك يلبس تاج مصر السفلى يستعرض عدداً من رؤوس الاعداء المقطوعة . وهكذا يظهر نارمر كاول « سيد للبلادين » .

لكن من الخطأ أن نقرأ لوحة نارمر كقصة فتح وحسب. ان «توحيد البلدين» لم يكن عند المصريين بداية تاريخهم وحسب لكنه كان ايضاً اظهاراً لنظام مقرر سلفاً يمتد بعيداً وراء الميدان السياسي ويربط بين المجتمع والطبيعة في انسجام لا انفصام له . وزعيم هذا النظام هو الفرعون . وفي جميع الازمنة التاريخية كانت النصوص تعلن هذا الاعتقاد ؟ كما ان الفن الصوري كان يعبر عنها في رسوم عظيمة تظهر فيها صورة الملك الشامخة تحطم ، وبيد واحدة ، الاشقياء الضالين

---

(١) الكسندر شارف (A. Scharff) « Archaeologische Beitraege zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift », Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften , Phil . — Hist . Abt. (1942) , Heft 3 , 10 , n. 17 .

ويرى غون Gunn في مدونات مصلحة الآثار المصرية ، مجلد ٢٦ ، صفحة ١٧٧ وما بعدها ، في طيور الريخت هذه سكاناً من مصر السفلى . وفي الاونوماستيكا المصرية القديمة جزء اول صفحة ١٠٠ - ١٠٨ ناقش غاردينر استعمال الكلمة مطولاً وتردد في قبول النتيجة التي توصل اليها غون لانها لم تعد فيما بعد ، محصورة بمصر السفلى . بل كانت اللفظة عند ذاك ، وكان استعمال العلامة الجناحية اصطلاحاً محضاً .

الذين انحازوا الى جانب الفوضى في مقاومة نظام الفرعون . وانه لذو مغزى ان يعبر فنياً عن هذه الناحية من قوة الفرعون ، لاول مرة ، في عهد نارمر[1] .

ولكي نستطيع ان نقدر جدة رسم لوحة نارمر حق تقديرها يجب ان نحقق في سالفاتها . فالمادة والشكل يعلنانها نموذجاً لنوع مألوف من مواد الزينة . وفي الازمنة السابقة للأسر (رسم ٤) كانت اللوحات الاردوازية تستعمل لطحن مسحوق اخضر يقي العينين ، حين يوضع على الاجفان ، من البريق والعدوى . وعلى لوحة نارمر ايضاً فراغ مستدير متروك لهذه الغاية مع ان حجم اللوحة ، فيما يبدو ، يمنع استخدامها في ذلك . ان اللوحات والامشاط ومقابض السكاكين وما اليها اصبحت تجمل بنقوش بارزة خلال المرحلة الاخيرة من الفترة السابقة للأسر . وبين هذه الاشياء المزخرفة شيئان جديدان اولهما مقبض سكين من عاج وجد في جبل الاراك في مصر العليا (الرسمان ٢٣ و ٢٤) ويدل أحد جانبيه ، على مطاردة فريسة ، وهذا الرسم الرمزي يتكرر على اشياء اخرى تعود الى العصر نفسه . وعلى الجانب الآخر رسم معركة . والشيء الثاني هو لوحة الصيادين (رسم ٢٥) وترينا جماعتين من الرجال تتعاونان في محاولة قتل الاسود ، ربما لأن هذه الاسود كانت منتشرة في الأراضي البور التي يراد استصلاحها . ويظهر الفرق بين الجماعتين بالاعلام المختلفة القائمة في وسطيهما .

وليس لهذين المشهدين ، مشهد المعركة والصيد ، مثيل في الازمنة السابقة للأسر . وليس لهما صلة كذلك بالفن المصري المتأخر . ان جدتهما تقوم على تبيان

---

(١) اننا نقتصر فقط على هذه الناحية التي هي اوضح ما يكون في لوحة نارمر كقطعة فنية . لكن قيمتها الفائقة في تاريخ الفن بحثها حديثاً بصورة تامة هـ . ا . غرونيويغن – فرانكفورت (H. A. Groenewegen - Frankfort) في « الجمود والتحرك – بحث في الفضاء والزمان في الفن التمثيلي في الشرق الادنى القديم » . لندن وشيكاغو ١٩٥١ صفحة ٢٠ – ٢٣ .

العمل الجماعي وهذا طابع غير مصري من حيث التمثيل . ومقبض السكين واللوحة كلاهما سجل امين لمجرى حوادث حقيقيــــة : جماعتان من الرجال مشتركتان في معركة او متحركتان معاً نحو الطريدة . ولنا ان نفترض أن بعض الرسوم تمثــل القادة او الرؤساء ، لكنه ليس هنالك ما يساعدنا على تمييزهم . ويبين كل مشهد منهما الطابع القتالي للمناسبة . لكن مثل هذا التمثيل الحقيقي لم يكن مقبولاً ابداً عند المصري في الازمنة التاريخية . انه يخفي المعنى الحقيقي للحوادث بتمثيل ظواهرها الخارجية وحسب . فانــه مهما كبرت الجماهير التي تتحرك في المعركة او تبني المعابــد او الاهرام ، او تذهب الى الصحارى لتقلع الحجارة او لتبحث عن الذهب فانها كانت تتحرك بارادة حاكمها المقدس . ولا يكون الفن متجاوباً مع هدفه الا اذا أكد هذه الحقيقــة . وقد فعل الفن ذلك بان استعمل خلال ٢٥٠٠ سنة نماذج مستمدة من رسوم نارمر . ولاحظ أن وجهة النظر المصرية الكلاسيكية لم تكن بعد قــــد مثلت بصفائها على صولجان سكوربيون حيث يبدو الناس وهم يساعدون الحاكم[١] وطيور الريخت المشنوقة تتأرجح على اعلام الآلهة . وعلى بعض القطع الاخرى السابقـــة لعهد نارمر[٢] نجد ان للاعلام المقدسة مقابض لتدل على مساهمتها الفعليــة في انتصار الحاكم . أما على لوحة نارمر ، كما على جميــع نصب العهود التاريخية ، فان الفرعون يعمل وحده . لقد اصبحت اعلام الآلهة ثانوية (رسم ٢٨) واصبح الرجال تابعــين وحسب ، اذ ليس لأي عمل من اعمالهم اية قيمة اذا ما قيست بعمل الفرعون .

واذا كانت فكرة الملكية المصرية المميزة قد لقيت تعبيرها الصوري في عهد

---

(١) انظر هـ . ا . غرونيريغن فرانكفورت ، نفس المصدر ، صفحة ١٩ بشأن الصفات الفريدة لهذا المشهد .

(٢) وهما اللوحتان المدعوتان بالثور والاسد . انظر كابارت – « الفن البدائي في مصر » صفحة ٢٣٨ رسم ١٧٧ وصفحة ٢٤٢ رسم ١٨١ . او فرانكفورت – « الملكية والآلهة » الرسمان ٢٧ و ٢٨ وصفحة ٩١ وما بعدها .

تارمر فانها وجدت تجسيدها الأدبي الاول في نص مشهور يجب أيضاً أن ينسب ، بسبب ما فيه نفسه من اثبات الى السنوات التكوينية في تاريخ مصر[١] ، وهو النص المعروف باللاهوت المفيسي . ومما يدل على قيمة النظرية الملكية ، تلك القيمة التي استمرت اجيالاً ، هو ان النسخة الوحيدة الموجودة الآن تحدرت الينا من زمن متأخر ، من عهد الملك شَبَقَة في القرن الثامن ق . م . وفوق ذلك فانها تقرن النظرية هذه بعمل من اعمال مينس - تأسيسه مدينة ممفيس . فالنص يهمنا اذن من حيث زمنه ومن حيث العمل الذي يشير اليه والتعليل الذي يقدمه .

ان قيمة زمن هذا النص واضحة . وبالنظر للأهمية الفائقة لمؤسسة الملكية في المجتمع المصري ، فان تكوين نظرية الملكية في بداية المملكة يمثل تمثيلاً حسناً نشوء « شكل » الحضارة المصرية في ذلك الزمن العصيب .

والاشارة الى تأسيس ممفيس واردة في النص تلميحاً ، ومحتواها هو التأكيد على الاهمية العميقة للمدينة . ان الدلائل اللغوية ، وما يحتويه النص من اشارات الى حوادث ، اثبات جلي ان النص يعود الى زمن بعيد . اضف الى هذا ان هنالك رواية حفظها لنا هيرودتس وهي رواية يمكن الاخذ بها ، تقول ان مؤسس مدينة ممفيس كان الملك مينس . ويشرح النص فلسفة المؤسسة الجديدة. ومن مجرى الحوادث الفعلي بقيت لنا الرواية التالية حتى العهد اليوناني : فقد كان يظن ان مينس بنى سداً عبر القسم الغربي من الوادي شمالي الفيوم ، مرغماً بذلك فرعاً من فروع النيل ان يعود الى مسيره الأساسي ، ومستصلحاً بذلك خمسين ميلاً من الوادي . وعلى الأرض التي احياها بنى قصراً ملكياً الى الجنوب

---

(١) ان اثبات تاريخه القديم لغوي . ورأي يونكر Junker بصدد تاريخ النص ضعيف الاساس . انظر فرانكفورت ، نفس المصدر ، صفحة ٣٥٢ ملحوظة ١ . وفي الفصل الثاني من هذا المؤلف ترجمات انجليزية للقسم الاكبر من الثيولوجيا المفيسية .

من القاهرة الحديثة قليلاً . وكان يدعى « الجدران البيضاء » ولذلك تميز بأنه مؤسسة من مصر العليا لان الأبيض كان لون الالهة الام « نخبت » حارسة مصر العليا وبيت الملك. لكن المستعمرة الجديدة لم تكن حقيقة عاصمة البلاد الموحدة. فان خلفاء مينس من الاسرتين الاولى والثانية لم يسكنوا هناك . ويبدو انهم احتفظوا بمسكنهم في ثيس ودفنوا في عبيدوس[1] المجاورة داخل المنطقة التي جاء منها اسلافهم . كانت ممفيس في الأصل – وبقيت كذلك حوالي ١٥٠٠ سنة تقريباً (انظر صفحة ١٠٣ وما بعدها) مدينة مقدسة ، أي المجال الذي فيه جرت حوادث لا مثيل لاهميتها في الدولة المصرية . واللاهوت الذي يعرف باللاهوت الممفيسي يتناول هذه الحوادث بالذات .

لقد حاولنا في مكان آخر ان نوضح معنى النص لانه شديد الغموض ، لكي نناقشه هنا[2] . انه ينقل التاريخ الى الميثولوجيا ، والقصد من تدوينه ايضاح المعنى السامي للعمل الذي قام به مينس . وقد اعترفت الاجيال التالية بصحة هذه التعاليم القديمة عن طريق الاعمال التي كانوا يقومون بها . فان كل ملك جديد كان يجيء الى ممفيس للاحتفال « باتحاد البلاد » وللقيام بالطواف حول الجدار الابيض ، كما كان يظن ان مينس فعل عندما شيد قصره الملكي[3] .

ان الدولة التي أسسها مينس يشار اليها عادة باسم « البلدين » . وهو تعبير معرض لان يساء فهمه . فاننا هنا إزاء عبارة لها علاقة بقصة الخلق أكثر مما لها

---

(١) اكتشف و.ب اميري في الحفريات الاخيرة في سقارة مدافن كبار موظفي ملوك الاسرة الاولى لكنه لا اثبات في رأيي لوجود مدافن ملكية هناك .

(٢) فرانكفورت – الملكية والالهة – الفصل الثاني .

(٣) يمكن ان نذكر القارىء الذي يعرف دور اوزيريس في نظرية الملكية المصرية بحقيقة وهي ان دفن اوزيريس كان مقره « القصر الملكي » وذلك حسب اللاهوت وان هـذا الدفن والقيامة من الموت كما يظهر على عمود « جد » Djed كان يمثل في ممفيس سنوياً .

مدلول سياسي كما هو الحال في عبارات كثيرة نجدها في النقوش المصرية . وقد اثبتنا في مكان آخر [1] ان الكيان المزدوج « لمملكة مصر العليا والسفلى » كان يرضي طريقة التفكير المصرية التي كانت ترى في الوحدة انهـا توازن بين متناقضين . وقد فرض على توحيد البلاد نظام متناسق ذو مغزى لكن هـذا الافتراض ليس له اساس فعلي في التاريخ لان سكوربيون ونارمر افتتحا الشمال تدريجياً حسب مانعلم . كما انه لاوجود لاشارة حقد ضد الشمال، بـل الامر على العكس من ذلك . فاننا نصادف اناساً من الشمال كانوا يحتلون أرقى المراتب . فان ملكتين من الاسرة الاولى توحيان، كما يدل على ذلك اسماهما، ان اصلهما من الدلتا ، كما ان موظفي تلك الاسرة المدفونين الى جانب أسيادهم الملكيين في عبيدوس يمثلون النموذج الجسماني لمصر السفلى [2] .

ولم يتحدّ العالم الخارجي النظرة المتعالية التي كان المصريون يأخذون بها نحو دولتهم . ولم يهدد أحد من جيرانهم سلامة « البلدين » . لقد كانوا جميعاً ينعمون بموارد طبيعية يبدو ان القصد منها ، من وجهـة نظر المصريين ، ان تقدم جزية لحاكم مصر المقدس . وقد رأينا ان الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط لم يكن صحراء في الزمن القديم . وقد كان على خلفاء نارمر ان يوطدوا حدودهم الشمالية مع انهم سيطروا بسهولة على السكان المجاورين . وقـد اضطر بعضهم لمحاربة الليبيين في الغرب . وفي مناجم النحاس في سيناء سجل لنا « سمرخت » انتصاره على البدو المحليين على لوحة صخرية معيداً بذلك الدافـع الاساسي للوحة نارمر . وكان لملك آخر من الاسرة الاولى قطعة عاج من الصيد محفورة مع صورة أسير سوري موثق . واخشاب سقف المدافن الملكيـة في عبيدوس

---

(١) فرانكفورت ، نفس المصدر ، صفحة ١٩ – ٢٣ .

(٢) انظر ج.م. مورانت G.M. Morant « دراسة الجماجم المصرية مما قبل التاريخ الى العصور الرومانية » بيومتريكا عدد ١٧ – ١٩٢٥ صفحة ١ – ٥٢ .

صنوبرية مستوردة من لبنان . ووجدت اباريق من صنع سوري وفلسطيني في هذه المدافن ، وفي مدافن الكبار المدفونين في سقارة . ولعلها كانت أواني لزيت الزيتون . أما الذهب والعاج وريش النعام والأبنوس فكانت تأتي عن طريق النوبة من داخل افريقيا .

وعلى كل حال فقد وجدت ايضاً في هذه المرحلة من الحضارة المصرية دلائل اتصال بمنطقة اكثر بعداً من ذلك . وهي تختلف في الطابع عن تلك التي وصفناها . فقد كانت ليبيا وسينا وسوريا تمون وادي النيل بالمواد الخام الضرورية جداً . أما سومر فقد كانت تقدم لها الافكار الثقافية . وقد وجدت في مصر اختام اسطوانية مستوردة من بلاد ما بين النهرين ، وتبنت مصر نفس الشكل الغريب للاختام . كما ان اقدم البنايات المصرية الطوبية تشبه هياكل الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين في جميع المسائل الفنية الهامة . ان المصري كان ، حتى في لوحة نارمر ، يستعمل النماذج الفنية الشائعة في بلاد ما بين النهرين . حتى ان الكتابة يبدو انها كانت نتيجة تعرفهم بكتابة ما بين النهرين في نهاية الفترة الشبيهة بالكتابية .

لقد تناولنا هذه القضايا في ملحق من هذا الكتاب . ومع انه اكيد ان الاتصال وقع بين المركزين العظيمين في الشرق الأدنى فانه لم يؤثر في الميدان الاجتماعي والسياسي الذي نعنى به هنا . وبالفعل اذا اعدنا النظر في الدلائل والاثباتات التي عرضنا لها في هذا الفصل نجد ان الطابع الاصيل للتطور كان طابعاً مصرياً لا ريب فيه . والتكوين الاساسي للمجتمع الذي نشأ كان على عكس ما ظهر عليه في ما بين النهرين تماماً . ففي مصر لم يؤد التغير العظيم الى تركيز النشاط الاجتماعي في المراكز المدنية . صحيح انه كانت في مصر مدن ، لكنها باستثناء العاصمة لم تكن اكثر من اسواق للريف . ومن المتناقضات ان العاصمة كانت اقل استمراراً من مدن الاقاليم ذلك لأنها كانت مبدئياً تخدم عهد أسرة واحدة او عهد ملك واحد ثم تتغير . كان كل فرعون يسكن بقرب الموقع

الذي يختاره لمدفنه ، حيث كان العمل في الهرم وهيكله يستمر خلال القسم الاكبر من حياته بينما كانت الحكومة تقوم بواجبها في المدينة المجاورة . أما بعد وفاته فقد كان المكان يترك للكهنة والموظفين الذين يحافظون على عبادته ويديرون مزرعة مدفنه ، الا اذا قرر الملك الجديد مواصلة الاقامة فيها لأن الصحراء المجاورة كانت تؤمن له موقعاً مناسباً لمدفنه . حتى انه في منتصف الالف الثاني ق.م. (حين اكتسبت طيبة طابع العاصمة) لم يكن لمصر عاصمة ثابتة حقاً . وهذا وضع يثبت بوضوح الدور القيم الذي لعبته فكرة المدينة في التفكير السياسي عند المصريين[1] . اما في ما بين النهرين من الجهة الثانية فان اقوى حكام البلاد كانوا يسمون انفسهم حكاماً للمدن ويقومون بوظائفهم داخل هذا الاطار في اكاد او أور وفي بابل او اشور .

والفروق في النظام الاجتماعي والمبادىء المختلفة للملكية يمكن أن تنظر اليها مترابطة . فالمدينة كشكل نهائي للتنظيم السياسي لا يمكن تصورها بدون حاكم يبقى بالفعل واحداً بين كثيرين . ومقابل ذلك كانت السلطة المطلقة تستدعي مملكة موحدة . فنحن اذن لم نحد عن موضوعنا حين ناقشنا في هذا الفصل اصل الاساطير والطقوس الملكية في عهد مينس . وكذلك لم تكن دراستنا للحضارة المصرية بمعاونة النصب التذكارية الملكية ناجمة عن مجرد اكتشاف هذه الآثار اذ ان الفرعون كان يرمز للمجموعة في نواحيها الزمنية

---

(١) وقد أصبح الطابع الريفي للدولة المصرية ظاهراً ايضاً في عهود الصراع الداخلي . والحروب بين دول مدن سومر وجدت ما يشبهها في مصر في المنازعات التي يبدو فيها ان أجزاء كبيرة من وادي النيل اتحدت تحت زعماء متنافسين . ومثل ذلك أن عائلة طيبية من آل الانتف والمنشوحوتب تزعمت مصر العليا ضد البيت المالك القاطن في هيراقليوبوليس . وكذلك آل كاموس او احموس الذين قادوا طيبة أولاً ثم وادي النيل كله ضد الهكسوس الأجانب في الدلتا .

والروحية ، ولأن الحياة المتحضرة عنـــد المصريين كانت تتركز حول الملك المقدس .

وينبغي لنا الآن ان ننهي بحثنا عن نشوء المجتمع الملكي في مصر بوصف حقيقي ملموس . كانت ادارة البلاد تقوم [1] على مبدأ تفويض السلطة الملكية. كان الفرعون المصدر الحي للقانون ، وكان يحكم بمراسيم توضع موضع التنفيــذ كأنها قرارات موحى بها [2] . فمنذ زمن قديم اكتسبت الحكومة طابعاً ابويــاً أو بطريركياً وكان الابنــــاء والاقارب الادنون الآخرون للفرعون يعملون مستشارين ومعاونين رئيسيين له . أما الأقارب الأبعدون وأبنـــاء الحكام السابقين فكانوا في مراكز حكومية ثانوية . وفي البداية لم يكن هنالك وزير واحد يحتل مركزاً بين الملك والفروع المختلفة للادارة اذ لم يكن هنالك رئيس وزراء . اما في عهد الاسرة الرابعة فقد ادخلت الوزارة كقمة للبيروقراطية ، غير ان الذي كان يشغل هذه الوظيفة كان أميراً يمت الى الفرعون بقرابة النسب.

حتى ان الملك في الأزمنة المتأخرة كان يحتفظ لنفسه بصلاحيات معينــــة

---

(١) ويمكن لنا ان نلاحظ عرضاً ان اسس الادارة الرسمية وطدت في ظل الاسرة الاولى. وتحمل الاختام الاسطوانية لتلك الفترة (الرسمان ٣٥ – ٣٦) عناوين الموظفين (ولعلهــا اسماؤهم) وكان تسليم ختم اسطواني للموظف بمثابة تثبيت له في وظيفته . واللفظة (s h w,) التي تترجم عادة « بالنبيل » تعني في الحقيقة « ذلك الذي يملك ختم الوظيفـة » وبكلام آخر موظفاً كبيراً .

(٢) وقد يكون هذا سبباً اضافياً لشدة ندرة الوثائق القانونية والاداريـــة . اما السبب الاساسي فهو الطبيعة التي تقضي على مواد الكتابة المصرية – الجلد والبردى . اما حينما يكون قرار الملك هو مصدر القانون فان الحاجة للمجموعات القانونية والسنن تقل كثيراً (انظر كتابي عن « الديانة المصرية القديمة » صفحة ٤٣ – ٤٦) . وفي كل حال اضطرتنا قلة الوثائق الخطية لأن ندرج في هذا الفصل الاثباتات والادلة التي تحدرت الينا من عصور مختلفة اكثر مما فعلنا في وصفنا بلاد ما بين النهرين . لقد حاولنا أن نؤكد مميزات المجتمع التي نعتقد انها كانت موجودة منذ البداية ، والتي ظلت ثابتة الى حـد معقول . لكننا ندرك خطر تشويه رسمنـا للاحوال السائدة في القسم الاول من الالف الثالث ق.م.

كفرض عقوبة الموت وبتر الاعضاء . وكان يجتمع بالوزير كل صباح ليرفع له هذا تقريراً عن حالة البلاد . ومع ذلك فان سلطة الوزير في المبادرة كانت عظيمة . فانه كان القاضي الاعلى ، وكان رئيس السجلات ، وبالفعل كان رئيساً لكل دائرة حكومية . وكان رسله يتجولون في البلاد لينقلوا أوامره الى المديرين المحليين ويرفعوا له التقارير عن الاحوال التي يشاهدونها . ومن ألقابه أنه « ذلك الذي يرفع اليه كل ما يجري وما ليس يجري » . وبسبب اهمية الزراعة للدولة فقد كانت كل معاملة تتعلق بالارض تسجل في مكتب الوزير . وبعد الاسرة السادسة اصبح الوزير ، لاسباب عملية في الغالب ، « عمدة المدينة » أي الرئيس والحاكم العسكري للمسكن الملكي .

كانت الادارة التي تعمل تحت اشراف الوزير مقسمة الى دوائر كثيرة . أولها المالية برئاسة « خازن الله (أي الملك) » وهي المستودع المركزي لجميع الضرائب والمستحقات للدولة . ونظراً للشكل المثالي للمملكة المزدوجة فقد كانت تدعى « البيتان الابيضان » لكنه لم يكن في الواقع اي انقسام . كان لها فروع ذات مخازن في كافة انحاء البلاد حيث تجمع المستحقات ومن حيث تمون الخزانة المركزية . كانت الادارة مركزية الى درجة عالية ، ولم يكن الخازن مسؤولاً عن جمع المحصول المحلي المدفوع كضرائب وتصريفه وحسب ، بل كان مسؤولاً ايضاً عن الحملات الملكية التي كانت تجلب كما سنرى المواد الخام كالنحاس والخشب والذهب من الخارج . لذلك كان يحمل بعض الاحيان لقب « قائد » أو « أميرال » وكانت له تحت تصرفه جيوش وسفن .

والدائرة الهامة الثانية كانت وزارة الزراعة التي كان فيها رئيس الحقول يتصرف بالقضايا الزراعية المحضة بينما كان سيد الهبات (الملكية) يعنى بكل ما يتعلق بالحيوانات .

ولم تكن هذه الدوائر مفصولة فصلاً دقيقاً . فقد كان الموظف الاداري

في حياته الادارية يتقلد وظائف مختلفة متنقلاً من ادارة الى اخرى ماراً احياناً في مختلف انواعها حتى الوظائف المحلية منها . فالشباب ذوو الكفاءات او ابناء اولئك الذين يثق بهم الملك أو يفضلهم على سواهم كانوا يربون في البلاط الملكي فيكتسبون خبرة ادارية بالمرور في مراكز متتالية يملأونها بمعاونة الكتبة الاكفاء في الدوائر ذات العلاقة . فقد كان ميثن (من الاسرة الرابعة) من السلالة الملكية وعمل على التوالي كاتباً للخازن ، ثم طبيباً ، ثم رئيس اقليم ، وقاضياً ، ومفتشاً على اقطان الملك حتى انتهى به الامر الى أن اصبح حاكم ولاية . وفي هذا المركز الاخير أدار ثلاث ولايات على التوالي مما يثبت ان الادارة كانت مستقلة عن الاعيان المحليين . وفي نهاية المملكة القديمة كان الولاة قد حققوا نوعاً من الديمومة بأن حصلوا بانتظام على تعيين ابنائهم خلفاء لهم في وظائفهم ، وهكذا اصبحوا على مر الزمن اشرافاً ذوي اقطاع . وعلى كل حال كانوا في البداية موظفين ملكيين ينقلون من مركز الى آخر بدون ان يتمتعوا بمظهر استقلال او بروابط محلية . كانت علاقاتهم ومصالحهم — كتلك التي لجميع الموظفين ــ مرتبطة بالبلاط . وقد بقي ميثن حتى النهاية « سيد صيد الملك » وهذا منصب بلاطي محض .

ولم تكن دوائر الحكومة الكثيرة ولا الادارات المركزية او المحلية محددة بوضوح . وقد ظلت حدودها غامضة حتى النهاية . فقد قيل مثلاً [١] ان الجزية من الخارج ، في ظل المملكة الجديدة ، يمكن استلامها عند وصولها الى مصر بواسطة « خازن الاله » كرئيس للخزانة « ومفتش الخزانة » معاونه ، وبواسطة موظفي الخزانة الادنين وبواسطة الوزير وكبار القواد العسكريين أو بواسطة رئيس كهنة امون . وهذه الميوعة في الاختصاص ترجع الى حقيقة هي ان كل السلطة كانت سلطة ملكية مفوضة ولذلك كانت شاملة في طبيعتها . وكذلك

---

(١) كيز Kees – تاريخ الثقافة صفحة ٢١٠ .

كان الابهام في الفصل بين السلطات المركزية والمحلية فانه عندما اصدر سيتي الاول (الاسرة التاسعة عشرة) قراراً يقضي بأن يستلم هيكل عبيدوس شحناته من الذهب النوبي بدون أن تخضع للضرائب والمكوس الاخرى التي تفرض عادة على سفن الترانزيت كان عليه ان يوجه قراره الى اثنتي عشرة طبقة مختلفة من الموظفين مبتدئاً بالوزير ومن دونه الى « عمد المخيمات ومراقبيها في مصر العليا والسفلى ... وكل مراقب ينتمي الى ارض الملك ، وكل شخص مرسل ببعثة ما الى النوبة »[1] . لأن الضباط المحليين كضباط الحكومة المركزية يمثلون الفرعون . وهذا حاكم في عهد الاسرة الخامسة اسمه نيسو تنيفر[2] يميز بألقابه « كزعيم للبلاد » (أي الولاية) . ولعل هذا يعني انه كان رئيس ادارة الولاية في جميع فروعها . وكان أيضاً « رئيس التحصينات » مما يدل على انه كان رئيس الشرطة ومسؤولاً ايضاً عن حراسة حدود ولايته ضد بدو الصحراء . وكان « حاكم شعب الملك » أي الاقنان والمرابعين والحجاب والوكلاء والمهنيين والكتبة وصيادي الأسماك الخ ... المستخدمين في اراضي الملك داخل ولايته سواء أكانوا احراراً أم عبيداً . واخيراً كان يدعى « رئيس الأركان » مما يعني ان الاوامر من الملك او الوزير كانت تصل اليه وانه كان مسؤولاً عن تنفيذها في ولايته .

وفي هؤلاء الولاة نجد عنصراً متناهي الخطورة على وحدة الدولة . ففي ظل المملكة القديمة لم تقم في البداية اية مقاومة للملك . وقد نقل نيسو تنيفر الذي وصفنا وظيفته آنفاً مرتين الى ولاية اخرى . الا ان الملوك كانوا يكافئون خدامهم الامناء بهبات من الارض . وفي الوقت نفسه كان الموظفون يلحون على تعيينات وراثية ، لكن هذا المطلب لم يعترف به بصورة رسمية ، غير ان

---

(١) مجلة الاركيولوجيا المصرية عدد ١٣ سنة ١٩٢٧ صفحة ٢٠٠ .

(٢) يونكر - الجيزة ٣ فينا ١٩٣٨ صفحة ١٧٢ وما بعدها .

السماح لابن ان يخلف أباه كان في الواقع ذا فائدة لان اخلاص صاحب الوظيفة يصبح امراً مضموناً عند ذلك ، ولأن خلفه كان لا بــد له من الحصول على تدريب مهني في منتهى العناية . ولذلك فان التيارين مع مرور الزمن معاً عدّلا العلاقة بين كبار الموظفين والملك . فالمراكز والاملاك الوراثيــة جعلت من الموظفين طبقة اقطاعية لم يعد أفرادها يعتمدون كلياً على عملهم في البلاط [١] ، مع ان الفرعون ، ما دامت سلطته المركزية قوية ، كان يستطيــع ان يلغي كل الحقوق بشأن الارض او الوظيفة عندما يشاء . ومع ذلك فانه عندمـا انهارت الادارة المركزيـة تماماً عند نهايــة حكم الاسرة السادسة ، كان الملاكون الوراثيون في مركز بحيث استطاعوا ان يتحملوا مسؤولية المحافظة على الحكم والنظام في مناطقهم . وتحولت قصور اقطاعاتهم الى بلاطات ملكية مصغرة . كان هذا الوضع مناقضاً لكل مبدأ وواقع اصلي للحكومة ، ولذلك لم يطـل اكثر من فترة الاضطراب . فقد استعاد ملوك الاسرة الثانيــة عشرة مركز الحكومة المركزية وهيبتها .

ولنا ان نكوّن فكرة واضحة لعقلية الموظف المصري مــن نصوص كثيرة تحدد سلوكه . كان الموظف المثالي « رجلاً صامتاً » محترماً للسلطة القائمةوعادلاً لأن « معت » (Maat) (التي تعني الحق والعدل والبر) جزء من ذلك النظام الدنيوي الذي يتزعمه سيده الملك . وهذا الرجل الصامت [٢] اذن ليس ذلك المتألم الخانع لكنه ذلك الرجل الحكيم المالك لنفسه الحسن التكيف ، المتواضع والمتجاهل لنفسه الى حد بعيد ، مع انه ذو روية وحزم في ادراكه انه منسجم تمام الانسجام مع العالم الذي يعيش فيه .

---

(١) كان التغير بطيئاً فقد رأى ميثن (الذي سردنا سيرته تحت الاسرة الرابعة) فائدة في ان يسجل في مدفنه امتلاكه ، لا مزرعة كبيرة ، بل مقراً ريفياً مساحته حوالي فدانـين ونصف الفدان ومعه حديقة فيها كروم وتين واشجار اخرى مفيدة وبركة ماء .

(٢) ه . فرانكفورت – الديانة المصرية القديمة – نيويورك ١٩٤٨ – الفصل الثالث .

غير اننا لا نستطيع ان نكون فكرة واضحة مماثلة للشعب العادي في مصر. وبما انهم كانوا اميين فاننا نتعرف اليهم بواسطة الوصف الذي تحدر الينا من مدارس الكتبة لحياة الريف . وهؤلاء متحيزون يتغنون بحسنات العمل «الهين» تشجيعاً للطلبة المنهمكين في واجب شاق لتعلم الكتابة . وبالرغم من المجاملة الناعمة التي تظهر في هذه النصوص والرضى الظاهر الذي وجد له تعبيراً عند الكتبة في الهزء من كل عمل سوى عملهم ، فان القسم المتعلق بالفلاحين يستحق النقل لأنه يصرر لنا تصويراً حسناً نصيب المزارع تحت المدراء الفاسدين ، او غير الاكفاء :

« الا تذكر حالة الفلاح الذي يقف أمام الجابي الذي اتاه لتسجيل ضريبة الحصاد عندما اخذت الحية نصف الحبوب وابتلع فرس البحر البقية ؟ الفئران كثيرة في الحقول . والجراد قادم . الماشية تأكل وعصافير الدوري تجلب الكارثة للفلاح . والبقية التي هي على البيدر على وشك النفاد لسقوطها بأيدي اللصوص . ان قيمة الماشية المأجورة (؟) مفقودة كما ان زوج الثيران قد مات اثناء الدراس والحراثة .

« ثم يهبط الكاتب الى شاطىء النهر وهو على اهبة تسجيل ضريبة الحصاد . الحجاب يحملون الدفوف والنوبيون (الشرطة) يحملون قضبان النخل ويقولون « سلم الحبوب » مع انه لا وجود لأي شيء منها . يضرب الفلاح في كل انحاء جسمه . ويوثق ويرمى في بئر ، ويغطس ، ويوضع رأسه الى تحت . وتكون زوجته قد اوثقت بحضوره بينما اولاده في القيود . أما جيرانه فيتخلون عنه ويولون هرباً »[1] .

---

(١) غاردينر (Gardiner) في مجلة الاركيولوجيا المصرية عدد ٢٧ عام ١٩٤١ صفحة ١٩ .

ولو ان مثل هذه القسوة كانت القاعدة العامة لما امكن ، كما هو واضح ، للمجتمع المصري ان يدوم. ان الزراعيين يقعون حتماً ضحية المصائب والكوارث بين الفترة والأخرى لأنهم يعتمدون على الطقس والماء . أما إذا توالت الكوارث واحدة بعد الأخرى بكثرة ، او إذا تجاوز ظلم اصحاب السلطة حداً معيناً ، فليس للفلاح اي باعث او حافز على الاستمرار في شغله . فاما ان يهرب أو أن يثور . لقد رأينا لماذا تؤكد النصوص المستعملة في مدارس الكتبة الجانب المظلم من نصيب الفلاح . وفوق هذا ينبغي علينا ان نذكر ان الحياة العادية المملة لسكان الريف ليس فيها اية متعة للمثقفين . ان الترضيات البدائية في الحياة المرتبطة بالطبيعة ، ولعبتها الخبيثة باخفاء فوائدها عن البيروقراطيين ، وتحملها القاسي للظلم ، والقدرة الكامنة على عدم الاستغناء عنها – كل ذلك لم يكن كافياً في مدّ مدارس الكتبة بمادة لمصنفاتهم الزاهية التي كانوا يفاخرون بها .

وكان الواقع عكس ذلك مع النحاتين والرسامين . فان هؤلاء الرجال المكلفين بأن يصوروا على جدران المدافن الكبيرة النشاطات الريفية المتعددة التي منها يستمد [1] المالك في العالم الثاني ، كما في هذا العالم ، ما يقيم به اوده ، قد مثلوها رسماً في منتهى المتعة والحيوية . وعملهم هذا (الرسمان ٢٩ و ٣٠) يصور لنا شعباً مرحاً خفيف الظل ، يشبه في نواح كثيرة الفلاحين المعاصرين الذين لا يزالون يعيشون مثلهم . وفي المدافن نرى صيادي اسماك ورعاة يقومون بواجباتهم ، ويتمازحون بعضهم مع بعض (حتى ان الكلمات مرسومة على صورهم احياناً) ويتحرك الحصادون في صف ، محركين مناجلهم بانسجام على لحن اغنية يعزف لهم موسيقاها رجل معه زمارة

---

(١) هذا تبسيط زائد لوصف اهمية مشاهد الحياة اليومية التي وجدت في المدافن . ومن أجل معالجة اكثر نفاذاً للموضوع انظر هـ .ا. غرونيفن – فرانكفورت – « الجمود والحركة » . صفحة ٢٨ – ٤٤ .

طويلة من قصب (رسم ٢٩)[١] والنساء يجلبن الطعام لرجالهن، وفتاتان صغيرتان تتنازعان بينما تقلع ثالثة شوكة من قدم صديقتها ، وراع يغفـــو تحت شجرة ، وكلبه نائم الى جانبه (رسم ٣٠) [٢] ، وراع آخر يطفىء عطشه من زجاجة مصنوعة من جلد ماعز .

ولا يبدو ان احداً من هؤلاء الناس كان حراً ، ولم يكن اي فرد مصري

---

(١) ان الرسم ٢٩ رسم نافر من رسوم المملكة القديمـة ويبين في السجل الاعلى ، الحصادين ومعهم مناجلهم والى اقصى اليسار وكيل ... ويعزف الشخص الثالث من الشمال على زمـــارة طويلة ، بينما يغني رفيقه واضعاً يده على خده كما يفعل المغنون الشرقيون الى اليوم . وفي السجل الثاني يجلب الحمير لنقل الحصاد الى المستودع ، ويصور السجل الادنى حوادث متعددة اثناء النقل. أما السجل الاسفل فيصور كيف كانت الحزم تصفف .

(٢) اما الرسم الثلاثون ، وهو رسم حائطي من المملكة الجديدة ، فالافضل ان يقرأ من تحت الى فوق . ففي الزاوية السفلى اليسرى ثيران تجر المحاريث بينما يبذر الزراعون الحاملون أكياس البذار ، الحبوب بايد مرفوعة . وبعد ذلك الى اليمين ، يبدو ان الرجال يشقون الارض بالمحراث الخشبي . ووراء الثلاثة الظاهرين الى اليمين نرى فتاة تقلع شوكة من قدم صديقتهـــا . ويصور السجل الثاني من تحت الحبوب وهي تقطع احد العمال يتناول جرعة من الماء من ابريق تعطيه له فتاة واقفة الى الامام والسلة متدلية من كتفها. وابعد الى اليمين تحمل الحبوب في قفف (وتحت احداها بنتان تعفران الارض وتختصمان وتشد الواحـدة بشعر الاخرى) والى اليمين البعيد توزع الاغمار بمذراة اعداداً للدراس. ويجري الدراس بواسطة الثيران التي تدوس الحبوب — وهذا ظاهر الى اقصى اليمين في السجـــل الثالث من تحت . والى اليسار تذري النساء الحبوب وشعورهن ملفوفة بقماش ابيض اتقاء للغبار . وصاحب المدفن يراقب ذلك من كشك وهو يتناول ابريقين من الماء . ووراء الكشك يجلس الكتبة القرفصاء ويسجلون غلة الحصاد بينما تجمع الحبوب في اكوام .

ويرينا السجل الاعلى الموظف بصفته « كاتب حقول سيد البلدين » . والى اليسار نرى جماعة من موظفيه لابسين الابيض والحقائب في ايديهم منهمكين في تقدير الحبوب وهي بعد في التبن، وخدمهم (باجسام عارية) يمسكون بالحبل الذي تقاس به العرمة . اما الفلاح (الذي تتبعـــه زوجته حاملة سلة على رأسها وفيها هدايا اخرى) فانه يقدم بعض الاشيـــاء لموظفي الضرائب ليستعطفهم . اما الى اليمين ، قدام كشك صاحب المدفن ، وقرب مرسى الزورق الذي نقـــل مساعديه الى المكان فاننا نرى فلاحاً يضرب لانه عجز فيما يبدو عن دفع ما عليـه بينما يركع آخر مسترحماً .

حراً بالمعنى الذي نفهمه للكلمة . ولم يكن اي فرد يستطيع أن يشك في سلطة دينية تنتهي عند اله حي . لكنه يجدر بنا ألا ننسى ان عكس الحرية ، اي عزل الفرد الذي يتمتع او لا يتمتع بحقوق لا تنكر ، كان أيضاً معدوماً في مصر . والعبودية تفقد الكثير من رائحتها الكريهة اذا رست السلطة على الذين منحهم الايمان القدرة على حفظ وجود المجتمع . وبالاضافة الى هذا ، فاذا صح ان الجميع كانوا تحت تصرف الحاكم الالهي وموظفيه ، فانه صحيح ايضاً ان الشخص الادنى يستطيع ان يستأنف اليه [1] ، ويطالب بما هو « حق» — معت (العدالة والصواب والحق) الذي هو صفة من صفات الحاكم والآلهة الاخرى التي تبلغها ، أو يفترض انها تبلغها ،موظفيها .

ولم يكن هنالك طبقات منبوذة بل كان بوسع اناس من اصل وضيع أن يرتفعوا إلى اسمى المراكز . وسيرة « اوني » الذي كان في خدمة ثلاثة ملوك متتالين من الاسرة السادسة تبين انه باستطاعة حتى أصغر الموظفين ، وبدون اقارب متنفذين ، ان يرتقي إلى أرقى المراكز عندما يعترف بمقدرته ونزاهته . لم يكن الموهوبون والنشيطون يحاربون للفارق الطبيعي الصارم ولا للفارق اللوني . ويمكن للنوبي الذي يدعو نفسه بصراحة بالبانيهيسي ، أي « النوبي » أو « الزنجي » أن يحتل أعلى المراكز . كان الرجال المتعلمون يعينون من قبل الفرعون في اي مركز يراه مناسباً لهم . وكان العامة في الغالب مقيدين بالأرض التي يحرثونها لمعيشتهم وللمحافظة على الدولة . ولسنا نعلم ما اذا كانوا اقنانا ام لا ، لكننا نعلم انه كان عليهم ان يقدموا نسبة كبيرة من منتوجهم كضريبة ، وكانوا معرضين لاعمال السخرة . كان قسم من الشباب في كل القرى والمزارع

---

(١) « الفلاح البليغ » حكاية عن مثل الاستغاثة . انظر مجلة الاركيولوجيا المصرية عدد ٩ سنة ١٩٢٣ صفحة ٧ وما بعدها . وانظر بحثاً قصيراً في كتابي « الديانة المصرية القديمة » صفحة ١٤٦ — ١٥٠ . ولاجل فكرة « معت » انظر نفس المصدر صفحة ٤٩ — ٥٨ .

يجند للجيش الذي كان في الحقيقة ميليشيا ، غير انهم كانوا في اكثر الاحيان جماعات من العمال المعدين للقيام بجميع انواع الاشغال العامة . هذا هو «الجيش» الذي كان يرسل للعمل في المقالع والتعدين وحفر الاقنية وبناء الهيا كل والمدافن الملكية . واذا طرأت حاجة اضافية لتنفيذ واجبات خاصـــة أو للاسراع في الاعمال الجارية ، فانه يمكن تجنيد السكان جميعاً . مثال ذلك ان عدد الرجال اللازمين لبناء الاهرامات ارتفع الى عدة الوف . ومحتمل ان قاطعي الحجـارة وورشاتهم من المساعدين غير الفنيين ظلوا يشتغلون باستمرار في المقالع ، كما ظل البناؤون وعمالهم يعملون في مراكزهم . اما اثناء الفيضان فقد كانت تجند فرق خاصة لنقل الحجارة من طرة على الضفة الشرقية إلى الجيزة او سقارة على الضفة الغربية من النيل . ولهذه الغاية كان من المناسب أثناء الصيف عندمـــا تغمر المياه الأرض الصالحة للزراعة ، ان يتوقف العمل الزراعي تماماً اذ ان المياه التي تغطي الحقول كانت تسهل النقل إلى سفح الهضبة الصحراوية بالذات [1] .

ولدينا بعض الوثائق عن حياة هؤلاء العمال . وهناك ثلاثة أمكنة معروفة حيث كان العمال يسكنون . وبقرب هرم خفرع في الجيزة ، تقوم حول البلاط ثكنات واسعة مؤلفة من ٩١ رواقاً ، طول الواحد منها ٨٨ قدماً وعرضه تسعة اقدام ونصف القدم وارتفاعه سبعة اقدام . وقد قدر العالم بالآثار المصرية بتري (Petrie) انها تتسع لأربعة آلاف رجل . وبقرب هرم سنوسرت الثـــاني في لاهون تقوم مدينة مسورة تغطي قطعة ارض مساحتها تسعمايـــة قدم بالف ومايتي قدم . وفي تل العمارنة قرب المجموعة الشمالية من المدافن الصخرية قرية مسورة مساحتها ٢١٠ اقدام ب ٢١٠ اقدام (رسم ٣١) [2] وهندسة هـــذه

---

(١) ولاجل مناقشة مفصلة لبناء الاهرام انظر ا.ا.س. ادواردز (I. E. S. Edwards) «اهرامات مصر». طبعة بليكان فصل ٧ .

(٢) ت. اريك بيت (T. Eric Peet) وليونارد وولي – « مدينة اخناتون» . جزء اول – المذكرة الثامنة والثلاثون لجمعية الاكتشافات المصرية – لندن ١٩٢٣ .

القرى تبعث في النفس الملل اذ ان المنازل فيها متشابهـــة مبنية ظهراً لظهر في شوارع مستقيمة . ويتألف كل منزل من ساحة للمطبخ وللمشغل ومن غرفة وسطى للجلوس ، وغرفتين صغيرتين في الوراء للنوم وللجدار السور باب واحـد فقط ينفتح على مربع حيث كانوا يجمعون العَمَلَـة فيه قبل نقلهم الى أماكن عملهم. وعند طرف المربـع الذي تقوم عليه القرية بيت كبير للوكيل او القائد. ووصفنا المساكن بهذا الشكل يعطي القارىء فكرة بأنها كانت مستعمرة او سجناً للعقاب . ولكن المرء عندما يزور الموقع او يقرأ تقرير الحفريات بشيء من العناية ، تتغير فكرته هذه . يتعجب المرء للتنوعات التي يلاحظها وهـــو يتنقل من بيت الى بيت . فمع ان المخططات واحدة فان الساكنين قد ادخلوا تغييرات كثيرة لتلائم حاجاتهم واذواقهم الفردية . والترتيبات الداخلية قل ان تكون واحدة . كما ان الاشياء الموجودة في المنـازل تدل على تنوع كبير ولا توحي بالفقر او الكآبـة . وفي احدى الغرف اكتشف افريز مرح مدهون من الرسوم الراقصة للاله بيس، الإله العبقري الشعبي للموسيقى والحب.ان مثل هذه القرى تترك في نفوسنا انطباعاً واضحاً من أن الحرية لم تكن معدومة في منازلهم وان الاستعباد لم يفقدهم مرحهم .

وطبيعي ان يكون لهذا النظام سيئات . فان القرارات الملكية التي كانت تعفي اشخاص معابد معينة من اعمال السخرة والجندية كانت تحمي بوضوح هؤلاء الرجال ضد النقل الى امكنـــة اخرى في البلاد . ويتضح من ذلك ان الناس العاديين كانوا معرضين لمثل هذا الخطر . كان الرجل النكرة يعتمد على حمايـة رجل ذي نفوذ له او قد يصبح مولى له اذا لم يكن قد اصبح واحداً من عبيده . اننا لا نستطيع تمييز درجات العبودية في ذلك الزمن السحيق . وقد اشير الى أن الارض الفضلى من المزارع الكبيرة كانت تحرث بواسطـــة الاقنان بينما كانت الحقول الأقل انتاجاً تؤجر للفلاحين الذين كانوا يدفعون اجراً معيناً من الانتاج . لكن هذه الفئات لم تكن متميزة بوضوح . الا أن الارقاء المتميزين عن الاقنان ،

لم يكونوا يلعبون دوراً هاماً في الاقتصاد المصري . ومن المشكوك فيه انهم كانوا يقتنون الارقاء قبل عهد المملكة الجديدة[1] . وفي ذلك الزمن كانت الحملات على سوريا تسفر عن عدد كبير من الاسرى الذين كانوا يستخدمونهم في الهيكل وفي الأراضي الملكية وفي بعض المقالع الحجرية . وربما كان الاسرى النوبيون في الأزمنة القديمة يستخدمون بين الفترة والاخرى ، لكن مثل هؤلاء الارقاء المعزولين كانوا يخدمون في المنازل او في البلاط كرقيق بيتي وكمسلّين وكراقصين او كموسيقيين ، وكانوا يسكنون (كما يبدو) كالخدم الآخرين . وقد زعم بعضهم[2] ان انتاج الحبوب الناجح يتطلب من جانب المزارع رغبة شخصية تعوز العمال الارقاء .

كان المهنيون ايضاً يخدمون عادة احد الاسياد ، وكان عدد كبير منهم يعمل في خدمة الملك . ونحن نعلم بالفعل ان البلاد كانت تُستنزَف من أهل المواهب لصالح القصر الملكي . ومقابر قاو الكبير – مدافن مصر الوسطى التي استخدمت طيلة الالف الثالث – تبين المستوى الادنى من المعدات ، وهي من أردأ انواع الصناعة خلال فترة ازدهار المملكة القديمة حين كانت الاهرامات تشيد . وعندما انهارت الحكومة المركزية في الفترة الوسطى الاولى كانت موجودات المدافن في قاو قد ازدادت جودة ونوعاً . وواضح ان المهنيين عندما كانوا يعملون في خدمة البلاط لم يكونوا عمالاً احراراً يبيعون خزفهم او خدماتهم حيث يشاؤون . ولكن ينبغي لنا مرة اخرى ان نتحاشى المبالغة في ذكر ما كان ينالهم من ضيم ، فانهم لم يكونوا ارقاء . ويصدف مثلاً اننا نعلم بعض الشيء عن مصانع الكتان الواسعة عند الفرعون . ففي عهد الاسرة

---

(١) غاردنر في Zeitschrift fur Aegyptische Sprache عدد ٤٣ ، سنة ١٩٠٦ صفحة ٤٣ .

(٢) ماكس وبر (Max Weber) Gesammelte Aufsatze zur Sozial und Wirtschaftsgeschichte طوبنغن ١٩٢٤ صفحة ٢٤ .

السادسة قامت في الشمال مؤسسة حياكة ملكية تحت ارادة رجل اسمه سينيب ، القزم الذي صعد من الصفوف الدنيا وتزوج امرأة من طبقة « النسب الملكي » ، واستطاع ان يبني لنفسه في الجيزة مدفناً رائعاً منه استقينا معلوماتنا[1] . يصف لنا احد المشاهد في هـذا المدفن اعطاء المكافآت الى معاوني سينيب[2] حيث نراهم يتلقون عصائب الرأس والعقود . ولهذا مغزاه الكبير ، لأن هـذه الحلى تشبه في شكلها الذهب الذي كان الفرعون يكرم به الموظفين من ذوي المواهب الخاصة . ولنفترض ان المجوهرات التي كان الحياكون يكافأون بها كانت أقل قيمة وانها كانت مصنوعة من البرونز والخزف الجيـد ، فان مغزاها واضح وذلك ان المكافأة لم تكن ابداً اجراً بـل نوعاً من الهبة التي كان استلامها شرفاً . ومما يجب ملاحظته ان مستلمي هذه الهدايا المصورين في مدفن سينيب لم يكونوا كلهم وكلاء ومراقبين ، بل كانوا ايضاً رجالاً ونساء ذكرت اسماؤهم بغير القاب مما يجعلنا نفترض انهم كانوا حياكين بسطاء .

وكان المهنيون ايضاً يعمـلون للموظفين في الاقطاعات الكبيرة التي ظهرت حوالي آخر عهـد المملكة القديمة ، وهذه الاقطاعات ، كالممتلكات الملكية ومزارع الهياكل في الازمنة المتأخرة ، كانت وحدات اقتصادية مستقلة . كان لكل واحدة مثلاً ارصفتها الخاصة حيث تبنى الزوارق النيليـة وترمم . ولم تكن هذه الزوارق من النوع البسيط الذي كان يستخدم لعبر النيـل وحسب وانما كانت زوارق تستخدم في شتى انواع المواصلات المائيـة التي كان المالك يقوم بها في رحلاته الطويلة وفي نقل الحبوب والماشية والمستحقات الاخرى لمخازن المالية . ثم انها كانت تستخدم ، فوق ذلك ، لشحن المؤونـة الى المؤسسات المدفنية لاعضاء العائلة السابقين الذين قد يكونون مدفونين قرب ممفيس في مدفن

---

(١) يونكر – الجيزة الجزء الخامس – فينا ١٩٤١ .

(٢) نفس المصدر صفحة ٥٢ وما بعدها .

ملكي . وعندما ادى اضعاف السلطة المركزية ، كما ذكرنا آنفاً ، ونشوء الاقطاعيين العقاريين في نفس الوقت الى ازدياد عدد كبار الموظفين الذين يدفنون في مدافن محفورة في الصخور قرب اقطاعاتهم في الولايات ، كان البناؤون والنجارون والجواهريون المستخدمون في الاقطاع يصنعون هذه المعدات. وكان هنالك بالاضافة الى ذلك ، صيادون لا يصيدون الصيد وحسب وانما كانوا يمسكون الصيد حياً ليسمنوه للمائدة . وهنالك انواع كثيرة من الماعز والرهو ، حتى الضبع ، تصاد وتسمن بالطريقة ذاتها . وكان صيادو الاسماك ومربو الدواجن يستخدمون ايضاً ، لأن الاوز والبط البري ، المسمن في الزرائب ، كان يستهلك باعداد كبيرة . وكان السمك يجفف ويحفظ لكنه كان في الغالب يستعمل كمؤونة للعمال .

أما فيما يتعلق بالمزارعين ، سواء اعملوا في الاقطاعات الخاصة ، أم للهيكل ، أم في الممتلكات الملكية ، فقد كان عليهم ان يدفعوا ضرائب من انواع متعددة . وكانت الدساكر والقرى مسؤولة جملة بشخص رئيسها . وكان على هذا الرئيس ان يقدم المبالغ المفروضة في يوم الحساب تحت خطر الضرب ، وكان المهنيون ايضاً منظمين فرقاً من خمسة رجال او عشرة تحت وكيل يتسلم مخصصاتهم من الطعام والألبسة والمواد الخام ، هو مسؤول عن عملهم . وهنالك جماعات مماثلة من الرجال العاملين في فترات شهرية تقوم بوظيفة « كهنة الساعة » في الهياكل وفي معابد الوفيات . وعندما يتسلمون هذه المهمة يتسلم وكلاؤهم جدولاً بالموجودات ويعتبرون مسؤولين عن العناية بها عناية تامة .

كان الاساس المادي الذي تقوم عليه الدولة المصرية الزراعة المنظمة تنظيماً رتيباً يتمشى مع الفيضان الذي لا يتغير . واسماء الفصول الثلاثة (وكل واحد منها أربعة اشهر) التي ميزها المصريون هي « الفيضان » (من منتصف تموز حتى منتصف تشرين الثاني) و « الانبثاق » (للبذور وربما ظهور الارض من تحت الفيضان ، من منتصف تشرين الثاني حتى منتصف آذار) « والجفاف » .

والظروف التي سادت العصور السابقة للتاريخ ، والتي وصفناها في الفصل الثاني لم تتغير كثيراً اثناء المملكة القديمة . كان لا بد من استصلاح المستنقعات . وقد رأينا ان الملك الاول ، مينس ، قام بمثل هذا العمل على درجة واسعة . لكنه كان لا بد من تجفيف الوادي ، ومن توزيع مياه الفيضان الى كل الحقول . ومنذ بداية الاسرة الاولى حفظت لنا سجلات سنوية عن ارتفاع النيل . والغاية من ذلك لا يمكن ان تكون الا تأمين اساس لتقدير مداه ، وبذلك لتقدير غلة الحصاد المتوقعة . كان حفر القنوات وبناء السدود يتم على ايدي الحكومة المركزية . لكن هنالك بعض الدلائل على ان الملك كان يشجع الحكام على استصلاح الاراضي بمنحهم الحقول الجديدة التي سمح لهم ان يسكنوا فيها بعد ذلك أناساً ينتمون الى اقطاعاتهم . وفي الفترة الوسطى الاولى عندما كان على كل حاكم ان يعنى بمنطقته على افضل صورة . كتب احدهم : « امددت القرى الفقيرة في هذه الولاية بماشية ورجال من ولايات اخرى وصنعت نبلاء من اولئك الذين كانوا اقناناً في مكان آخر »[1] .

كان الفيضان السنوي بما يخلفه من طبقة غرينية مخصبة يجعل التسميد والدورة الزراعية غير ضروريين . وكانت سجلات الضرائب تفرق بين التي كانت تفرض على الأراضي المنخفضة التي كانت تغمرها المياه بانتظام ، وبين الأرض المرتفعة التي لا يغمرها الماء الا اذا كان الفيضان عالياً . كانت هذه الأرض تستخدم للرعي او للزراعة الخفيفة . ويبقى مجمل الأرض الصالحة للزراعة طرياً بعد انحصار الفيضان ويمكن ان تحرث بمعاول ومحاريث خشبية اولية . وكانت الحيوانات ، لا سيما الاغنام تستخدم لدرس البذور ، وكان لا بد من صنع هذا بسرعة بعد بروز الأرض من تحت الماء وقبل ان تصبح جافة قاسية . كان الشعير والقمح بسنابله ذات الصفوف الستة هما الموسمان الرئيسيان . والخس

(١) عن غريفيث (Griffith) « دير الغبراوي» – جزء ٢ صفحة ٣٠ .

والبصل واللوبيا والعدس كانت في الزمن القديم ، كما هي اليـــوم ، منتوجات ثانوية هامة . وكانت النباتات الخروعية تزرع للزيوت وكان القطن يزرع للكتان.

وعندما كانت مزروعات الحبوب تنمو الى ارتفاع معين كان المساحون المخمنون يأتون لتقديره للضرائب على الغلة المنتظرة (رسم ٣٠) . ثم يحصـــد بالمناجل ، ويدرس في بيدر مستدير بواسطة الحمير (وبعد ذلك بواسطة الماشية) التي تدرس السنابل . كانت النساء عـــادة يقمن بالتذرية برمي الحبوب بسلة للتذرية . وبعد ذلك يخزن في الاهراء او في مخازن بشكل خلايا النحـــل ، ثم يسلم النصيب المستحق للملك او لصاحب الارض . وللاقطاعات الكبيرة بمـــا فيها الممتلكات الملكية والهياكل ، احتياطي لسد النقص اذا ساءت المحاصيل . وكان البذار يسلف للمزارعين وكذلك كانت الثيران والحمير تعار للحراثة او النقل او تؤجر . وهناك سجلات عن ملاكين كبار كانوا يتسامحون مع المزارعين الذين يعجزون عن القيام بواجباتهم في السنوات القاسية .

لكن الضريبة لم تكن على محصول الحبوب وحسب ، فقـــد كان هنالك ضريبة على الاقنيـــة والبرك وعلى الأشجار والآبار . وكذلك كان منتوج الصناعات المنزلية وأوقات الفراغ يخضع للضريبة . كان عليهم ان يسلموا بعض منسوجاتهم وأشغالهم الجلدية وعسلهم وزيتهم وخمرهم وخضارهم وبعض صيـد صيادي الطيور والأسماك ، وبعض ما يزيد من قطعان الرعاة . ويذكر سفر التكوين في الاصحاح ٤٧ والعـــدد ٢٤ ان خمس جميع المنتوج كان يعطى للحكومة . قد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون لكنه ليس غـــير ممكن . وكان بعض القوم يدفعون كميات معينة من المنتوج بقطع النظر عن الغلة .

ومرة اخرى ، يجب ان نصحح رد الفعل الاول الذي قد يثيره وصف هذه الاحوال. ففي مصر كان العمل الفردي ثانوياً بالنسبة للقيام بالواجبات العامة . ويبدو انه بقي في الاحوال العادية مجال كاف للمبادرة الشخصية في الانتـــاج والمقايضة . ان محتويات المدافن التي يحسن بنا ان نسميها مدافن الطبقة الوسطى

الدنيا، على افضل وجه (لانه لم يسبق لنا معرفة أثر من اثار فقراء الناس)تبين لنا قدراً من المبادرة الفردية . ومما هو ذو مغزى ايضاً انه لم تقم خلال تاريخ مصر الطويل محاولات لقلب النظام القائم . وهذا يدل على ان التجربة المصرية لتنظيم المجتمع الريفي كانت على وجه العموم ناجحة . وفرض تسليم جزء من كل نوع من أنواع الانتاج قد يبدو لنا أمراً تافهاً ، لكن النقد لم يكن معروفاً ، ولا يمكن للدولة ان تعمل إلا اذا تصرفت بجميع أنواع البضائع لتموين اولئك الذين كانوا في خدمتها . واذا اساء الموظفون استعمال سلطانهم وظلموا الناس ، فان لدى الفلاحين سلاحاً فعالاً تحت تصرفهم . كانوا يهربون . وهذه كارثة لملاك الارض ، لانه يبقى خاضعاً للمستحقات العادية بالرغم من كون ارضه ارضاً مهجورة . وهذه الحالة مشروحة بايجاز في رسالة كتبها وكيل الى سيده الذي كان مسؤولاً عن ادارة ارض ملكية معينة : « هذه رسالة اخرى الى سيدي مفادها ان اثنين من عمال الارض المعدنية التابعة للفرعون والتي هي تحت سلطة سيدي ، قد هربا من وجه نفرحوتب ، رئيس الاسطبل ، لانه ضربهما . والآن هجرت الاراضي المعدنية التابعة للفرعون والتي هي تحت سلطة سيدي ، وليس من يحرثها . هذه الرسالة لاحاطة سيدي علماً بالواقع »[١] .

ولا تزال العلاقة الابوية نوعا ما بين السيد والعمال قائمة حتى اليوم في كثير من المناطق الريفية من البلدان القديمة . ويفترض انه لا بد من درجة معينة من التحكم ، إن لم نقل من الاستبداد ، عند السيد . هذا بعض امتيازاتهم لكن ازاء هذا نجد انهم يتحلون بشعور بالمسؤولية عن الارض وعن الذين يحرثونها .

لنا اذن ان نقبل التصريحات التالية التي صرح بها حاكم في مصر العليا استولى على السلطة في الفترة الوسطى الاولى على انها محتملة الوقوع :

---

(١) غاردنر – مجلة الاركيولوجيا المصرية عدد ٢٧ – ١٩٤١ صفحة ٢٢ .

« كنت أنا الذي يحسب (بدقة) مقدار استهلاك الحبوب في مصر العليا... لقد بنيت قناة لهذه المدينة عندما كانت مصر العليا في حالة سيئة ، وعندما لم يكن أحد يرى الماء ... وقد حولت الاراضي العالية الى مستنقعات وجعلت النيل يغمر الاراضي البور ... والذي كان بحاجة الى الماء كان يحصل على ماء النيل بحسب رغبته ... كان لدي وفر من حبوب مصر السفلى (الشعير) عندما كانت البلاد في ضيق . وأنا هو الذي اطعم المدينة بسخاء ، وجعلت الرجل الوضيع وزوجته يأخذان حبوب مصر السفلى (وكذلك) الارملة وابنها . وخفضت الضرائب التي وجدتها مسجلة (كمتأخرات) من عهد أبي »[1] .

وهذا حاكم آخر في مدينة التمساح في مصر العليا ، جنوب طيبة يقول :

« اطعمت « الجزيرة النهرية » (مدينة التمساح) خلال سنوات الجفاف حين كان ٤٠٠ رجل في (ضيق) هناك . لم آخذ بنت رجل ولا حقله . اقتنيت عشرة قطعان من الماعز لاعتني بها وقطيعين من الماشية وقطيعاً من الحمير . وربيت الحيوانات الصغيرة ، وحصلت على ثلاثين زورقاً من نوع آخر. واتيت بحبوب مصر العليا الى هرمونشن واسفينيس بعد ان تأمنت حاجة مدينة التمساح . وابحر حاكم طيبة عكس النهر قادماً الي (للحصول على حبوب مني) لكن مدينة التمساح لم تبحر مع التيار أو ضده (للحصول على الحبوب) إلى حاكم آخر »[2] .

ان هذه الكتابة تؤكد أهمية الحيوانات ، وقد كانت تربيتها في الدرجة الثانية من الاهمية بعد الزراعة . وقد رأينا ان موظفاً خاصاً « سيد زريبة الملك » كان مكلفاً بالاشراف عليها. وفي الازمنة القديمة ، بعكس ما هو عليه

---

(١) عن كيز (Kees) – تاريخ الثقافة ، صفحة ٤٠ .
(٢) نفس المصدر صفحة ٤١ .

اليوم كانت الاراضي المستنقعية وافرة للرعاية في الوادي ، وكانت قطعان كبيرة ترسل ايضاً الى الدلتا للمرعى في الربيع . ويذكر موظف من الاسرة السادسة الف رأس ماشية و ٧٦٠ حماراً و ٢٢٠٠ رأس ماعز وحوالي الف رأس من الاغنام على انها ملك له .

اما التجارة فقد كانت تلعب دوراً ثانوياً في اقتصاد البلاد الداخلي . وطبيعي ان يجري مقدار كبير من المقايضة بين الافراد . وهنالك اسواق كان يستبدل فيها الطعام لا سيا منتوج الحدائق ، او الطيور المصادة في الحقول ، او الاسماك بالادوات او الصنادل او العصي والعقود والانسجة او الزيوت – بالرغم من أن هذه الكماليات من البضائع كانت توزع في مكتب صاحب الاقطاع غير أنها لم تكن تكفي او تسد حاجة الناس كمية ونوعاً . وكانت المقايضة في السوق تسمح للرجل بان يكيف نصيبه من البضائع المتنوعة ليناسب ذوقه الخاص ، او لكي يتخلص من صيد او انتاج حصل عليه في وقت ما . ومثل هذه الاسواق نجدها مصورة احياناً على المدافن . ونحن نعلم ان قطع المعدن كانت قد اصبحت في المملكة القديمة تستخدم كعيارات للتقييم . كان يقال عن الشيء الهام انه يساوي كذا وكذا من الحلق . ثم بسط هذا النظام في المملكة الجديدة فأصبح يقال ان قيمة الشيء كذا وزنات (deben) من الذهب او الفضة او النحاس . وفي المملكة الجديدة ادى توثيق الصلة مع سوريا الى توفير كمية اكثر من البضائع المستوردة للتجارة . وهنالك رسم في مدفن يبين مركباً فينيقياً راسياً قرب رصيف طيبة . وقد صعد بعض البحارة الى الشاطىء وتقدموا الى الاكشاك حيث يمكن استبدال الصنادل والكتان والثمار والخضار بقوارير من الزيت او النبيذ السوري . لكن هذا النمط من التجارة ظل على هامش الاقتصاد المصري . فلا المنتوجات الداخلية ولا الواردات الرئيسية كانت توزع في الاسواق . ونحن لا نلتقي بكلمة « تاجر » حتى الالف الثاني ق. م. عندما كانت تعني موظف الهيكل المسموح له بالتجارة مع الخارج .

والمواد الخام التي كانت تعوز مصر كانت تجلب بواسطة الحملات الملكية التي تنظمها المالية (والتي كانت تضم بين اعضائها مترجمين يعاونون القادة في البلاد المختلفة) [1]. وكانت هذه الحملات على نوعين . ففي النوبة في الصحراء الشرقية والغربية ، وفي سينا ، لم يكن باستطاعة القبائل البدوية والفلاحين الفقراء ان يقاوموا المصريين باية وسيلة على الاطلاق . كان الجيش يأتي ويأخذ ما يحتاج اليه . وفي الحملات على المقالع والمعادن لم يكن العنصر العسكري في الحملة اكثر من حماية مساحة ، بينما كان القسم الرئيسي من « الجيش » (كما كان يدعى) يتألف من عمال يعاونون رهطاً من قاطعي الحجارة او المعدنين المدربين .

والنوع الآخر من الحملات كان يطلب اليه ان يأتي بالخشب من لبنان وبالبخور والمر من البنط على شاطىء الصومال . كانت هذه الاراضي خارج النفوذ المصري العسكري ، وكان باستطاعة الحكام المحليين ان يطلبوا الثمن ، وكان هذا يقدم على شكل هدية ملكية للاتباع المحظوظين ثم تسجل منتوجاتهم كجزية . والواقع ان هذا كان نوعاً من التبادل . فقد وجدت في مدافن امراء جبيل المحليين على سفح لبنان بعض الجوهرات المصرية الفاخرة والغالية الى حد كبير واسماء فراعنة الاسرة الثانية عشرة منقوشة عليها . ودعائم السطوح الصنوبرية في مدافن الاسرة المصرية الاولى وسجلات حملة بحرية قام بها سنفرو من الاسرة الرابعة تشير الى العصر الذهبي لتجارة الاخشاب مع الشرق . وعندنا من فترة متأخرة الجدول التالي للاشياء التي قدمها السفير المصري « وينامون » لقاء الخشب من لبنان .

« خمسة اوان ذهبية وخمسة اوان فضية . عشرة اثواب من الكتان الملكي ،

---

(١) غاردنر – تقرير جمعية الاركيولوجيا التوراتيــة عدد ٣٧ سنة ١٩١٥ صفحة ١١٧ وعدد ٣٩ سنة ١٩١٧ صفحة ١٣٣ .

عشر قطع من الكتان الآخر . وخمسماية قطعة من الورق الناعم ، خمسماية جلد ماشية ، خمسماية حبل ، عشرون كيساً عدساً ، ثلاثون سلة من السمك » .

اما الصادرات الفينيقية فتضمنت الى جانب الخشب زيتاً وخمراً وزبيباً وعاجاً .

لقد قيل ان الفرعون كان التاجر الوحيد الذي يتعاطى تجارة الجملة في مصر ، وان التجارة الخارجية كانت احتكاراً ملكياً . لكن فكرة الكسب والاستثمار لا تتفق مع الواقع . ان هذا الامر يعود الى التوافق التام الذي به نظم المصريون مجتمعهم كملكية مركزية حتى يوفروا لانفسهم المواد الاجنبية التي يحتاجون اليها بواسطة الحملات الملكية . انه لبرهان عجيب على فعالية الحكم الفرعوني العملي ان تكون ملكية مصر المطلقة قد امنت في الواقع البضائع الاساسية سواء أكان المستورد منها او المصنوع في الداخل للناس عموماً بكميات كافية . كان التوزيع يتم من « فوق » . الملك يعطي هبات ومخصصات لموظفيه الذين كانوا بدورهم يكافئون اتباعهم وهكذا الى آخر السلم الاجتماعي . وقد تحدر الينا من الفترة المتوسطة الاولى حين اصيبت السلطة الملكية بنكسة نصوص تحتوي على شكوى بانه لا وجود للخشب لصنع التوابيت .

واياً كانت الناحية التي درسناها من نواحي المجتمع المصري فاننا نجد الفرعون في مركز الدائرة . ومع ذلك فلا شيء اكثر تضليلاً من ان نتصور المصريين في استسلام حقير لحاكمهم المطلق . ويمكن ان نصف دولتهم بانها « جهاز يدار بنفسه متماسك بمراعاة مشتركة للحقوق والواجبات العادية »[1] . لم يكن نظامهم مفروضاً لكنه كان ناشئاً من ميول موغلة في القدم ، وقد

---

(١) ف. م. بوويك (F. M. Powicke) – الاصلاح الديني في انجلترا – اكسفورد ١٩٤١ صفحة ٣١ .

تمسكوا بها بدون شكوى ولا تذمر نحو ثلاثة آلاف سنة تقريباً . ومثل هذه الميول حفظت بالفعل مؤسسة الملكية المقدسة بين الافريقيين المتصلين بالمصريين القدماء حتى ايامنا الحاضرة . كانت جيدة ولم تكن سيئة . وقد خلقت شعوراً بالامان الذي كان يعوز المعاصرين الاسيويين للمصريين القدماء . فاذا كان الاله قد رضي ان يقود الامة فكأن المجتمع يكون قد ضمن لنفسه ان القوى الطبيعية التي لا تخضع لسيطرته ستكون عطوفة سخية في منحهم الازدهار والسلام . كما ان وجهة النظر المصرية لا ينقصها العنصر الاخلاقي فان الصدق والعدالة كانا ما تعيش بها الآلهة ، وكانا عنصراً اساسياً في النظام القائم . ومن هنا لم يكن حكم الفرعون طغياناً ولم تكن خدمته عبودية .

مُلحق

تأثير بلاد ما بين النهرين على مصر
حوالي أواخر الالف الرابع ق.م.[1]

ان القضية التي ننتقل اليها الآن قد درست وبحث فيها بصورة متقطعة في السنوات الخمس الماضية . غير أن تلك الدراسات السابقة لعبت فيها الأفكار المقررة سلفاً دوراً هاماً . ومع انه مسلم به ان الاختلاط يشجع الأفراد ، فان المعتقد في الغالب هو ان التسليم بأن النفوذ الخارجي قد أثر في شعب ما ، أمر محط الكرامة . والاختلاف الاساسي بين النقل الآلي والاقتباس الخلاق ، بين الاعتماد الكلي على الامثلة الاجنبية والاختيار الحر للمواد المتجانسة مغفل كلياً في تلك الدراسات . وهنالك ظرف آخر ايضاً كان يحول دون وزن الاثباتات وتقييمها بتجرد ونزاهة . فعندما كانت معرفتنا بالشرق الادنى القديم جزئية كان مألوفاً ان نفسر التغييرات بصيغ الفتح والهجرة من منطقة مجهولة . لكن الاكتشافات الواسعة التي تمت بين الحربين العالميتين قضت على هذا النوع من

(١) هذا الموضوع مدروس في المؤلفات المذكورة في صفحة ١٤٠ من هذا الكتاب ملحوظة رقم ١ وبما ان آخرها نشر اثناء الحرب ويكاد يكون غير معروف في الخارج ، فقد ضمنا في هذا الملحق مادة تناولناها بالدرس في مناسبة سابقة .

التعليل . فقد ثبت ان مواطن تلك الشعوب النازحة ، من وجهة ثقافية هي المناطق القائمة على تخوم المركزين العظيمين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين .وقد ثبت من جهة ثانية ان هذين المركزين كانا إلى درجة غير عادية يقاومان النفوذ الخارجي وكان باستطاعتها ان يفرضا على القادمين حضارتيهما [1] .

وهكذا فان معلوماتنا المتزايدة تحملنا على عدم اعتبار النفوذ الخارجي او الهجرات كتعليلات للتطورات الثقافية . اما الآن فان وجهة النظر المعاكسة للنظرة القديمة تتلقى تأكيداً مبالغاً فيه . ثم اننا نجد علماء يعلنون بفخر جهلهم بالانثروبولوجيا ثم يؤكدون ، دون ان ينقدوا جميع الحقائق ، استقلال المراكز الثقافية العظيمة في الشرق الادنى وانطواءها على نفسها .

ان الاثباتات والادلة التي حصلنا عليها في العقد السابق للحرب العالمية الثانية تتيح لنا مع ذلك ان نحل القضية فيما يتعلق بالمرحلة التكوينية للحضارة المصرية على الأقل . لأن اكتشافات آثار ما بين النهرين في الفترة الشبيهة بالكتابية تدل على أن المصدر الذي منه اقتبست الثقافة المصرية بعض عناصر غريبة في نهاية العصور السابقة لعهد الاسر وفي الأزمنة الشبيهة بحكم الاسر كان بلاد ما بين النهرين .

وأقوى دليل على هذا الاتصال بين بلاد ما بين النهرين ومصر نجده في ثلاثة اختام اسطوانية يبدو من موادها ذاتها ومن أشكالها بأنها صنعت في ما بين النهرين أثناء النصف الثاني من الفترة الشبيهة بالكتابية (الرسمان ٣٣ و ٣٤) لكنها وجدت في مصر. وقد عثر على احدها في نقادة (رسم ٣٢) في مدفن جرزي ،

---

(١) وبكلام آخر يمكن ان نقول اننا استعملنا بغير مبرر توسع الشعوب الهندية الاوروبية والشعوب الناطقة بالعربية مثالاً للتغييرات الملحوظة في مصر وفي ما بين النهرين .

ويحتمل ان يكون الاثنان الآخران في المكان نفسه [١] . لم تكن هـــذه المستوردات من الخارج بدون نتائج . فانه منذ بداية الاسرة الاولى كان الختم الاسطواني قد اصطلح عليه في مصر ، وكان يصنع بكميات كبيرة عـلى الفور . وبما انه شكل غريب للختم يستعمل فقط في البلدان المتصلة ببلاد ما بين النهرين ، وبما ان احدى اسطوانات ما بين النهرين وجدت في مصر في نص سابق لاقدم الاختام المحلية ، فانه تعنت ان ننكر ان المصريين اتبعوا نموذج ما بين النهرين . لكنه من مميزاتهم انهم تصرفوا بالفكرة الجديدة على اوسع مقدار من الحرية . حتى انهم استخدموا الاسطوانات المحفورة لغاية لا شبيه لها في ما بين النهرين . وبعض هذه الأشياء الموجودة في مدافن الاسرة الاولى ليست اختاماً على الاطـــلاق لكنها تعاويذ جنائزية تصور الرجل الميت على المائـــدة (رسوم ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) [٢] . وبالاضافة الى ذلك استخدم المصريون الاسطوانات كأختام لكنهم نادراً ما كانوا يغطونها بالرسوم المصورة . كانوا يحفرون عليهـــا اسماء الموظفين والقابهم مكتوبة بالهيروغليفية (الرسمان ٣٥ و ٣٦) . وفي بلاد ما بين النهرين كانت أقدم الاسطوانات (رسوم ١٤ و ١٦ و ٤٢ و ٤٤) تحمل رسومـــاً لا نقوشاً . أمـــا الاختام المنقوشة فلم تعرف قبل عهد الاسرة الثانية ، وحتى آنذاك فقد كانت النماذج المنقوشة تحمل رسماً كصفة مميزة لها . وفوق هذا فان الاختام المصرية القديمة كانت تصنع عادة من خشب وهو المادة التي لم تستعمل في مـــا بين النهرين حسب ما نعلم . وبما انه من الناحية الاخرى كانت الاسطوانـــة

---

(١) فرانكفورت الاختام الاسطوانية – لندن ١٩٣٩ صفحة ٢٩٣ .

(٢) ويمكن للقارىء غير المطلع على هذه الاسطوانات ان يتحقق من الرسوم كما يـــلي : في الرسم ٣٧ يرى بعض الكتابة الهيروغليفية التي يبدو وجهها الآخر على أقصى اليسار في رسم ٣٨ . وعلى يمينها يجد المرء مائدة التضحية بهلالين يمثلان رغيفي خبز وفوقهما رجل يمد يده وهو جالس على سرير ذي قوائم منتهية باقدام ثور أو أسد (وجدت مثل هذه السرر في مدافن عبيدوس) وشعره الطويل مصور في خطوط متوازية متقاطعة . وفي رسم ٣٩ صورة مشابهة متجهـــة الى اليمين اما شعره فمصور بخط مستقيم .

أحسن ملاءمة لختم البضائع والالواح الدلغانية أكثر مما كانت لتوقيع وثائق البردى ، فانها استبدلت في مصر أثناء المملكة الوسطى بختم طابع على شكل خنفساء . فالمصريون اذن لم ينقلوا اختراع ما بين النهرين نقلاً كلياً لكنهم كيفوه ليلائم حاجاتهم الخاصة الى ان اكتشفوا شكلاً من الختم اكثر ملاءمة .

وفي ميدان الفن تمكن ملاحظة تطور مشابه لذلك نوعاً ما[1]. وباستطاعتنا ان نميز مجموعتين من المظاهر : دوافع مقتبسة من نصب ما بين النهرين في الفترة الشبيهة بالكتابية ، ودوافع مصرية منظمة بطريقة تجعلها ، اذا كان حكمنا عليها مبنياً على طريقة استعمالها المتأخرة ، غير مصرية ، ويمكن اعتبارها انها تأثير عابر لاسلوب ما بين النهرين . وابرز مثل على اقتباس اشكال غريبة من بلاد ما بين النهرين هو مجموعة من رجال يقبضون على اسدين محفورة في مقبض سكين من جبل الاراك (رسم ٢٣) ومثل هذه المجموعات مألوفة في جميع الأزمنة في ما بين النهرين لكنها نادرة جداً في مصر . وفي المثل الحالي لا يمكن انكار الاقتباس . فالبطل بين الاسدين تقليد ، في كل تفاصيل مظهره —

---

(١) لكي لا نحمل هذا الملحق فوق طاقته من الملحوظات فاننا سنشير فقط الى اكثر النصب اهمية . وهي مجموعة بصورة مناسبة في « الفن الاولي في مصر » لمؤلفه ج . كابارت لندن ١٩٠٥ وفيه الابحاث المفصلة مع المراجع ثم في المؤلفات الثلاثة التالية : ه . فرانكفورت – دراسات في الخزف القديم في الشرق الادنى جزء اول لندن ١٩٢٤ صفحة ١١٧ – ١٤٢ وشارف

« Neues zur Frage der Altesten Aegyptish - Babylonischen Kulturbeziehungen » in Zeitschrifte fur Aegyptische Sprache .

في جزء ٧١ سنة ١٩٣٥ صفحة ٨٩ – ١٠٦ .

و ه . فرانكفورت « اصل الفن المعماري التذكاري في مصر » في المجلة الامريكية للغات والاداب السامية جزء ٥٨ ، ١٩٤١ صفحة ٣٢٩ – ٣٥٨ وفي هذه المقالة الأخيرة خالفت آراء معينة عرضها شارف ، لا سيا بخصوص الاختام الاسطوانية . وبينت (نفس المصدر صفحة ٣٥٤ ملحوظة ٥٥) ان رسم الصدف النافر الموجود في برلين (نقله أيضاً كابارت في نفس المصدر صفحة ٨٣ الرسمان ٥٠ – ٥١) اثر من آثار ما بين النهرين، وهو لذلك لا صلة له بالبحث الحالي .

جلابيته ، ولحيته وشعره الملفوف حول رأسه والجدول ضفائر في القفا — لرسم « قائد » أو ملك يتكرر كثيراً ، ويحفر على حجر غرانيتي من اراك وعلى اختام عديدة (الرسمان ١٥ و ٤٤) . حتى ان اسلوب الرسم والطريقة التي صورت بها عضلات الساقين مثلاً غير مصريين كما ترينا المقارنة مع الرسم على الوجه الآخر من مقبض السكين (رسم ٢٤) .

وهنالك اشكال أخرى على ألواح ومقابض سكاكين فيها شبه باشكال من بلاد ما بين النهرين ، والاسود أو النمور ذات الاعناق الأفعوانية على لوحة نارمر (رسم ٢٨) تتكرر ، وتتشابك بشكل متماثل على اختام الفترة الشبيهة بالكتابية الأولى والمتأخرة (رسم ١٦) . والحيوانات الخرافية المجتمعة (رسم ٤٠) [١] والأفاعي المتشابكة [٢] معروفة في ما بين النهرين منذ الفترة الشبيهة بالكتابية ، ومعروفة صدفة في مصر .

والمجموعات [٣] المتباينة وآكل اللحوم الذي يهاجم فريسة لا تتحرك (الرسمان ٢٣ و ٤٠) امثلة رسوم مصرية مصنوعة بطريقة غير مصرية [٤] . وبوسعنا ان نقرر كيف انها غير مصرية . فهي تشترك مع مجموعة البطل المسيطر

---

(١) توجد في لوحة هيراكون بوليس الصغيرة - كابارت ، نفس المصدر رقم ١٧٢ .

(٢) انظر ايضاً مقبض سكين الكلية الجامعية « كابارت نفس المؤلف صفحة ٧٢ ، رسم٣٧» ومقبض السكين في برلين — كابارت نفس المؤلف صفحة ٧٣ رسم ٣٨ .

(٣) مقبض سكين من جبل الاراك (رسم ٢٣) ولوحة اللوفر الصغيرة « كابارت نفس المؤلف صفحة ٢٣٥ رسم ١٧٤ » ، ولوحة الاسد « كابارت نفس المصدر صفحة ٢٣٩ رسم ١٧٨ وصفحة ٢٤١ رسم ١٨٠ » وزكي يوسف سعد — الحفريات الملكية في سقارة وحاوان ١٩٤٤ — ١٩٤٥ ، وملحق تقارير مصلحة الآثار في مصر صفحة ١٦٦ رسم ١٤ .

(٤) ان الطريقة المصرية لتمثيل اكلة اللحوم وفرائسها مبينة في الصف الاوسط من الحيوانات في لوحة الصياد (رسم ٢٥) حيث يبدو انها في فرار سريع . انظر ايضاً لوحة هيراكونبوليس والمصورات المصرية للفترات التاريخية . اما في ما بين النهرين فان الفريسة تصور غير متأثرة +

على الاسدين ، والأفاعي والاسود المتشابكة ، والنمور ذات الرقاب الافعوانية بطابع اللاواقعية البارز . فالأشكال الحيوانية في هذه الامثلة كلها ، مستعملة لانتاج رسم زخرفي ، وهي خاضعة لغاية فنية محضة . ومع ان المصريين استخدموا النبات فيما بعد في هذا السبيل ، فانهم لم يستعملوا ثانية الرسوم الحيوانية والانسانية على هذا الشكل أبداً . أما في ما بين النهرين ، من الناحية الاخرى ، فان الخيال والرسم كانا يسيطران عادة على الامكانية او الطبيعة[1] . ومن هنا نرى مرة ثانية ان المصريين أجروا تجارب على اختراعات ما بين النهرين أثناء المرحلة التكوينية لحضارتهم لكنهم سرعان ما نبذوا ما ليس اصيلاً .

وهنالك ميدانان آخران كان لنماذج ما بين النهرين فيهما نتائج اكثر أهمية من التي بحثناها حتى الآن . وهما فن البناء والكتابة. عند بدء عهد الاسرة الاولى يظهر بناء النصب بالطوب بشكل يذكر ، من حيث المواد والتخطيط بهياكل الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين[2] . انها نقطة عرضة للاخذ والرد

+ بالهجوم . ورسمنا رقم ١٤ ، مثلاً ، تمكن مقابلته مع ختم (فرانكفورت - الاختام الاسطوانية ، لوحة ٥ آ .) حيث يظهر الاسد منشباً مخالبه في أجزاء الثور الخلفية . الثور يقف كما في رسمنا . وهذا مثل واحد من كثير . ومثل آخر من هذا الرسم في مصر يوجد على صولجان من هيراكونبوليس (كابارت نفس المصدر صفحة ٩٧ ، رسم ٦٨) وفيه كلاب واسود متعاقبة ، وكل واحد يهاجم الذي امامه بالاسنان وبالمخالب ، وهذا النوع من الرسم الذي هو تشابك مستدير باعطاء الرسوم الفردية قوة الحركة ، خاص بما بين النهرين ويتكرر في اختام اسطوانية كثيرة وعلى اناء انتيمينا (**Entemena**) الفضي وعلى صولجان مسليم (**Mesilim**) في كيش في اللوفر .

(١) انظر فرانكفورت - الاختام الاسطوانية - الملحق .

(٢) انظر فرانكفورت - اصل البناء التذكاري في مصر في المجلة الامريكية للغات والاداب السامية ، عدد ٥٨ سنة ١٩٤١ صفحة ٣٢٩ - ٣٥٨ . ولم نناقش في هذا البحث تفصيلاً أوجه الشبه الفنية بين الابنية الطوبية المجوفة في البلدين وحسب ، بل اثبتنا عدم صلاحية التعليلات السائدة للنماذج المصرية بقطع النظر عن حقيقة انها عجزت عن تفسير البناء المعاصر للابنية المماثلة في ما بين النهرين .

فيما اذا كان الطوب قد صنع في مصر في ما قبل التاريخ . وفي فارس وما بين النهرين وفي آسيا الصغرى (في مرسين) كانت تستعمل على مدى واسع منذ فترة العبيد ، حتى انها كانت معروفة من قبل ذلك . وفي مصر وجدت طوبات قليلة في ما قبل التاريخ لكنها لم تكن في الواقع جدراناً ، ولنا ان نشك فيما اذا كانت تستخدم للبناء إذ انه في النوبة ، حيث استمرت ثقافة ما قبل التاريخ مزدهرة حتى بعد مجيء مينس ، لم يستعمل الطوب الا في زمن متأخر . وفوق هذا فان الرسم في لوحة الصياد (رسم ٢٥) والصور الهيروغليفية التي تمثل قصوراً أو معابد تقليدية تدل على ان البنايات العامة السابقة لعصر الاسر كانت تصنع من خشب وحصير وربما من القضبان والطين . ويحتمل ان القصور والابنية الهامة الاخرى في عهد الاسرة الاولى ظلت تصنع من هذه المواد [١] . لكن الطوب البنائي المزخرف الى درجة عالية اخذ يستعمل فجأة في تشييد المدافن في عهد هذه السلالة .

وفي مصر ظلت الأبنية المدنية أقل تعميراً او دواماً من المدافن والهياكل . وعندما بدىء ببناء من الحجارة منذ عهد الاسرة الثالثة، بقيت المنازل والقصور من الطوب . وهذا التفريق ينطبق في جميع الفترات التالية . وفي ظل الاسرة الاولى ، عندما بلغ البناء الطوبي طور النضج فانهم اخذوا باستخدام هذا النوع الجديد الثابت من البناء اولاً للمدافن الملكية التي زخرفت بدعائم وفجوات على الجهات الاربع (رسوم ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠) ثم تحققت هذه الزينة ، في بعض الحالات (رسم ٤٦)[٢] ، باستعمال نوعين من الطوب : كبيرة لأساس البناية وصغيرة للتجويفات . وكانت هذه الطوبات الصغيرة من حجم وشكل خاصين ،

---

(١) وهذا لا يعني انها كانت ابنية حقيرة . ففي بوغندا ، مثلاً ، ما لا يقل عن الف رجل يستخدمون باستمرار في الكنف الملكي للبناء والترميم - جون روسكو - بوغندا - صفحة ٣٦٦ .

(٢) انظر ايضاً بوركاردت Das Grab des Menes في Zeitschrift für Aegyptische Sprache عدد ٣٦ سنة ١٨٩٨ صفحة ٨٧ - ١٠٥ .

في ما بين النهرين ، حتى النصف الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية ، وظلت تستخدم بطريقة متشابهة ، في ثلاثة صفوف من الطوب متناوبة عادة مع صف من الطوب الزائد عن الجدار[1] . ان هذه التجويفات والدعائم مطابقة تماماً للتجويفات في هياكل الفترة الشبيهة بالكتابية . والتفصيلات الفنية الاخرى — كالطريقة التي يبنى بها الاساس او المنبر (رسم ٤٧)[2] واستخدام الأخشاب القصيرة المدخَلَة أفقياً لتقوية المحراب (الرسمان ٤٩ و ٥٠) كذلك تعكس طرائق ما بين النهرين في الفترة الشبيهة بالكتابية (رسم ٤٨)[3] . وفي ما بين النهرين يمكن تتبع نشوء طريقة البناء بالطوب المجوف ابتداء من هياكل اريدو وتيب غوره في فترة العبيد (حين كان الغرض من الدعائم المتباعدة جداً تقوية الجدران فقط) ، الى ان نصل الى درجة دقيقة من التعقيد في الفترة الشبيهة بالكتابية (رسم ٤٥) عندما يبدأ البناء الطوبي في عهد الأسرة المصرية الاولى ، وبدون سابقة ، ان يظهر بالاناقة والجمال اللذين تستطيع هذه المادة الطوبية ان توفره . فان التمثيلات المعاصرة المبسطة لهذه الابنية كما تبدو على الاختام الاسطوانية في الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين تشبه تلك التي على

---

(١) هذه هي Riemchenverband التي لاحظها حفارو اراك (ا . هنريك في Shilf und Lehm) صفحة ٤٠ وفي تل الاسمر (ديلوغاز ولويد في الهياكل السابقة لعهد سرجون في منطقة ديالا) ، شيكاغو ، ١٩٤٢ صفحة ١٦٩ ، رسم ١٢٧ .

(٢) في صورتنا وفي مدفن نيتوتيب Neithotep (Das Grab des Menes) انظر ملحوظة ١ فوق . يبدو ان البناء كما هي الحال في هياكل بابل ، يرتكز على مصطبة من طوب . لكن « تلبيسة » منخفضة كانت تبنى في الواقع على خارج الجدران بعد بنائها — مع الفسحات كافة — من الاساسات . كانت هذه المصطبة الظاهرة تدعى في بابل كيسو .

(٣) صورتنا رقم ٤٨ تبين طبعات هـــذه الاخشاب المستديرة في البناء الطوبي للهيكل الابيض في اراك الذي تعطينا الصورة رقم ٤٥ مخططاً له . والصورة ٤٩ تبين ناووساً خشبياً وجد في مدفن الاسرة الاولى في طرخان في مصر ، تقليداً لبنـــاء مجوف مدعم بالاخشاب المستديرة . وتبين الصورة رقم ٥٠ مدفناً فعلياً وجد في ابي روش في مصر السفلى وفيه بعض الاخشاب الباقية في مكانها .

نصب الاسرة الاولى في مصر (رسوم ٤٢ و ٤٣ و ٤٤)[١] . وهنالك فروق ايضاً تدل على ان تمثيلات ما بين النهرين لم تقلد في مصر ، لكن التمثيلات في مصر وفي ما بين النهرين كانت اختصارات لابنية هي نفسها شديدة الشبه بها . والابراج الظاهرة على لوحة دجت (رسم ٤٣) موجودة في القسم الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية (رسم ٤٢ لليمين) . وكانت الابراج ذات الجوانب المستقيمة تستعمل منذ عهد الاسر القديمة في ما بين النهرين لا في مصر ، حيث طور برج الارشاد البارز الانحراف .

ونظراً لهذا التنوع العظيم في التشابهات التفصيلية لا يمكن ان يكون هنالك شك في أن البناء الطوبي التذكاري المصري الاول كان اقتباساً مصدره ما بين النهرين حيث له تاريخ طويل سابق . وختاماً فانه يجدر بنا ان نلحظ ان الاشكال المعمارية المستخدمة للهياكل في ما بين النهرين استعملت في مصر للمدافن والقلاع الملكية[٢] لكن الفرعون – في الحياة والموت – كان إلهاً . ثم حل البناء الحجري الخاص بمصر ، في الازمنة التاريخية ، مكان الطوب للمدافن الملكية منذ عهد الاسرة الثالثة .

وينبغي ، اخيراً ، ان ننتقل الى اختراع الكتابة الهيروغليفية . وهذه نقطة جدلية . فهل ظهرت اولاً على صولجان سكوربيون (رسم ٢٦) ام ان الاشارتين على لوحة الصياد (رسم ٢٥) يجب ان تعدا كتابة . ان قراءتها غير مستطاعة

---

(١) ان الرسوم المصرية (رقم ٤٢ ، ٤٤ لليسار و ٤٣) يفترض فيها ان تمثل الواجهة الامامية لقصر ، وهذا افتراض لا يمكن اثباته اذ انه يتجاهل حقيقة وهي ان المدفن لها تجويفات على الجوانب الاربعة . ولكن مهما كان اصل هذا التصميم ، فان تمثيله المقتضب في مصر يشبه كثيراً تمثيلاً مقتضباً لهياكل ما بين النهرين (رسم ٤٤ لليمين) .

(٢) لا يزال في عبيدوس ثلاثة منها ولعلها مبنية في عهد الاسرة الثانية انظر بتري « عبيدوس » جزء ٣ لندن ١٩٠٤ ، لوحات ٥ الى ٨ .

مع انها قد تعني « معبد (إله الارض) أكيرو » لأن هذا الاسم مكتوب مع حيوان مزدوج الجبهة المربعة في النصوص الاهرامية . وسواء كانت هذه اللوحة ام صولجان سكوربيون هي اول نصب عليه كتابة ، فان ظهور الكتابة يقع خلال فترة يظهر فيها تأثير ما بين النهرين .

لقد جرت العادة ان توضع نظريات تفسر لنا منشأ الكتابة المصرية على اساس ان هنالك نماذج او سوابق للكتابة المصرية تعود الى فترة ما قبل التاريخ ولكن هذه النظريات ليس لها ما يؤيدها [١] . فان اقدم اخبار المملكة التي سجلها لنا المصريون القدماء (ويصدف انها حفظت لنا في نص يعود الى زمن الأسرة الاولى) تعود الى الاسرة الاولى مما يدل على انه لم يكن هنالك وجود لنظام للكتابة يسبق هذه الفترة . وهنالك بعض اسماء لزعماء عاشوا قبل التاريخ ويظهر ان هذه الاسماء قد ظلت معروفة عندهم ثم ادخلت في السجلات كأسماء ملوك من قبل مينس[٢] .

لكن الكتابة التي ظهرت بدون ان يكون لها سابقة تقتدي بها عند مستهل عهد الاسرة الاولى لم تكن كتابة بدائية ابداً ، اذ أن لها في الواقع تركيباً معقداً . وهي تتضمن ثلاثة انواع من الاشارات وهي رسوم او صور لها معان اي انها ترمز الى فكر ورموز صوتية ثم محددات اي صور تعين القارىء على تحديد نوع الكلمة التي سيقرأها[٣] . وهذا هو بالضبط نفس مستوى التعقيد

---

(١) شارف Archaeologische Beitrage zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift . مونيخ ١٩٤٢ .

(٢) انظر الملكية والآلهة صفحة ٢٠ و ٣٥٠ ملحوظة ١٥ .

(٣) وقد بينا أنه في كتابة ما بين النهرين الاولى يمكن للكلمات المتشابهة الاصوات، مثلا الرموز التي تعني « يعيش » و « سهم » ، ان تكتب بذات الرمز وان يوضح المعنى باضافة محددات لا تلفظ بل تدل على نوع الفكرة المقصودة . وفي مصر منذ البداية ، نجد نفس الوسائل مستعملة . —

الذي وقع فيه سكان ما بين النهرين في مرحلة متقدمة من الفترة الشبيهة بالكتابية . وهنالك، على كل حال، مرحلة اكثر بدائية معروفة في أقدم الالواح استعملت فيها الرسوم التي ترمز الى الفكر فقط .

اننا اذا انكرنا ان يكون هنالك صلة وثيقة بين نظامي الكتابة في مصر والعراق القديم نكون كمن يقول بان مصر اخترعت نظاماً معقداً للكتابة مستقلة عن اي تأثير خارجي في الوقت الذي نجد فيه مصر متأثرة غاية التأثر بالفن العراقي القديم وبالبناء العراقي القديم . اننا اذا اعتقدنا هذا يكون اعتقادنا بمثابة انكار لهذا الاتصال بين البلدين .

ـ فالصورة الهيروغليفية التي تصور ضلعاً يمكن ان تستعمل ايضاً للدلالة على فعل «يقترب» وفي هذه الحالة تضاف ساقان لتحديد المعنى . وكما ان صورة السهم في ما بين النهرين اصبحت اشارة صوتية الى « تي » كذلك اصبحت الاشارات المصرية صوتية لكن هنالك اختلافاً واحداً . ففي ما بين النهرين ، كانت الحروف الصحيحة والمعتلة يرمز اليها باشارات ، اما في مصر فقد تجوهلت حروف العلة ولم تكتب الا الحروف الصحيحة للكلمة فقط . وهذا طبيعي عند المصريين لان الحروف الصحيحة في كلماتهم بقيت ثابتة بينما كانت الحروف المعتلة تتغير في التصريف والاشتقاق كالافعال الشاذة عندنا (مثل **Break** وفي الماضي **Broke**) . ولنعد الى مثلنا فان صورة الضلع تمثل **Spir** عندما تعني الضلع و **Soper** عندما تعني « يقترب » وهكذا دواليك . (هذا هو اللفظ الذي تحدر الينا من القبطية التي هي المرحلة الاخيرة من اللغة المصرية التي استعملت الابجدية اليونانية ولذلك استعملت الحروف المعتلة) . فالقيمة الصوتية للرمز الذي يدعى الضلع هي س. ب. ر **S P R** وبهذه الطريقة كيف المصريون فكرة كتابة اللغة (وقد اخذوا ذلك كما هو واضح من بلاد ما بين النهرين) لتتلاءم مع لغتهم. لا اريد ان اشير الى ان المصري يتطلب بحكم الضرورة كتابة لا تكتب فيها الا الحروف الصحيحة ، وقد دلل شارف (نفس المصدر) ان العبرية والعربية توصلتا الى وضع علامات للحروف المصوتة تكتب فوق او تحت الحروف الصحيحة في الكلمة ليسهل النطق بها .

وبعض الرموز الصوتية في اللغة المصرية تتألف من حرف صحيح واحد . وفي بحث يتعلق بالكتابة المصرية لا مبرر لذكرها بصورة خاصة لانها لا تختلف، من حيث المبدأ ، عن الرموز الاخرى . اما في سياق تاريخي اوسع فان لهذه الرموز التي لها قيمة الحرف الصحيح الواحد اهمية فريدة اذ يبدو انها الاصول البعيدة للابجدية .

لكن المصريين ، مرة اخرى ، لم يقلدوا نظام ما بين النهرين تقليداً اعمى . فانهم عندما ادركوا بان اللغة يمكن ان تمثل صورياً اخذوا بتطوير نظام خاص بهم ليكتبوا لغتهم . فالاشارات الكتابية – الهيروغليفية – التي اخترعوها لا علاقة لها على الاطلاق بالاشارات الكتابية في ما بين النهرين . انها تصف اشياء مصرية وتصفها باخلاص وتبقى حتى النهاية صوراً في اغلب الحالات . اما في ما بين النهرين فان الميل لاستخدام الرموز المجردة كان قوياً منذ البداية ثم تغلب في زمن مبكر . وقبل منتصف الالف الثالث كانت الصور قد فقدت كل اثر من الشبه بالاشياء التي كانت تمثلها بالاصل (رسم ١٣) . ولهذا الخلاف بين كتابتي مصر وما بين النهرين ، بلا ريب ، سبب مزدوج . فقد احب المصريون دائماً الصور دون الرموز وكان لهم ميل قوي نحو الملموس . وهذا الميل (الذي منعهم ايضاً من تشويه اشكال الحيوانات من اجل الزخرفة) جعلهم يتبنون الصور الدقيقة كاشارات كتابية ويحتفظون بها . لكن الكتابة ، من الجهة الثانية ، استعملت في مصر منذ البدء لغاية تختلف عن الغاية التي وضعها سكان ما بين النهرين من اجلها . ففي ما بين النهرين وضعت الكتابة لأغراض الادارة العملية ، اما في مصر فاستعملت في الاول كعنصر في الفن التذكاري بشكل اساطير مضافة للرسوم النافرة (رسوم ٢٦ و ٢٧ و ٢٨) .

وحددت الاساطير ماهية الرسوم في الصور النافرة التي لا يمكن توضيحها الا بالاضافة الى الاسماء والالقاب . ولكن بعد ان اكتشفت الكتابة اصبحت تستخدم في مصر لأهداف عملية . وهذا يحتاج الى كتابة اقصر واكثر سهولة . وفي مدفن « جيت » الملك الرابع في الاسرة الاولى اكتشف نقش كتابي بالشكل النسخي[١] . ويظن بعضهم[٢] ان الوثائق لا بد أنها كانت مألوفة الاستعمال في

---

(١) بتري – المدافن الملكية - جزء اول ، لوحة ١٩ عدد ١١ .
(٢) شارف ، نفس المصدر صفحة ٥٥ .

الاسرة الثانية لأن هنالك ادراجاً او طوامير من البردى كانت تستعمل منذ ذلك الحين وفي هذا دليل على شيوع الكتابة . وعلى كل حال فقد كانت الصور الهيروغليفية تستعمل في النقوش التذكارية حتى في عهد الاباطرة الرومانيين .

ونظراً للشك الذي لا يزال قائماً عند بعض علماء التاريخ من جهة اثر بابل على مصر ، فانه من الخير لنا ان نعرض في جدول يوضح تأثير ما بين النهرين في مصر حوالي ٣٠٠٠ ق. م. – فيما عدا الكتابة – وسيتضح اننا لسنا امام بعض اوجه شبه اعتباطية بل امام مجموعة من الظواهر المتصلة . وهذا في الواقع هو ما تدعمه الملاحظة بان الملامح الخارجية في مصر كلها تعود الى نفس المرحلة الواحدة من حضارة ما بين النهرين ، اي الجزء الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية[١]. ان هذه المرحلة (التي كانت تدعى سابقاً جمدت نصر) تمثل الآن عهد

---

(١) بقيت بعض ملامح حضارة ما بين النهرين بدون تغير تقريباً في الفترة الشبيهة بالكتابية. ولذلك فانه هام جداً ان نقرر ان الاتصالات المصرية يمكن اثبات رجوعها الى القسم الأخير المعروف بعهد توسع . والاثبات على التوافق الزمني بين نشوء الاسرة الاولى في مصر ، والقسم الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين يتألف من ثلاث مجموعات .

(أ) ان جميع الاختام الاسطوانية الموجودة في مصر تشبه اسلوب جمدت نصر ولا تحتوي اي شيء من الاسلوب السابق المعروف من آثار الاختام الموجودة في الطبقة الاركيولوجية الرابعة في أراك . كذلك لا وجود لامثلة عن الاسلوب المشجر الذي اعقب اسلوب جمدت نصر في عهد الاسرة الاولى . وهكذا يتعين الحدان الاعلى والاسفل للفترة التي حصل فيها الاتصال .

(ب) ان الطوب الصغير المستعمل للتجويف في نقاده وسقاره « رسم ٤٦ » شائع الاستعمال في القسم الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين . وفي القسم الاول كان الطوب الاكبر مألوفاً ، وفي عهد الاسر القديمة اللاحقة أصبح الطوب مسطحاً ومحدباً .

(ج) اثناء الفترة الشبيهة بالكتابية كانت مباني ما بين النهرين تزخرف من جميع جهاتها بالتجويفات الانيقة « الرسمان ٤٥ و ٤٨ » وهذه هي الزخرفة التي وجدت في اقدم الابنية التذكارية في مصر كمدافن نقاده وعبيدوس وسقاره الخ ... وفي فترة الاسر القديمة في ما بين النهرين اصبح التجويف المبسط هو الاسلوب السائد ، واحتفظ بالتجويف المتعدد للابراج التي تقوم على جوانب مداخل الهياكل « رسم ١٩ » . وهذه الابراج ادخلت الى ما بين النهرين في النصف الاخير من العهد الشبيه بالكتابي كما يدل طابع ختم « رسم ٤٢ لليمين » . والتمثيلات المقتضبة للبنايات المجوفة في مصر تدل على ابنية مسطحة وعلى ابنية ذات ابراج « رسم ٤٢ للشمال والرسمان ٤٣ و ٤٤ » وهذا مزج لا يتلاءم مع القسم الاول من الفترة الشبيهة بالكتابية ولا مع الفترة السلالية القديمة في ما بين النهرين ولكن مع القسم الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية وحسب . ومرة اخرى يتعين الحدان الاعلى والاسفل لفترة الاتصال .

التوسع . فقد بني هيكل فاخر الاثاث في براك في شمال سوريا (انظر صفحة ٩١) ووجدت الواح مما بين النهرين لا في سوسه من اعمال عيلام وحسب وانما في سيالك ايضاً قرب قاشان في اواسط فارس (رسم ٥١) . وعثر على اسطوانات مما بين النهرين لا في الامكنة التي ذكرت الآن بل بعيداً حتى كبدوكية وطروادة . وفي الوقت الذي كان تأثير ما بين النهرين يشع في جميع الجهات كان طبيعياً ان يمتد الى مصر ايضاً . وهكذا فان آثار فنون ما بين النهرين ومهنها وصنائعها التي نلقاها في مصر قبل عهد حكم الأسر وفي العهد الشبيه بعهد الأسر يمثل ظاهرة اخرى من توسع ما بين النهرين اثناء القسم الاخير من الفترة الشبيهة بالكتابية .

تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين في مصر في العهدين :
العهد السابق لحكم الأسر والعهد الشبيه به

أولاً — اثبات من خارج ميدان الفن .

أ — اشياء متنوعة مصدرها بلاد ما بين النهرين وجدت في مصر .

(١) ثلاثة اختام اسطوانية من الفترة الشبيهة بالكتابية المتأخرة .

ب — عادات واساليب شائعة في بلاد ما بين النهرين تقتبسها مصر بصورة موقتة وتتبناها .

(١) الختم بالاسطوانات المحفورة .

(٢) ابنية طوبية تحتوي تجاويف ومحاريب لأهداف تذكارية .

ج — أشياء مصدرها ما بين النهرين رسمت على نصُب مصرية تذكارية .

(١) رسم ثوب عراقي قديم على مقبض سكين في جبل الاراك .

(٢) فأس حربية مسننة على قطعة باقية من مزهرية يعود تاريخها الى ما قبل الاسرة الاولى[١] .

---

(١) هـذا الشيء مرسوم في كابارت نفس المصدر صفحـة ١٠٠ رسم ٧٠ وفي شارف
Die Altertümer der Vor - und Frühzeit Aegyptens
القسم الثاني لوحة ٢٢ رقم ١٠٨ .

(٣) سفن على مقبض السكين الذي وجد في جبل الاراك وآنية مزينة وبطاقات عاجية من الاسرة الاولى[1] .

ثانياً – اثبات من الميدان الفني ذاته :

أ – نماذج وأشكال مصدرها ما بين النهرين مرسومة في مصر .

١ – حيوانات مركبة لا سيما الحيوانات الخرافية المجنحة (نصف اسد ونصف عقاب) والسنّور ذو الرقبة الافعوانيـــة على اللوحات وعلى مقابض السكاكين .

٢ – صورة بطل يتغلب على اسدين كما يظهر في مقبض سكين من جبل الاراك وفي مدفن في هيراكونوبوليس . (راجع رسم ٢٤ على لوحة رقم ١٣) .

٣ – ازواج من الحيوانات المتشابكة على مقابض السكاكين وعـــلى لوحة نارمر .

ب – ميزات في اسلوب ما بين النهرين ظاهرة في مصر .

١ – مجموعة متباينة على مقابض السكاكين وعلى اللوحات .

٢ – مجموعة الحيوانات المفترسة تهاجم حيوانات جامدة على مقابض السكاكين .

٣ – تصوير الجهاز العضلي على مقبض سكين من جبل الاراك .

الا أنه خطأ مع ذلك ، ان تعزو مولد الحضارة المصرية الى الاتصال الذي

---

(١) لا شبيه في مصر في الأزمنة التاريخية للسفن ذات المقدمة والمؤخرة العموديتين بينما ان السفينة (belem) في ما بين النهرين – كما هي ممثلة في الفضة في مدافن اور الملكية – تتخذ هذا الشكل . انظر وولي « المدفن الملكي » لوحـــة ١٦٩ وانظر لبحث اقدم – فرانكفورت – « دراسات في الخزف القـديم في الشرق الادنى » جزء اول صفحـة ١٣٨ وما بعدها .

كان قائماً بين البلدين . ان دلائل التطور والتغير التي كانت تتجمع حوالي نهاية ما قبل عهد الأسر كثيرة جداً . وظاهر ان نتيجة هذا التطور والتغير كانت مصرية قطعاً في طابعها العام وفي خصائصها ، مما لا يتيح لنا أن نتكلم ، بهذا الصدد ، عن الاقتباس او الاتكال . وفي الواقع يمكن اغفال تأثير ما بين النهرين كلياً – الا في ميدان الكتابة . واغفالنا هذا لا يغير شيئاً في حكمنا من ان نتيجة التطور كانت مصرية . وقد قلنا في مكان آخر انه لا ضرورة لافتراض تأثير ما بين النهرين لنعلل تطور الحضارة الفرعونية لكن الحقيقة هي ان لدينا ما يثبت ان مثل هذا التأثير كان واقعاً بالفعل . فاننا نلاحظ ان مصر تعرفت في فترة من الابداع العنيف على ما كان قد تحقق في ما بين النهرين ، وانها استمدت الوحي منها ، وانها في تطورها الخاص السريع لاءمت وكيفت تلك العناصر التي بدا انها لا توافق جهودها . كانت تحوّل ما اقتبسته في الغالب ، وبعد زمن رفضت حتى هذه الاشكال المعدلة نفسها .

ومما يؤسف له اننا لا نستطيع بعد ذلك ان نجيب عن سؤال يعترضنا : اين تم الاتصال بين مصر وما بين النهرين ، وكيف تم هذا الاتصال ؟ اننا نعلم الزمن الذي جرى فيه فقط . ان دلائل الاثر السومري تشير الى الفترة الشبيهة بالكتابية في ما بين النهرين وخاصة الى النصف الأخير من هذه الفترة . ثم تظهر في مصر حوالي نهاية الفترة الجرزية واثناء بدء فترة الاسرة الاولى. وهذا بالطبع توافق زمني قيم ، ولو انه يستحيل حتى الآن ان نعبر عن ذلك بتواريخ مضبوطة . وقد يكون لذلك اثر على السؤال الثاني الذي يعترضنا وهو المكان الذي تم فيه الاتصال .

وفي مصر تكاد تنقطع دلائل الاتصال بسومر بعد حكم نارمر . وبما ان الاتصال بسوريا زاد ولم ينقص خلال عهد الاسرة الاولى فانه غير محتمل فيما يبدو ان تكون تأثيرات ما بين النهرين قد وصلت مصر من الشمال . ليست الحجة قاطعة. وقد رأينا ان الثقافة السومرية انتشرت على ضفتي دجلة والفرات

باتجاه شمالي ، وان هيكلاً كبيراً بني في براك على الخابور في شمال سوريا في الازمنة الشبيهة بالكتابية . لكننا لا نجد في سوريا دلائل على ان الثقافة المحلية تأثرت تأثراً عميقاً باتصالها بسومر . وقد يعود هذا الى عدم اكتمال اثباتاتنا ، أو قد يكون ان الثقافة السومرية لم تكن تقدمية بحيث انها لم تستطع الاستفادة من مثل هذا الاتصال بالطريقة الرائعة التي فعلتها مصر . ولكنه قبل ان نقبل بهذا الرأي يجب ان نبحث تفسيراً آخر .

قد يكون ان المصريين اتصلوا ببلاد ما بين النهرين في الجنوب على الطريق المؤدية من البحر الأحمر عبر الجزيرة العربية الى خليج فارس . غير ان هنالك حجتين ضد هذا الافتراض. ليس لذلك شبيه في الأزمنة التاريخية وليس فيما بين النهرين أي دليل على الاطلاق على الاتصال بمصر لكن لعل مكان الالتقاء كان منطقة ما على الطريق الجنوبية خارج سومر . ففي الهيا كل السومرية المصرية كان التبخير بالطيوب مألوفاً . وفي زمن هيرودوتس كان البخور مستعملاً لهذه الغاية في بابل . لكننا لا نعلم في اي وقت ادخل ذلك لأول مرة . وفي مصر كان البخور معروفاً من زمن قديم جداً ، وإذا صح ذلك بالنسبة لسومر ايضاً فان الاتصال كان يتحقق في المناطق التي يجلب منها البخور: جنوب البلاد العربية أو الشاطىء الصومالي . لعل بعثاتهما التي كانت ترسل لجلب البخور والافاوية كانت تلتقي او لعل السماسرة كانوا يطلعون المصريين على ما انجزه السومريون . ونحن نعلم ان الطريق الى البحر الأحمر من مصر - في وادي الحمامات - كانت تستعمل منذ زمن بعيد جداً . وقد وجدت تماثيل قديمة مهجورة للاله « مين » في القفط على الطرف المصري من تلك الطريق [1] .

---

(١) بتري - القفط - لندن ١٨٩٦ لوحات ٣ و ٤ و ٥ ورقم ٤ وكابارت نفس المصدر صفحة ٢٢٣ رسم ١٦٦ .

وهي تعود الى العهد الجرزي او الى الاسرة الاولى وتحمل رسوماً محفورة على جوانبها تتضمن سيفاً من سمكة السيف وصدفاً مجنحاً من البحر الاحمر . لكن علاقة هذه الحقائق بالسؤال الذي نحن بصدده أي المكان الذي حدث فيه الاتصال بين مصر وسومر لا بد ان يظل في الوقت الحاضر سؤالاً موضع بحث ونقاش .



فهرس الأماكن والأعلام

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ن

هـ

و

ي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



الفهرس


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



ف.ب (١٤٨)